

مهرجان القراءة للجميع



ملك من شعاع

عادل كامل

تقديم: رجاء النقاش

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي ذكي

القاهرة

ملك من شعاع

ملك من شعاع

عادل كامل

تقديم

رجاء النقاش



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

ملك من شعاع

عادل كامل

تقديم: رجاء النقاش

الغلاف: للفنان جمال قطب

الإشراف الفني:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

مقدمة

عادل كامل أديب فنان نابغ موهوب، وكان ظهور عادل كامل فى نفس المرحلة التى ظهر فيها نجيب محفوظ، أى فى أواسط الثلاثينيات. وقد ولد عادل كامل فى القاهرة فى ٢٧ فبراير سنة ١٩١٦، أى أنه أصغر من نجيب محفوظ بحوالى أربع سنوات، حيث أن نجيب قد ولد فى ١١ ديسمبر ١٩١١. والاسم الكامل لعادل هو عادل كامل فانوس. وكان والده من المحامين المرموقين. وعندما أكمل عادل دراسته الثانوية كان يريد أن يلتحق بكلية الآداب، إلا أن والده أصر على إلحاقه بكلية الحقوق حرصا على مستقبله العملى فدخلها سنة ١٩٣٢ وتخرج فيها سنة ١٩٣٦. ولم يستطع بعد تخرجه أن يلتحق بنقابة المحامين أو يمارس مهنة المحاماة، لأنه كان فى سن العشرين، وكان لابد أن يصل إلى الواحدة والعشرين من عمره حتى تقبله النقابة عضوا فيها، وبذلك أتيح لعادل حوالى سنتين كان فيهما متفرغا بعد تخرجه من الجامعة، وقد قضى هاتين السنتين فى إشباع ميوله الأدبية المسيطرة عليه، فقرأ الكثير من كتب الأدب العربى والأدب العالمى، وساعده على ذلك أنه استطاع أثناء دراسته أنه يتقن اللغة الإنجليزية إتقاناً كاملاً وكان كما يقول عنه الناقد الدكتور صبرى حافظ، «يقرأ الإنجليزية بسهولة متناهية منذ حوالى ١٩٣٢». أى عندما كان فى الثامنة عشرة من عمره. وعندما حان وقت انضمام عادل كامل لنقابة المحامين بدأ العمل بمهنته التى ظل يمارسها حتى سنوات قليلة وهى مهنة المحاماة، ولا أدرى هل يمارس هذه المهنة فى أمريكا الآن بعد أن هاجر إليها منذ حوالى ثلاث سنوات،

أو أنه آثر ـ بعد هجرته الأمريكية ـ أن يعيش مع أولاده الذين سبقوه إلى الهجرة دون أن يمارس عمله القديم. وأغلب الظن أنه فى هجرته لم يعد يمارس أى عمل، خاصة أنه فى الثانية والثمانين من عمره الآن.

يمثل عادل كامل فى أدبنا المعاصر ظاهرة فريدة من نوعها، حيث أنه بدأ حياته حوالى سنة ١٩٣٨ وكان فى الثانية والعشرين، وفى هذه المرحلة الأولى كان شديد الحماس للأدب، وكان حريصا كل الحرص على أن يعبر عن مشاعره وأفكاره فى أعمال أدبية كثيرة متواصلة، وقد استمرت هذه المرحلة حوالى خمس سنوات. ثم بعد ذلك تأتى المرحلة الثانية فى حياة عادل كامل وهى المرحلة التى قرر فيها الانقطاع عن الكتابة الأدبية والإنصراف النهائى عنها، والتفرغ التام لعمله فى المحاماة، بعد أن حقق فيها نجاحا كبيرا، وأصبح من المحامين المهمين والمعروفين. وبقى السؤال الحائر الذى يردده كل الباحثين: لماذا يتوقف أديب موهوب نابغ مثل عادل كامل فجأة عن الكتابة، رغم أن ما أنجزه من أعمال أدبية فى مرحلة نشاطه من أوائل ١٩٣٨ إلى أواخر ١٩٤٢، كانت أعمالاً جميلة ومهمة، وكانت هذه الأعمال تبشر بميلاد كاتب كبير، كان يمكنه لو استمر فى عمله الأدبى، أن يحقق الكثير وأن يقف فى الصف الأول من أدباء العرب الكبار فى هذا العصر؟! إنه سؤال حائر وليس له إجابة قاطعة. وقد أجرى الناقد المثقف الدكتور صبرى حافظ حوالى سنة ١٩٦٥ حواراً مع عادل كامل، وسأله عن الأسباب التى دفعته للتوقف عن الكتابة فقال عادل كامل فى هذا الحوار «مجلة «المجلة» يناير ١٩٦٦»:

«كان الأدب بالنسبة لى حياة كاملة، وقد غاليت فى حبه لدرجة العبادة وأقمته فوق منصة عالية من التقديس. وكانت الصدمة قاسية... مسرحيات أكتبها لا يعبأ بها المسرح، وروايات اضطر لنشرها على نفقتى ولا يقرؤها أحد. وأحسست أننى مثل عروس تفننت فى زينتها فلما خرجت لكى تلتقى بعريسها لم تجده. ونظرت من حولى فوجدت الأدب فى ذلك الوقت هو عمل من لا عمل له.... إنه عمل العاجزين أو المنحلين من رواد المقاهى،

فعزّت عليّ نفسى أن يكون هذا مصيرها، بينما أنا صاحب مهنة هى المحاماة، قضيت زهرة عمرى فى دراسة أصولها، ففعلت ما فعله الشاعر المصرى القديم «حسين الجزار» حين فتح محل «جزارة» وهو يشدو بشعره قائلا:

لا تلمنى يا سيدى شرف الدين

إذا ما رأيتنى «قصّابا»

كيف لا أشكر الجزارة ما عشت

حفاظا، وأهجر الآدابا وبها أضحت الكلاب ترجينى

وبالشعر كنت أرجو الكلابا

ثم يقول عادل كامل فى حديثه مع الناقد صبرى حافظ: «حين أقبلت على خطوة الانصراف عن الأدب والتوقف عن الكتابة كنت أعتقد اعتقادا راسخا أن الأدب علامة مرض لاصحة، وأن الإنسان الطبيعى الصحيح لا يفكر فى أن يجعل من الأدب مهنة له، وكان يحلو لى أن أحدث نفسى بأنه لم يرتفع قدر أحد من الأدباء إلا إذا كان هذا الأديب مريضاً بمرض من الأمراض مثل «السل» أو «الصرع» أو غير ذلك، وكنت أقول لنفسى هؤلاء جميعاً ـ أى الذين نجحوا فى الأدب ـ قد عجزوا عن النزول إلى تيار الحياة المتدفق، فأقنعوا أنفسهم بالجلوس على شاطئها يكتفون بوصف الحياة من بعيد دون أن يخوضوا معاركها الحقيقية» ثم ينتهى عادل كامل من حديثه مع الناقد صبرى حافظ، وكان ذلك كما أشرت حوالى سنة ١٩٦٥ ، أى بعد أن توقف عن الكتابة سنة ١٩٤٢ بحوالى ربع قرن.. يقول عادل كامل:

والآن بعد أن «بارت» المحاماة و«برت» أنا معها، أصبحت أيضا، فى حالة مثل حالة الشاعر القديم حسين الجزار، الذى بارت جزارته» و«بار» شعره كذلك فأخذ يقول:

أصبحت فى أمرى ولا أشكو

لغير الله، حائر

واللحم يقبح أن أعود

لبيعه والشعر بائر

يا ليتنى لا كنت جزارا

ولا أصبحت شاعر»

هكذا نجد أن عادل كامل عندما قرر التوقف عن الكتابة والانصراف عن الأدب سنة ١٩٤٢ كان متحمسلا لموقفه واثقا من صحة قراره، على أنه بعد مرور أكثر من عشرين سنة أصابه إحساس بالندم على قراره القديم بأن يهجر الأدب هجرة نهائية، إلا أن هذا الندم لم تكن منه فائدة عملية، إذ أن عادل كامل لم يعد إلى الكتابة ولم يقترب من الأدب ولم يملك بالقلم منذ أن اتخذ قراره الأول سنة ١٩٤٢ إلى الآن.

وهذا الموقف الغريب من عادل كامل يحتاج إلى دراسة، ليس مجالها فى هذه المقدمة العامة السريعة، وإن كنت أحب أن أشير هنا إلى أن الناقد الدكتور صبرى حافظ قد ألقى أضواءا دقيقة على هذه المشكلة فى دراسته الممتازة التى جعل عنوانها «عادل كامل والرواية المصرية»، وهذه الدراسة منشورة ـ كما سبقت الإشارة ـ فى مجلة «المجلة» المصرية الصادرة فى يناير سنة ١٩٦٦ ، فليعد إلى هذه الدراسة من يريد التوسع فى هذا الموضوع، فهى دراسة أساسية وشاملة عن شخصية عادل كامل وأدبه.

ونعود إلى عادل كامل نفسه لنقول إن الفترة التى كان متحمساً فيها للأدب والتى تمتد من سنة ١٩٣٨ إلى سنة ١٩٤٢ ، استطاع فيها هذا الأديب الموهوب أن يقدم أعمالا مهمة، منها: هذه الرواية البديعة التى بين أيدينا وهى «ملك من شعاع»، وقد صدرت هذه الرواية سنة ١٩٤١ ، وطبعها عادل كامل على نفقته لأنه لم يجد ناشرا يقبل نشرها، وتدور هذه الرواية حول شخصية «إخناتون» الفرعونى المصرى الشهير الذى توفى حوالى سنة

١٣٦٢ قبل الميلاد، بعد أن حكم مصر حوالى سبع عشرة سنة. وهو أول من دعا فى تاريخ الإنسانية كلها إلى التوحيد وأول من آمن أن الله واحد لا شريك له، و أن تعدد الآلهة خطأ ينبغى محاربته، وقد ثار عليه الكهنة وحرضا الشعب ضده، ورفضوا ديانته التى تقوم على الوحدانية وعدم الشرك بالله وقاوم إخناتون طويلا، ولكنه انهزم أمام أعدائه فى النهاية واضطر إلى النزول عن العرش. ويقال إنه لم يعش أكثر من ثلاثين سنة حكم منها سبع عشرة سنة. أى أنه تولى الحكم وهو فى الثالثة عشرة أو أقل. ورغم ما تعرض له إخناتون من هزائم إلا أنه يظل شخصية خالدة فى تاريخ مصر وتاريخ الإنسانية، وذلك لأنه كافح كفاح الأبطال من أجل عقيدة التوحيد، بالإضافة إلى ما بقى لنا من أناشيده الدينية الرائعة التى تعتبر أول نماذج للأدب الدينى الرفيع، أما شخصيته الإنسانية فقد تأثرت أشد تأثر بعقيدته الدينية الرفيعة، وتقول عنه «الموسوعة العربية الميسرة» صفحة ٦٦: «إنه أعلن على الملأ زهده وبعده عن أعراض الدنيا، وأنه لا يملك شيئا، وإنما السلطان لله، مالك كل شئ، وأعلن إخناتون أن للناس جميعا كامل حريتهم فى تنفيذ ما أرادته لهم حياتهم من مظاهر التطور، فانطلقت أيديهم تصور الحقائق الواضحة فى طبيعة الأشياء وأصبح الناس يعبرون عن أنفسهم بصدق ويكتبون بلغة سهلة تفهمها الخاصة والعامة. وإخناتون يصحب زوجته «نفرتيتى» إلى كل مكان يذهب إليه، وهو حين يخرج للنزهة لا يرى حرجا فى أن يقبلها على الطريق. وهما فى القصر يداعبان أطفالهما فى صور إنسانية صادقة. وحين يختطف الموت صغيرا لهما يقفان معا على نعشه نادبين باكين، كما يفعل الناس جميعا، وذلك كله يدل على نزعة إخناتون الصادقة فى الدعوة إلى الحق الذى يراه فى ربه، فيعيش بهذا الحق ويموت عليه».

تلك هى بعض المعلومات العامة الأساسية عن شخصية «إخناتون» وهى الشخصية التى اختارها عادل كامل لتكون موضوعا لأول رواية له وهى «ملك من شعاع». ويقول عادل كامل فى حديثه مع الناقد صبرى حافظ عن سبب اختياره لهذا الموضوع القديم: «كان

لابد لفن الرواية العربية أن يكون لها تراثها الخصب الذى تعتمد عليه، وكان لابد أن تبدأ أى محاولة لبعث هذا التراث من العصر الفرعونى، وكانت الدعوة القومية المصرية تلقى ظلالها علينا وتؤثر على خطواتنا وتلح فى مطالبتنا بإحياء هذا التراث المصرى الفرعونى المتألق. وكنت أريد أن أكتب رواية عن كل عصر».

فعادل كامل إذن كان متأثرا بالدعوة إلى احياء التراث المصرى الفرعونى التى انتشرت بقوة خلال العشرينات والثلاثينيات من هذا القرن، وكانت هذه الدعوة نفسها هى التى تأثر بها نجيب محفوظ فى نفس الوقت فأصدر رواياته الفرعونية الثلاث وهى عبث الأقدار «١٩٣٩» ورادوبيس «١٩٤٣» وكفاح طيبة «١٩٤٤». أما عادل كامل فكانت رواية ملك من شعاع هى روايته الأولى وقد أصدرها ـ كما سبقت الإشارة ـ سنة ١٩٤١. وفى هذه الرواية تتجلى موهبة عادل كامل المتفجرة فى اختياره لموضوع قوى وأصيل من موضوعات التاريخ المصرى الفرعونى، فإخناتون وعصره، هما من فترات الصراع الحاد المتألق فى تاريخ مصر القديمة، وفيها قضايا كثيرة تصلح لمخاطبة عصرنا الحالى والتعبير عنه، فالمجتمعات الإنسانية لا ترتقى وتتقدم بالنهضة المادية أو العسكرية فقط، بل لابد من نهضة فى القيم والأفكار والمشاعر، ولابد من أن تسود مبادئ إنسانية تقوم على العدل والأمانة واحترام الناس جميعا، وبدون ذلك فإن النهضة الحقيقية للإنسان والإنسانية لا يمكن أن تتحقق، وهذا ما نجده فى رواية «ملك من شعاع» فهى، مثلها مثل أى عمل فنى جميل وأصيل، تتحدث عن صراعات الماضى، ولكنها تتحدث أيضا بالإشارات الواضحة عن الحاضر والمستقبل، وترسم صورة حية لمدينة فاضلة يحلم بها الفنان ويدعو إليها. وقد صدرت هذه الرواية الثانية سنة ١٩٤٢. وبعدها توقف تماما عن الكتابة. وكان عادل كامل قد بدأ الكتابة بالاهتمام بالمسرح قبل أن يتجه إلى الرواية، فكتب عدة مسرحيات منها «شبان كهول» سنة ١٩٣٨، و«فئران المركب» وهما مسرحيتان مفقودتان، وفى سنة ١٩٤١ كتب مسرحية عنوانها «ويك عنتر»، وكلمة «ويك» معناها «لبيك»، وهى مسرحية كوميدية ضاحكة، ولا شك

أنها من أجمل وأعمق المسرحيات التى عرفها أدبنا المسرحى الحديث. ورغم قوة المسرحية وجمالها، فقد رفضتها الفرقة القومية عند صدورها، وقال عنها زكى طليمات إنها لا تصلح للتمثيل. ولا أدرى كيف أصدر زكى طليمات وهو رائد كبير من رواد الفن المسرحى هذا الحكم الخاطئ على مسرحية جميلة وناضجة مثل هذه المسرحية، ومما يشرفنى هنا أن أذكر أننى كنت سنة ١٩٦٤ عضوا فى «لجنة القراءة» فى فرقة «المسرح الحديث» فتقدمت بهذه المسرحية إلى «لجنة القراءة» مع تقرير فنى كتبته مطالبا بعرض المسرحية وتقديمها فوق خشبة المسرح، وقد وافقت لجنة القراءة بالإجماع على المسرحية. وظهرت المسرحية بالفعل على خشبة المسرح بعد تغيير إسمها من «ويك عنتر» إلى «عنتر وأنجه»، و«أنجه» هو اسم بطلة المسرحية.

هذه بعض لمحات متفرقة عن حياة عادل كامل وأدبه، أرجو أن تعطى القارئ الكريم صورة عامة سريعة عن هذا الأديب الكبير، والذى يحتاج إلى الكثير من الدراسات التفصيلية الأخرى حول إنتاجه الأدبى القليل المهم، وحول قضية توقفه عن الكتابة فى وقت مبكر، وانصرافه عنها إلى المحاماة؛ ثم هجرته النهائية من مصر إلى أمريكا منذ سنوات قليلة، فهذا كله يحتاج إلى بحث وتفسير ومحاولة للوصول إلى إجابات شافية.

رجاء النقاش

مقدمة

لعل « أخناتون » أعظم عاهل أعقبه التاريخ منذ الأزل . فقد تقلب على الأرض ملوك كثيرون نبغوا فى فنون الحرب ، فعرف التاريخ تحتمس ورمسيس ، وعرف الإسكندر وقيصر ، ولا يزال عهدنا بنابليون قريباً . ولكن أحداً من ملوك العالم لم يتأت له أن ينبغ فيما نبغ فيه أخناتون . وليس من بينهم من يستطيع أن يثير إعجابنا — بل دهشتنا — بمثل ما يثيره هذا الملك الشاب .

فأخناتون هو التاج الذى تألق به جبين الامبراطورية المصرية الاولى ، التى أقام صروحها تحتمس الثالث أول فاتح عرفه التاريخ . وإن المرء مهما يؤت من خيال منسرح ، لا يستطيع أن يبالغ فى وصف عبقرية هذا الملك . فغزو الممالك أمر سهل لقربه من الغرائز البشرية فى أبسط صورها . ومثله حب الفخامة وإظهار العظمة . ولكن المعجز حقاً هو أن يستطيع فرد وحيد أن يقول لشعوب العالم أجمع : « أنتم جميعاً مخطئون لأن الحقيقة على هذه الصورة » ، ولم تكن الحقيقة التى وصل إليها أخناتون حقيقة عادية ، ولم تكن كشفاً عن بعض مظاهر الطبيعة ، ولم تكن مجرد استنباط مجهول من معلوم ، بل كانت حقيقة فذة غير مسبوقة ، ثم هى بعد ذلك أعظم حقيقة فى الوجود لأنها الحقيقة الواحدة . فلقد أدرك أخناتون معنى النوّر على حين يتخبط العالم فى ظلام دامس . استطاع أن يكشف عن جوهر الكون ، فطالع العالم بسر الله الأحد ، خالق الكون . وتمكنت روحه من أن تستلهم معانى الذات الإلهية فأظهر للناس — أول مرة فى التاريخ — أن الله غفور ، رحيم ، محب للبشر

ولقد كان أمر أخناتون — وهو الملك الشاب الذى مات دون أن يتعدى الخامسة والثلاثين من العمر — مصدر دهشة عميقة لكل من كتب عن حياته من المؤرخين . « فالعلامة « بترى » يقول عنه : « لم يعرف العالم ديانة سامية كديانة

أخناتون من قبل . وهى التى مهدت لكل ديانات التوحيد التى أتت بعدها » .

أما وشخصية أخناتون قد أصبحت حقاً للتاريخ ، فمن العدل ، أن نترك أمر تقديمها للمؤرخين أنفسهم ، ويبقى لنا بعد ذلك مهمة الصقل الفنى لحياته ، وصياغتها فى العصر الذى ولد فيه بحث ينعكس عليها وتنعكس عليه .

وليس من واقعة ذات شأن فى هذه القصة إلا تستند إلى أساس تاريخى محقق . وليس من بين شخصياتها واحدة خيالية المنشأ . . أما التفصيلات المكملة التى اقتضتها الصياغة الفنية ، وكذلك الحبكة الروائية اللازمة لدعم القصة ، مما نظن أن فيها مايصدم الحقيقة ، أو ما يمكن أن يعترض عليه مؤرخ . إلا أن تصوير شخصية أخناتون نفسه قد استدعى بطبيعته إعمالا خاصاً للخيال ، غير أن هذا كان محكوماً عدلول تعاليم هذا الملك من جهة ، وبالملاحظة العامة للنفس البشرية من جهة أخرى.

يقول العلامة « برستيد » أكبر عمداء التاريخ المصرى القديم :

« إن لهذا الملك مركزاً ظاهراً وشخصية بارزة بين ملوك العالم على توالى العصور ، فهو أعظم الفراعنة فلسفة وأكبر الملوك شخصية على مدى التاريخ البشرى . لم يكن أخناتون فرداً عادياً . فهو إلى أنه سليل بيت المجد والشرف كان صعب المراس ، قوى الشكيمة ، لا يتردد أبداً فى إنجاز مشروعاته وإجبار أكابر مملكته على الانقياد لأوامره . أما شجاعته المعنوية فلا مثيل لها . إذ استطاع فى غير وجل أن يناهض بمفرده صرح التقاليد المتناهية فى القدم ، لكى ينادى بأفكار غاية فى السمو كانت فوق مستوى فهم العصر الذى عاش فيه . ولقد توصل هذا الملك العظيم بثاقب فكره إلى معرفة إله العالم خالق الكون ، والى الإيمان برحمته ورأفته بمخلوقاته . وصل به إيمانه إلى حد أن أصبح «منتشياً» بمعنى الإله ، فكان فكره يهتز فى حساسية ودقة تميز عجيبتين لكل مظاهر الله الحسية المحيطة به ، أبصر فى رفرفة أجنحة الطيور بين سيقان اللعلع نوعاً من الصلاة لخالقها ، كما تصور قفز السمك فى الغدير تسبيحاً لبارئها . هذه العقلية الممتازة هى التى جعلت المؤرخين يصفون أخناتون بأنه أقدم رسول معروف فى التاريخ الآدمى . كما تعتبر ديانته التى تتمثل فى قوله « ماأكثر مخلوقاتك المنوعة ! إنهاسر مكنون أيها

الإله الأحد الذى لا شريك له ،أقدم ماعرف عن علم التوحيد . وبموت أخناتون اختفت أظهر شخصية فى تاريخ الشرق القديم ، وتزايلت تلك الروح التى لم تعرف الأرض صنوا من قبل . والحق أن المرء لا يستطيع أن يحبس إعجابه الدافق لهذا الملك الشاب الذى انبعثت من صدره مثل هذه المعانى الرفيعة فى ذلك العصر السحيق . وجدير بعصرنا أن يقدر قيمة أخناتون ، حق قدرها ، وأن يمجد فيه عبقريته فى استنباط آرائه الفلسفية الباهرة ، وجرأته فى نشرها ، كل هذا فى أحوال سيئة لقى من أجلها الخسارتين : خسارة جسمه وخسارة ملكه » .

* * *

أما « آرثرويجل » المفتش العام للآثار بالحكومة المصرية سابقا ، والذى اشترك فى الكشف عن قبر أخناتون ، فلم يكن أقل إعجابا به وحماسة له ، فقد أفرد لهذا الملك الشاب سفرا جليلا نسب إليه فيه أروع الصفات التى يمكن أن يتحلى بها بشر . فهو يقول :

« إن حكم أخناتون الذى دام سبعة عشر عاما ، يبرز كأعظم حقبة لافتة للنظر على مدى التاريخ المصرى الطويل الأمد . إننا نرقب القافلة اللانهائية للفراعنة الغامضين ، يتألق نجم كل منهم لحظة سريعة فى الشعاع الخافق لمعرفتنا بهم ، دون أن يترك معظمهم سوى أثر هين فى الخاطر . إنهم محجبون بالضباب ، بعيدون فى الأحقاب ، حتى ليوشكون أن يفقدوا شخصياتهم . ونحن قد نذكر اسما ملكياً ما ، فتبدو لناظرنا هيئة غامضة تتحرك فى ثقل ومهابة ، ثم لا تلبث أن تغيب فى الظلمات . فقد يبعث اسم بعضهم ذكريات المواقع الفذة وصلصلة الأسلحة المرهفة ، ومن اسم الآخر تصدح موسيقى الحبور وترن ضحكات المرح ، فى حين يقرن اسم فرعون ثالث بأصوات العويل وصراخ البائسين . غير أن اسم «أخناتون» وحده هو الذى يضىء دياجى الزمن ، فيبعث لنا صورة جليلة واضحة ، لا يدانيه فيها فرعون آخر . صورة تشع منها ترانيم الأطيار ، وضحك الصغار ، وعبير الأزهار .

« ولأول مرة فى التاريخ نستطيع أن ننعم النظر فى عقلية ملك مصرى ، وأن

نلحظ تفعلها ونموها ، بما يثير فى روعنا الدهشة والإعجاب . ولقد وصف العلامة « برستيد » هذا الملك الشاب بأنه أول فرد ظهرت فيه روح الاستقلال الذاتى فى التاريخ البشرى . وإننا إذا أدخلنا فى حسابنا بعد الزمن الذى عاش فيه أخناتون وأدركنا كثافة الحجب التى مزقها حتى يكشف عن النور ، لوجب علينا أن نعتبره كذلك أول عبقرى وأول مثالى عرفه العالم .

« لقد تمكن أخناتون فى عصر نابض بالخرافات ، وفى مملكة بلغ فيها الإيمان بتعدد الآلهة حد التقديس المستند إلى شاهق من التقاليد ، أن يستوحى ديانة توحيد تكاد تضارع المسيحية نقاء وجمالا . كان أول بشر عرف معنى الألوهية على وجهها الصحيح ، وبينما الأرض تجلجل بصيحات الحرب ، كان هو يبشر بأول نظريات السلام المعروفة فى التاريخ . ثم كان إلى هذا أول رجل نادى باتباع البساطة والأمانة والصراحة والاخلاص قواعد للأخلاق ، وكان فى هذا يرسل صيحته من فوق أعظم عرش على الأرض ، فبدا أول فرعون أحب الإنسانية ، وأول بشر فى التاريخ خلا قلبه من كل أثر للوحشية .

« لقد استطاع أخناتون منذ ثلاثة آلاف عام أن يقيم لنا مثالا عاليا لا يزال هو الواجب الاتباع إلى يومنا هذا . مثالا لما يجب أن يكون عليه الوالد . وما يعمل بمقتضاه الرجل الأمين ، وما يحس به الشاعر ، ويكدح من أجله الفنان . مثالا لما يجب أن يعتقده العالم ويفكر فيه الفيلسوف . وقد بذل أخناتون — ككل المعلمين العظام — كل شىء فى سبيل مبادئه ، وخسر كل شىء . ومع ذلك فلا مجال للشك فى أن المبادىء التى وضعها ، والتعاليم التى بشر بها ، ستظل نبيلة سامية « إلى ذلك اليوم الذى تستحيل البجعة فيه سوداء فاحمة ، ويصبح الغراب ناصع البياض ، إلى اليوم الذى تنهض فيه الجبال لترتحل ، وتلقى الهضاب بنفسها فى الأنهار . إلى غاية الأبد » .

الفصل الأول

كان القمر يهبط متثاقلا إلى مضجعه الغربى ، حيث يستريح من طول ما عاناه فى سفرته الليلية . هناك يسلم قياد الكون إلى زميلته الشمس ، لينعم بالنعاس إلى مساء اليوم التالى . ولعله يستطيع أن يستثير شفقة زميلته ، فترضى بأن تقوم بدورته إلى جانب دورتها ولو لليلة واحدة .

إنه إن نجح اطمأن إلى نومة طويلة هانئة لايهدده فيها شبح يدها الثقيلة حين تهزه من رقاده ، وتهيب به أن يضطلع بنوبته . ماذا أدركه ! لقد بات شاحب الوجه ، مبهور النفس ، يسرى دبيب الضعف فى أوصاله ، وتتجمع غضون الهرم على جبينه . لقد أوشكت نهايته . وما هى إلا نوبات معـدودة ، حتى يهوى به الإعياء فى ظلمات الكون ، فينتهى به المطاف إلى مراقد أسلافه المنحوتة فى تلاع الزمن . حينئذ ينصب الموكلون بالليـل والنهار ابنه الوليـد على عرشه ، فيشيع فى الكون أن قد ولد هلال جديد .

ولكن «طيبه» المزهوة على امبراطورية فرعون العظيم ، لم تكن تشارك القمر تأملاته الحزينة . كانت كبطل سعيد هاجع فى أعطاف زوجه ، تطوف به الأحلام البهيجة ، فتشيع البسمة على محياه ، وتجعل من نومه قصة غرام جميل . فإذا مالاح الفجر ، هيأته هذه الأحلام ليقظة جبارة ترتعد لهولها فرائص المعمورة . أليست عاصمة الملك المجيد « امنحتب الثالث » الذى تنحنى لعظمته هام الملوك ، وتدين لسلطانه رقاب الأمم ؟

كان السكون مخيما على قصر فرعون ، فلا تميز الأذن سوى وقع أقدام حراس القصر الأشداء يذرعون جنبات الحديقة الملكية . وكانت الظلمة تلف أعمدته الباسقة المنطلقة فى عروش السماء ، فلا ترى العين سوى أشعة القمر الهفافة كنفح الزهر ، تتضح مدخل القصر بضوء هزيل لا يخفى ولا يبين . إنه جو كالسحر . وهل

القمر إلا ساحر عظيم يشيع فى السامر نشوة كنشوة الخمر ليسلبه من الرشاد ما يبغى ؟!

وإذ طاف بوجه القمر كسف من سحاب عابر، رفع حارس مدخل القصر عينيه إلى ساحره يستوضحه الأمر . وفى تلك البرهة برز من شرفة القصر شبح متسربل بالسواد، مالبث أن توارى فى ظل أحد الأعمدة، وهو يرقب الحارس المستغرق فى نجواه . وتراجع الشبح قليلا ثم طوح بشىء فى يمناه إلى طرف الحديقة القصى، فسقط بصوت مكتوم أفزع الحارس من غشيته فصاح: من هناك ؟ ثم اندفع فى سرعة لا تعرف الوجل إلى مصدر الصوت . ولم يكن الشبح ليطمع فى فرصة أوفق من تلك، فما ابتعد الحارس حتى هبط إلى الحديقة فى خفة الهر، ثم هرول يغادر القصر متخفياً بين الظلال والظلمات .

درج الشبح إلى منعطف فى الشارع القائم وراء القصر ثم وقف يترقب . لم يكن يطرق الأسماع فى ذلك الحين سوى أصوات الليل . ضفادع تنق على شاطىء البحيرة المواجهة للقصر، وصرصور فرد يرسل أزيزه الممتد ثم يصمت لحظة ليعاوده من جديد . على أن الشبح كان على يقين من أن عيون كهنة آمون المنبثين حول القصر لا بد أن يكونوا على مقربة منه . فاستكان فى مخبئه معولا على فطنة تابعه .

وفجأة علا صفير فى نهاية الطريق، ثم إذا بصوت يرتفع مرتلا أغنية «طيبه» الشهيرة :

ملء شدقيك نبيذ طيب
بينه خبز ولحم يعجب
هذه الثيران للذبح تمد
والنبيذ الحلو للشرب يعد
والأغانى على دق الطبول
أيها المحزون دع عنك العويل

وما إن فرغ المنشد من إنشاده حتى صاح فى غضب :

ــ أين ذهبت اللعينة ؟ وحق «آمون» لأجزينها على مكرها بى .

وفى هذا الحين برز من جوف الظلمات رجل طويل نحيل يعقد ذراعيه فوق صدره ، وجعل يتقدم من صاحب الأغنية فى بطء ، فلما أن دنا منه خاطبه بصوت جاف قاطع :

ــ أما تترك آمون أيها المخمور ؟ علام الضجة الآن !

خر صاحب الأغنية ساجدا ، وتعلق بأطراف ثوب الكاهن قائلا :

ــ سيدى كاهن المعبود الأعظم آمون . . ألف مغفرة . لقد كنت فى بيتى أشرب الجعة ، ومعى فتاة من أسرى قادش شريتها بمالى ، ولكنها غافلتنى وانسلت إلى حيث لا أعلم .

فلما سمع الشبح هذه الكلمات ، تحرك من مكنه وهم بالهرب . وإذ وصل إلى عرض الطريق بان فى ضوء القمر فلمحه صاحب الأغنية وصاح به :

ــ رويدك أيتها الماكرة . لقد رأيتك . أستميحك العذر والمغفرة يا سيدى الكاهن . ائذن لى باللحاق بهذه الخبيثة قبل أن تفلت .

فأجابه الكاهن فى اقتضاب :

ــ ابتعد عن القصر ، واعلم أن الحق لايضيع فى طيبه موطن الإله الأعظم .

فانحنى الرجل للكاهن وقال :

ــ شكراً ياسيدى . لعمرى إنك محق أيها الكاهن المبجل .

وانطلق يعدو فى إثر الشبح وهو يردد :

ــ سأعلمك كيف تحترمين قانون فرعون المقدس ابن الإله . اتحسبين الحال هنا كالفوضى الضاربة أطنابها فى بلادك الهمجية . .

ولحق بالشبح ، فأمسكه من يده ، ثم أخذ يجره وراءه فى عنف غير عابىء بنحيبه وتوسلاته . غير أنه لم يكد يتوارى به عن عينى الكاهن حتى خر أمامه راكعاً وهو يقول :

ــ معذرة مولاتى المقدسة . اصفحى عن عبدك الذليل .

فأجابه صوت نسوى رقيق :

ـــ لا بأس يا «تايا» . انهض وإلا انكشف أمرنا .

نهض «تايا» خاشعاً أمام مولاته التى أخذت تنعم النظر فى الطريق الممتد أمامها بين قصور نبلاء الملك وحدائقهم ، وأخيراً التفتت إلى تابعها قائلة :

ــ أتظنه قد شك فى حقيقة حالنا ؟

ــ كلا يامولاتى . أتجديننى أخفقت فى تمثيل الدور الذى أمرتنى بأدائه ؟

ابتسمت السيدة الجليلة ثم لفت لثامها حول وجهها قائلة :

ــ كلا ياتايا ، فقد كدت أصدق أنا الأخرى أنك مخمور حقاً . هيا بنا .

انحدرت السيدة وخلفها تابعها فى طريق متسع تحف به الرياض ويقوم النخيل على جانبيه . وكان نسيم الصيف الرطب يعبث بلثامها فيبين عن وجهها الوضاء . وبعد مسيرة دقائق عشر بدأت الأرض الحمراء (الصحراء) تظهر للعيان ساجية الرمال .

انحرف الشبحان إلى طريق ضيق ، سارا فيه بعض الوقت إلى أن وصلا إلى حافة الصحراء ، فتقدم تايا وجال ببصره فى الفضاء المنبسط أمامه إلى غير نهاية فلم يستطع أن يميز شيئا . ولكنه إذ بعث من فمه صفيراً خاصاً لم يلبث أن سمع الإجابة عنه من مكان غير بعيد ، فسار صوب الصوت تاركا مولاته متكئة إلى جذع نخلة عتيق .

وبعد برهة قصيرة تردد فى جنبات الصحراء صدى حوافر خيل مقبلة ، وما لبث أن ظهر تايا وهو يقود عربة مشدودة إلى فرسين فارهين لا تهدأ لهما حركة . وقفت العربة أمام السيدة التى خفت إليها مسرعة ، فما اعتلتها إلى جانب تابعها حتى انطلقت بهما فى جوف الصحراء .

وبعد مسير نصف ساعة بدأ معبد الإله «رع» يظهر جاثماً بين الرمال الهامسة . لقد شاء تعصب كهنة آمون ألا يكون لهذا المعبود الأول الذى انحدر من صلبه سائر فراعنة مصر معبداً داخل حدود طيبه ، فألقوا به بين الفيافى ، بعيدا ، منبوذا ، حيث الذئاب وبنات آوى . «رع» إله الشمس والحياة . . . إلا أن عناصر الشر لا تستطيع أن تتربع طويلا على عرش الأرض ، فلا بد أن تقيض الأقدار

يوما من بعيد إلى إله الآلهة وسيد الكون سابق سطوته وسالف عزه .

كان الليل مسهدا وسنان ، والصحراء تغشاها رهبة تمسك بالأنفاس . وبين حين وحين يتعالى من وراء الآكام صياح الثعالب وعواء الذئاب ، فيجيبها الفرسان بصهيل يدوى كالرعد فى سكون الليل ، وتتجاوب أصداؤه من بعيد كأنما تصدر من عالم سحيق .

تملك السيدة ذعر لعب بقلبها فحدثتها نفسها بالعودة . وخيل إليها أنها كلما أمعنت فى بطن هذه الصحراء العاتية تكاثرت من حولها الأخطار . إنها تعلم أن الأرواح المؤذية تتكاثف فى هذى الفيافى الموحشة على هيئة وحوش ضارية ، يطلقها بعض الآلهة الشريرة لخدمة أغراضهم . غير أن طموح السيدة وشدة شغفها ببلوغ مأربها ، مالبثا أن شددا من عزيمتها ونفثا فى فؤادها من الشجاعة ماراحت تؤيده بالصلاة للأرباب ، والابتهال إلى الإلهة « هاتور » الذهبية شفيعة النساء . ولكى تخفف من حدة هذه الرهبة طفقت تحدث تابعها قائلة :

— أترى تطول الرحلة كثيرا ؟

فأجابها التابع وهو يشير بأصبعه :

— انظرى يامولاتى إلى ناحية المغرب . تلك مسلة معبد « رع » بدأت تتوضح للعيان .

— ولكنى لا أرى العربات الأخرى . أتكون قد ضلت الطريق ؟

— إنها فى أعقابنا يامولاتى . لقد أمرت قائديها بالتخلف مرحلة حتى لا نلفت الأنظار بموكبنا .

صمتت السيدة هنيهة ، ثم قالت :

— تايا . . . أتظن الطريق مأمونا ؟

فأجابها التابع فى صوت خاشع :

— مولاتى . . . المؤمن بإله الشمس لا يخشى ضرا .

وكأنما أحس تايا بما استولى على مولاته من الرهبة ، فلنيطلق يتبسط معها فى الحديث ليخفف من جزعها .

— إن « رع » شفيق بالإنسان أعظم الشفقة يامولاتى . لقد تآمر عليه بنو

البشر مرة حين خيل إليهم أنه قد هرم وضعفت سطوته . وكان « رع » فى ذلك الحين يحكم الآلهة والناس على سطح الأرض . فما كان منه إلا أن صوب إليهم إحدى عينيه المقدستين ، وإذا بهم قد هربوا أشتاتا فى الصحراء . وحينئذ نصح له بقية الآلهة بأن يرسل عيونه إلى الأرض لتقتفى أثر المتآمرين ، وتعصف بهم عصفا شديداً . فأنزلها متجسمة فى هيئة الإلهة «هاتور» ، وانتظر يرقب عودتها . وأخيراً مثلت بين يديه فخاطبها قائلا : « أهلا بقدومك يا هاتور » . « فأجابته مزهوة مختالة : « طب قلباً أيها الإله الأعظم ، لقد كنت لعمرك شديدة البأس بين الناس . ولقد جلست فى سرة الدنيا آكلها خضما وقضما ، ثم عصفت ببنى البشر ودهيتهم بموت أحمر ، حتى صارت الأرض مناحة طامية . لقد سر ذلك قلبى كثيراً أيها الإله ، وإنى لمعاودة مهمتى على الفور » .

ارتجفت السيدة وانكمشت فى زاوية من العربة وقالت :

ـــ أهذه «هاتور» إلهة الحب المرحة الطروب بين النساء ؟

فأجابها «تايا» قائلا :

ـــ مولاتى ، لاتحكى على الآلهة فنحن لا نعرف حكمتهم . إن أنباء تاريخهم المقدس لايعرفها غير كاهنتا الأعظم بنف .

ـــ وماذا فعلت «هاتور» بعد ذلك ؟

ـــ لقد جزع «رع» الرحيم حين تجلى له شغفها بالدماء ، حتى خشى على شعبه من الفناء ، ففتقت له الحيلة أن يولم وليمة «لهاتور» . فلما حضر الشراب دس لها فى الجعة مادة خفية ، جعلتها تغيب عن صوابها حقبة طويلة . وبذلك كفت عن التنكيل بالبشر .

وصمتت السيدة لحظة ثم قالت :

ـــ ولكن كيف ساغ لرع بعد ذلك أن ينزل عن عرشه لأبنائه الفراعنة ، فلا يستمر فى حكم مصر بعدله وقدسه ؟

ـــ مولاتى ، إن «رع» لم يتخل عن مصر . إنه يشرق عليها كلما انبلج الصباح فيحمى نبتها ، ويطعم بهمها . ولكنه بعد أن خلص البشر من الفناء ، عافت نفسه الاستمرار فى حكم هذه المخلوقات التى لا وفاء لها . وقال : « بحياتى إن قلبى قد مل البقاء معهم » . فنادى البقرة المقدسة «نوت» ، وتسنم ظهرها ، ثم ارتفع إلى السموات العلى ، حيث يشرف على شئون البشر كل صباح . هذا يا سيدتى هو إله الآلهة الذى يريد كهنة «آمون» القضاء عليه ، وما آمون سوى بعض أتباعه .

ما إن أتم « تايا » قصته حتى كانت العربة تصعد التلعة التى يقوم فوقها معبد « رع » . وفى هذا الحين برز رئيس الكهنة بباب المعبد وظل منتظراً حتى وقفت العربة قبالته ، فساعد السيدة على الترجل ، وطأطأ برأسه بين ذراعيه الممتدتين، ثم خر ساجداً

تقدمت السيدة من رئيس الكهنة فمست رأسه بأصابع يمناها وقالت :

ـــ انهض يا أبتاه .

فمثل الكاهن خاشعاً أمام السيدة العظيمة ثم قال :

ـــ سلام «رع» وبركته تحلان فى صاحبة الجلالة المقدسة المملكة «تى» زوجة فرعون العظيم . الخير والسعادة والعزة لجلالة « امنحتب الثالث » ابن الشمس .

دنت الملكة من الكاهن وأسرت فى أذنه قولها :

ـــ يجب ألا يعلم زوجى المقدس بشىء مما سيتم الليلة .

ـــ إن شاءت مولاتى قتلت نفسى فى الصباح بعد أن أتم خدمتها .

ـــ لا بأس عليك يا أبتاه . إننا نحتاج إليكم لمناهضة كهنة « آمون » الذين يزداد قحتهم على مر الأيام . هل أعددت العدة ؟

ـــ كل شىء ينتظر أمر مولاتى صاحبة الجلالة .

ـــ حسناً . هيا بنا .

إلا أن الكاهن لم يبرح مكانه بل تململ قليلا وظهرت عليه علائم الحيرة والتساؤل . فرفعت الملكة إليه عينيها الجميلتين فى وجل قائلة :

ـــ ماذا يا أبتاه . . هل حدث ما أفسد تدبيرنا ؟

بادر الكاهن مجيباً فقال :

— كلا ياصاحبة الجلالة . لقد أتانى اليوم رسول من «الرائى الأعظم» بمنف ، فأخبرنى أن كاهننا الأكبر قد ابتهل إلى الإله « رع » الرحيم خمسة أيام كاملة . لم يطعم فى خلالها سوى قبضة من التمر، ولم يشرب إلا كوبا من الماء . وفى نهاية هذه المده تمكن أن يسحر عين الإله بالتعاويذ المقدسة التى لا يعرف سرها مخلوق غيره ، فحبسها فى صندوق صغير بعث به مع الرسول .

ذهب الروع عن الملكة ولاحت على شفتيهـا ابتسامة فتيه . وفى تلك الأثناء وقفت ثلاث عربات ملكية أمام باب المعبد ، فوثب منها ستة من العبيد العمالقة ، وخروا ساجدين فى انتظار أمر مولاتهم . التفتت الملكة إلى الكاهن وقالت :

— ما سبب خشيتك إذن يا أبتاه ؟

حنى الكاهن هامته ثم قال :

— سامحينى ياصاحبة الجلالة . لقد خشيت أن تكون مولاتى قد فاتها إحضار القرابين للإله .

ضحكت الملكة ضحكة كرنين الكؤوس الذهبية وقالت :

— لا تخف يا كاهن « رع » . لقد أحضرت للإله كل طاهر من الطيبات التى تستحق أن توضع على مائدة القربان .

وما أتمت الملكة حديثها حتى تعالى من أعماق المعبد صوت أجوف كهديل الحمام . فاستقام الكاهن عجلا وقال :

— مولاتى . لقد أزف الموعد . هلمى .

تقدم الكاهن فى طريق منحدر وتبعته الملكة ومن خلفها « تايا » ومعه العبيد يحملون مختلف القرابين من لحم وخبز ونبيذ ولبن ، فضلا عن الحلى والملابس وأدوات الزينة . فكان الطريق مسقوفاً شديد الحلكة ، لا يتردد فى جنباته سوى خفق الأقدام . وهبت من الطرف الآخر للطريق ريح باردة كثيفة تلسع الوجوه كأنها أكف الموتى .

وضعت الملكة يدها على كتف الكاهن، لا لتستوثق من الطريق فحسب، بل لتستأنس بالإحساس بقربه منها . لقد كان قلبها يدق كطبول الحرب لشدة ما تملكها من الذعر . وأخيرا قالت بصوت خفيض :

ـــ إلى أين نحن سائرون يا أبتاه ؟

ـــ لعل صاحبة الجلالة لم تدخل قبل الآن معبدا لإله الشمس ، إن معابد رع يامولاتى تتميز عن سائر المعابد .

ـــ أليس من نور نستضىء به ؟

ـــ رع هو إله النور .

وبعد أن سار الجمع قرابة مائتى خطوة ، دلفوا إلى ردهة متسعة ذات أعمدة شاهقة ، يتخللها ضوء القمر فيظهرها للرائى كأشباح جبارة ترقص حول النيران .

كانت رهبة المكان تفوق كل وصف . وانعطف الكاهن إلى الملكة وقال لها :

ـــ سندخل الآن إلى « قدس الأقداس » . فهل أنت طاهرة ؟

فأجابته الملكة فى شىء من الوجل قائلة :

ـــ أجل يا أبتاه .

وعاد الكاهن يسألها مستوثقاً :

ـــ هل مس أحشاءك المقدسة طعام غير الأطعمة التى أباحتها الشريعة ؟

ـــ كلا يا أبتاه .

تقدم الكاهن وفى إثره الملكة إلى نهاية قاعة الأعمدة ، حيث كان جمع من الكهنة قد خشعوا ساجدين احتفاء بجلالتها . فلما مرت من بينهم قاموا فحملوا القرابين التى أحضرها العبيد ، ودخلوا بها إلى ساحة المعبد ، حيث وضعوها على مذبح كبير من المرمر .

وبعد أن أتم الكهنة مهمتهم بادروا إلى الخروج من ساحة «قدس الاقداس»، فلم يبق فيها غير الملكة والكاهن ، الذى خر على وجهه ساجداً ، وراح يتلو صلوات

لم تستطع لها الملكة فهما . وبعد برهة رفع الكاهن رأسه وأومأ للملكة بأن تحذو حذوه ، فسجدت إلى جواره وشاركته الصلاة .

انطلقت سحب البخور فى أرجاء المعبد فنهض الكاهن وأخذ بيد الملكة متجهاً بها صوب مسلة إله الشمس ، فراحت ترمقها صعدا ، ثم التفت إليه تسأله فى حيرة :

— أين تمثال الإله « رع » يا أبتاه ؟ أريد أن ابتهل إليه كى يستجيب دعائى .

— ليس لرع تمثال يا صاحبة الجلالة . إنه الشمس ، إنه الضوء ، إنه الحياة .

وقف كلاهما خاشعين تجاه المسلة التى كانت قمتها قد التقطت أول أضواء الفجر الخافتة . إلا أن شعور الوجل لم يفارق الملكة فعادت تسأل الكاهن .

— أبتاه . إنى أخشى الإخفاق . لقد أخبرنى كهنة آمون ألا فائدة مما أطمح إليه .

أجابها الكاهن فى سخرية قائلا :

— ومتى صدق « آمون » وكهنته يا صاحبة الجلالة . . . لقد قال كهنته إن النيل سيكون غائضاً هذا العام ، فإذا بالفيضان يأتى عميا على صورة لم تعهدها كمى المقدسة (مصر) منذ عشرات السنين .

— وهل أكد الرائى الأعظم أن الإله سيتكلم الليلة ؟

— إن الإله مضطر إلى ذلك يا صاحبة الجلالة . فعينه حبيس الصندوق المخبوء فى دثارى ، ولا بد له أن يفك أسرها قبل الصباح ، لكى يتمكن من أن يشرق على الأرض كعادته .

صوب الكاهن بصره ناحية المشرق ، وانفك يحدق فيه وهو صامت . واستغرق به الحال عدة دقائق حسبتها الملكة أحقاباً طويلة . وأخيراً التفت إليها قائلا :

— ها قد لاحت تباشير الفجر يا صاحبة الجلالة . إن رع قد بدأ يطل بهامته على الأرض . وهذا هو الموعد المضروب بينه وبين الرائى الأعظم .

تقدم الكاهن من المسلة واستدار نحو وجهتها الشرقية والملكة فى إثره . وبعد أن تمم بصلاة خاطفة ، أخرج من صدره لفيفة من كتان ، ثم نزع غطاءها فبدا صندوق من خشب الأرز المحلى بالذهب والعقيق .

التفت الكاهن إلى الملكة قائلا :

ــ سأفتح الصندوق الآن يا صاحبة الجلالة . فحاذرى أن يقع بصر جلالتك على العين الإلهية التى بداخله ، فإن من يرى عين رع يعاجله الفناء .

سرت فى قرائص الملكة رعدة حادة فانكمشت فى دثارها ، وعاودتها الرغبة فى الفرار لتنجو بنفسها من كل هذا الهول . إلا أن الأمور الآن قد اطردت بحيث لم يعد التراجع مجدياً .

والتفتت الملكة إلى الكاهن تسأله :

ــ ماذا أفعل يا أبتاه ؟

ــ اركعى يا صاحبة الجلالة ، وأغمضى عينيك إلى أن أنبهك .

وبينما الملكة راكعة ، وضع الكاهن الصندوق على حافة قاعدة المسلة ، وفتحه برفق فشع منه وهج شديد البريق . ارتعدت يدا الكاهن فخر على وجهه ساجداً . ان هو الآخر يشعر بأنه يمارس لعبة محرمة ويعرض نفسه لأخطار الأسرار الإلهية.

ظل كلاهما راكعاً تحت أقدام المسلة الشامخة فبدوا كحشرتين تافهتين . وشمل كان رهبة الفجر وهو يطلق أضواءه الأولى كالحراب تمزق أوصال الظلمة .

وبعد لحظات استقام الكاهن بجوار الملكة وراح يتمتم فى أذنها قائلا :

ــ هل ترين النجم الملتمع فوق رءوسنا ياصاحبة الجلالة ؟

جالت الملكة بنظرها فى السماء المشربة ببياض اللبن ثم قالت :

ــ أجل يا أبتاه .

ــ هذا هو «نجم الأبرق» بشير النبت الجديد وابن الإله «إيزيس» . وسوف يتكلم الإله « رع » حين يسامت هذا النجم سنان المسلة المقدسة . صلى وابتهلى يا مولاتى إلى أن تحين هذه اللحظة ، فالإله رع يحوم الآن فوقنا وفى وسعنا أن تستعطف قلبه الشفيق ليجيب طلبتنا . لا تحرفى بناظريك عن نجم الأبرق يا صاحبة الجلالة .

لم يكن يخفق فى الصحراء من صوت على الإطلاق ، وكأنما المكان قبر كبير لا يؤمه غير الموتى . وعاد قلب الملكة يدق دقاً عاليا ، وازداد اضطراب أعصابها ، فلومر برقبتها الناعمة ظفر ، لكان كافياً لصدمها صدمة قد تودى بحياتها .

ظل الكاهن والملكة يحدقان فى النجم اللامع فى استغراق يبلبل العقل أحسا كأنما فقدا خواصهما البشرية وانمحيا فى أسرار الكون المحيطة بهما. وأخيراً سامت النجم سنان المسلة، وانطلق فى الأفق طير الصباح يردد أغاريده بنغم متتابع نفاذ. وفى هذا الحين حدثت ظاهرة شديدة العجب.

برزت أمام الملكة والكاهن أفعى رقطاء فاغرة الفم، وظلت تزحف متلفتة حتى بلغت حافة المسلة، فأخذت تصعد ببطء إلى أن علت سطح القاعدة التى وضع عليها صندوق عين الإله، وظلت الأفعى تطوف حوله وتدفعه إلى أن بلغت به حافة القاعدة. وبعد أن كان الصندوق مغموراً فى ظل المسلة أصبح يواجه نجم الأبرق، بحيث لو سقط النجم من السماء لاحتواه الصندوق.

وعندئذ توهج مابداخل الصندوق توهجاً يؤذى الأبصار، فبدا كشمس صغيرة تشع ضوءاً يكاد يتجسد. إلا أن هذا الضوء ظل يتضاعف بسرعة هائلة حتى صار فى هيئة لسان من نار.

قبضت الملكة على يد الكاهن وقالت وهى تلهث:

— أبتاه..

فضغط يدها فى رفق وقال:

— تشجعى يا صاحبة الجلالة.

ولكن الملكة عادت تقول:

— هذا الشعاع...

— ترين أنه أضاء الدنيا.

وبعد برهة عاد الكاهن يقول:

— أنصتى يا صاحبة الجلالة، فإن «رع» يتكلم.

ولكن الملكة لم تستطع أن تميز غير صوت فحيح الأفعى التى كانت قد همت برأسها وبجزء من جسدها المستنير بالشعاع. وكانت الملكة ترتجف ارتجافه المحموم.

— إننى خائفة يا أبتاه.

— انظرى يا مولاتى. الأفعى...

— إنها تطل برأسها علينا.

ــــ كأنما تومىء إلى شيء . . . .

أخذت الملكة تحدق فى الأفعى وأخيراً صاحت بصوت جذل :

ــــ أبتاه . . هل ترى ؟

وأشارت بأصبعها إلى الركن الغربى من قاعة « قدس الأقداس » . هناك تجلى الظل الذى يعكسه الشعاع المنبعث من الصندوق على جدار القاعة . وكان يحكى فى هيئته صورة فرعون جالساً على عرشه وبيده صولجان الملك . ولقد بلغ من دقة هيئته ووضوحها أن يحسبه الرائى أحد تماثيل أمنحتب بن حابو أمهر مثالى الملك . وثمة شيء آخر زاد دهشة الملكة . ذلك أن خيال الحية القائمة بجوار الصندوق كان ينعكس فى الظل على هيئة الصل الملكى ، فيتوج رأس رسم فرعون المتجلى على جدار المعبد . لبثت الرؤيا لحظات قصيرة ، وفجأة انمحى الشعاع المنبعث من الصندوق ، وانحدرت الأفعى إلى الرمال فتوارت فيها . أما الظل فلم يعد له على جدار المعبد من أثر .

استرخت أعصاب الملكة فانكفأت بوجهها على الأرض . أما الكاهن فقد انطلق يحمجم مسبحاً . وامتلأ الجو بسحب فضية من دخان أرج يطلقه خدام المعبد . فقد بزغت سفينة رع المقدسة من الشاطىء الشرقى ، وحان موعد صلاة الفجر التى تعين الإله على أن يتم رحلته سابحاً فى بطن إلهة السماء « نوت » .

وبعد تميل صدحت موسيقى خفية وعلا صوت الكهنة وهم يرتلون تحية الإله :

انتبه فى سلام أيها الإله الطاهــــــــر
وتجل على الأنام أيها الروح المنبثق من المشرق
أنت فى سفينة الغـــــــــــروب تنام
وفى سفينة الصبـــــــــــــاح تستيقظ
لأنك على الآلهـــــــــــــة تشرق
ولا إله يشرق عليـــــــــــــك
انتبه فى ســـــلام أيهـــا الإله الطاهر
وتجل على الأنام أيها الروح المنبثق من المشرق

استفاقت الملكة على صوت النغم فرفعت رأسها ثم التفتت إلى الكاهن قائلة:

ـــ أبتاه .. مامعنى هذا ؟

ظل الكاهن مطرقا إلى أن أتم صلاته ثم رفع رأسه قائلا :

ـــ أبشرى ياصاحبة الجلاله .

فأقبلت الملكة تسأله بلهفة :

ـــ هل أنجز الإله وعده يا أبتاه ؟

ـــ إن رع لا يخلف وعده . فهل تنجزين أنت وعدك ياصاحبة الجلالة ؟

ـــ إن ملكة مصر وزوجة أمنحتب المقدس لا تحنث فى قسم نطقت به .

ـــ أعيدى القسم إذن على مذبح الإله الجبار رع حور الأفق .

ـــ إننى على استعداد يا أبتاه .

ونهض الكاهن من سجدته الطويلة وتبعته الملكة فتوجها معاً إلى المذبح وكانت التسابيح تتصاعد من أفواه الكهنة على صوت الدفوف والأوتار فتملأ جوانب المعبد انغاماً إلهية رائعة . مدت الملكة يدها صوب المذبح وفتحت فاها قائلة :

ـــ أقسم بالمعبود « رع » سيد الآلهة ، وبزوجى الملك العظيم ابن الشمس ، وبالتاسوع الإلهى المقدس ، أنه إذا أنجز « رع » ماوعدنى به فسأهب ابنى لعبادته وحده ، وأحمله على القضاء على عبادة « آمون » العاتية المستبدة ، حتى يخلص العالم من الشرور والمظالم ، وينشر فيه الحب والأمن والعدل .

وانحنى الكاهن على قدمى الملكة وقبل طرف ثوبها ثم قال :

ـــ افرحى إذن يا صاحبة الجلالة ، واملأى الأرض بأعياد الحبور ، فسوف ينزل من أحشائك المقدسة فى هذه المرة غلام كريم . سيكون «ملكا من شعاع » يضىء الأرض بجماله كما أضاء شعاع «رع» أمامنا منذ حين . وسوف تكون عماله بهية كنفح الزهر . بهذا تكلم « رع » .

الفصل الثانى

رتل الفجر نشيده الفضى على إيقاع قيثارة من خيوط الشمس، تداعبها أنامل لنسيم الحالم. وسرت الأهازيج العلوية فى عناصر الكون، فكأنما عرت الأرض رعدة كنبضة الشريان ، يكاد يحسها السامر والمتعبد . وجرى اللحن فى رفق رقيق أشبه بتمتمة عذراء تجاوبها أنفاس وردة ناعمة ، فتململت أعلام البسيطة ثم عادت إلى النعاس . وابتسمت الشمس فى خبث ، ثم همت برأسها على الأفق ، وأطلقت فى الفضاء كتائب من أشعتها فأصابت الأهداف جميعاً . وتعالت أنغام الفجر شيئاً فشيئاً ، حتى انتهت إلى زئير جارف اشترك فى إيقاعه كل عازف فى السماء . حينئذ لم يبق فى طوق الجبال أن تهجع، ولا الوديان أن تستنيم . وتثاءبت الدوح وأسرع ماء النهر المقدس فى جريانه . أما الورود فقد حسرت لثامها لتغسل محياها بماء الطل ، على حين نزعت الصحراء رداء الليل الأدكن وتدثرت بضياء الذهب .

أوى البوم إلى كهوفه وتوارت الذئاب ،
وانطلقت أسراب الطير تشقشق بتهورها المألوف ،
وهفت الفراشات تترجح كأنما ترقص على دق الدفوف ،
ونبض قلب الحياة معلنا أن يوماً جديداً قد ولد ،
فبدأ دبيب الحركة يسرى فى شعاب طيبة .

غير أن الفجر كان له نغم آخر فى ضاحية قصر فرعون ، فقد تسللت رسله المسجدية من خلال أعمدة معابد أمنحتب الرائعة حتى استقرت فى قمتى مسلتى حتشبسوت الذهبيتين ، حيث راحت ترقب القصر وتعد نفسها لإيقاظ سكانه الأمجاد فى نعومة ورفق .

ولكن واحداً من أهل القصر لم يكن فى حاجة إلى إيقاظ . فقد رأته ألسنة الشمس خاشعاً على وجهه كما اعتادت أن تراه منذ شهور طويلة ، دون أن تفتقده

فى صباح ما . غير أن طول الخشوع كان قد أسلم هذا الفتى النحيل إلى نعـاس خفيف . وهب عليه نسيم الصباح الرطب ، فاستراح إلى طمأنينةعذبة ، وارتسمت على قسماته ابتسامة ملائكية أنارت وجهه .

وبعد هنيهة سرى فى سكون المدينة الهاجعة صوت أجوف ، وظلت زمزمته متصلة الأنغـام برهة طويلة يختلف فيها بين الرفع والخفض ، والاسـتقامة والالتواء : تمثالا ممنون يرتلان صلاة الفجر ، ويعلنان القوم بأن «رع» قد استقبل سفينة الصباح . فزع الفتى من نومه ، واستوى على قدميه ، ولـكنه ما لبث أن ابتسم فى سعادة قلبية ، وهو يستمع إلى موسيقى الصباح ، ويرقب ألوان السحر . امتلأ قلبه حبوراً وأحس بخفة تغريه أن يطير ، فأخذ يبسط ذراعيه فى الفضاء ويضمهما إلى صدره ، كأنما يحتضن عزيزاً لديه . واسترعى نظره على سور السطح قافلة من النمل تدب دبيبها الأبدى وهى محملة بشتى الأسلاب . ولـكن ثمة نملة كانت متخلفة عن الركب مطروحة إلى جانب الطريق ، وكأنما نبذتها زميلاتها فما يقربنها إلا ليوسوسن إليها بذلك السر الخالد الذى لابد أن تودعه كل نملة صدر من تصادفه من بنات جنسها قبل أن تستأنف السير .

حدب الفتى على النملة المنبوذة وهو يحدثها قائلا :

ــ مابالك متخلفة ياأختاه ؟

ورآها قد ألقت حملها بجانبها ، تدفعه خطوات قليلة ثم تستريح إلى جواره وسرعان ماأدرك أن صديقته النملة مصابة فى ساقها بما يمنعها من ملاحقة قافلتها . وكانت المحاولات التى تأتيها لمواصلة السير بحملها تدمى قلب الفتى النحيل . فراح يبحث حتى عثر بورقة يابسة من أوراق الشجر ، وضع عليها النملة الجريح فى حرص شديد ، والتقط لها حملها الدقيق فأسقطه بقربها ، ثم أناخها بجانب الوكر الذى تتجه إليه القافلة . نزلت النملة عن الورقة فى تردد وخشية ، فهى لا تعرف طريقها إلا إذا كان متصلا . ولـكنها مالبثت أن تبادلت كلمات السر هى والجحافل المتراصة التى تدخل وتخرج من أبواب المدينة فى هرولة ونشاط ، وسرعان ما اطمأنت إلى طريقها فدلفت إلى المدينة .

فى هذا الحين نفذ إلى أذنيه صياح ديكته تناديه من الطرف الآخر للسطح فهرول إليها . وأحس فى طريقه بالدم الذى كان يكتشفه كل صباح سائلا من فه الرقيق، فمسحه بظهر يده فى غير مبالاة . كان لا يشفق على مايحويه برده من جسم نحيل ضعيف ، وما حاول مرة أن يجنبه الصب أو يدفع عنه المشقة ، بل يغدو ويروح فى غير انقطاع ، يلاطف هذا ويداعب ذاك ، ويحنو على أصدقائه من الطير والحيوان . لقد كان على الدوام منتشيا يخمره أمه الطبيعة التى يتعبد بأسرارها كل سحر ويغدق على مخلوقاتها من نفسه طوال النهار . وكانت كل عناصر الكون تحبه وتسعد بقربه .

نثر الفتى البر لديكته ثم توجه إلى حمامه يطعمه بيديه، فسقط على رأسه وكتفيه، وأخذ يتمسح به فى لهفة محب وامق . ولم تكن الابتسامة تفارق شفتى الفتى ، وأضواء الغبطة الباطنة تلتمع فى عينيه .

جاء هذا الصباح بعد عشر سنين ونيف من زيارة الملكة لمعبد الإله « رع » . ولقد بجز الإله وعده فى هذا الفتى النحيل : أمنحتب الرابع ولى عهد فرعون الذى جرى البلاط على تلقيبه بأمير « الأحلام العذبة »

وبدت فى نفس الأمير بادية ، فهبط إلى داخل القصر فى خفة الهر ، واخترق أبهاءه فى حذر ، ثم وقف يتسمع لحظة فلما استوثق أنه لم يحس به أحد من أهل القصر النيام دلف إلى الحديقة .

جلس الأمير خلال الأشجار المورقة ، وظل يسير متخفياً حى وصل إلى بحيرة والدته الملكة «تى» ، التى اصطنعها فرعون خصيصا لنزهتها ، وزرع على شطآنها أشجارا استوردتها حملة ملكية خاصة من الصومال . وكانت سفينة الملكة التى أطلقت عليها اسم «وهج آتون»ــ تشريفاً للإله «رع» الذى بر لها بوعده ــ نائمة فى سكون على صدر الشاطىء .

إنه يذكر كيف ثار كهنة « آمون » حين انتهت إليهم هذه التسمية . إن جعل مقر الملك طيبه حيث لا يعبد غير آمون، واختيار الملكة لسفينتها بعض أسماء معبود منف ، لما ينافى الهيبة ، الواجبة لمعبود الدولة الرسمى . وجاء « بتاح » موس رئيس كهنة آمون ووزير الدولة واختلى بالملك عدة ساعات يكلمه ويقنعه . هل نسى الملك

سر مولده ؟ لقد كان والد فرعون فى ذلك الحين متغيباً فى رحلة صيد بالقرب من الأهرام، وقبل عودته بليلة اتخذ آمون هيئة فرعون المسافر، ودخل إلى مخدع الملكة التى حسبت أن زوجها قد آب من رحلته، فرحبت به وهيأت مكاناً لراحته. فكان أن ولد أمنحتب الثالث فرعون مصر من صلب الإله نفسه. فكيف يستسيغ ابن آمون أن تحتمى زوجه بإله غير أبيه!

وعده الملك أن يتدبر فى الأمر. وكانت «تى» بالباب فما خرج الوزير حتى دخلت على الملك. وتدبرا فى الأمر سويا. وفى عصر هذا اليوم عرف العالم بأسره ماانتهى إليه هذا التدبير، فإذا به يقضى بإقالة «بتاح - موس» من الوزارة، وقصر وظيفته على رياسة كهنة آمون، وما وقف الأمر عند هذا الحد. فقد اشتمل المرسوم الملكى أيضاً على تعيين «رع - موس» وزيراً بدلا من الوزير المقال... «رع - موس» أقوى أنصار الإله «رع»... بهذا أمر الملك. والملك إله لابد أن يطاع. ولكن كهنة آمون يعرفون من هو الآمر الحق. إنه «تى» ملكتهم الأجنبية وعدوتهم اللدود، التى أصبحت على مر الأيام الحاكم الخفى لكل أقطار الامبراطورية المصرية. وثار كهنة آمون على هذه الإهانة المزدوجة، وتوجهت جموعهم إلى «بتاح - موس» تطلب منه إجراء سريعاً حاسماً. ولكنه ابتسم لهم فى هدوء وقال إنه ينتظر أمر الإله.

ولكن ما للأمير الآن وهذه الذكريات القديمة! استغرقته من جديد مهمته المحبوبة، فتقدم من السفينة فى حذر وترقب. لم يكن بها حركة تومىء بأن أحداً من من بحارتها قد استيقظ. فاقترب من القارب الصغير المشدود إلى السفينة، وحل رباطه ثم هبط إليه وجعل يجذف فى رفق متجهاً إلى شاطىء البحيرة الشرقى. ولم تكد سفينة «رع» تقطع مرحلتها الأولى، حتى كان الأمير كامنا على قمة التل المواجه لقصر النبيل «آى» صديق الملك. وظل قابعاً وراء شجيرات البرتقال لحظة وعيناه مثبتتان فى نافذة مغلقة بالطبقة العليا للقصر. تناول بعض الحصى وجعل يرجم به النافذة. ولكنه لما لم يستطع أن يصيب الهدف، أقلع خشية أن ينبه من لا يريد إيقاظه من أهل القصر.

وحاول الأمير أن يتخذ وسيلة أخرى، فجعل يطلق من فمه صفيرا متقطعاً يشبه صوت البلبل، ولكن النافذة بقيت على إغلاقها . وكاد يسقط فى يده . ولكنه بعد فترة قصيرة لمح مخلوقين غريبين يخرجان من القصر وكان يراهما من مكمنه على هيئة قردين زنجيين يسعيان على الأرض بخطى تثير الضحك فى أقسى القلوب .

ولكن الأمير كان يعرفهما جيداً، فقهقه مسروراً وهبط من مخبئه لملاقاتهما . لم يكن هذان المخلوقان سوى « بارا » و « رينو » القزمين اللذين أحضرهما « آى » وهو عائد من رحلته فى بلاد النوبة ، وأهداهما إلى ابنتيه « نفرتيتى» و « نزمت »، فهما تقضيان النهار فى ملاعبتهما والتفكه بهما . وكان لهذين القزمين شهرة واسعة فى البلاط الفرعونى . وكثيراً ماطلبهما الملك من صديقه « آى » ليحييا ولائمه وليضحكا مدعويه . وبلغ من إعجاب الحاشية بهما أنهما كانا يدخلان أية حجرة فى أى قصر بغير استئذان . ولم يكن يستثنى من ذلك حجرة الملك ولا مخدع الملكة . واتسعت سلطة هذين القزمين فصار يطلبهما رئيس كهنة « آمون » ليقوما بالرقصة المقدسة فى أعياد الإله .

كان الأمير فى منعرج من التل ، فلما أصبحا على مرمى السمع ناداهما فسرعان ما توقفا عن العدو فجأة ، ثم عقدا يديهما فوق صدريهما برهة طويلة ، التفت بعدها بارا إلى رينو وقال له فى جد مضحك :

ــ هل سمعت نداء أيها الأمير « رينو » ؟

تصنع رينو أنه لم يع كلمات رفيقه فنظر إليه زاماً مابين عينيه ثم قال له :

ــ ماذا تقول أيها الوزير « بارا » ؟

استشاط « بارا » غضباً فصاح قائلا :

ــ أأنا وزير . . . أنا « بارا » سيدك وملكك ورب نعمتك . . . إن لم تسجد لى من فورك فسآمر بدق عنقك .

إلا أن رينو لم يسجد لزميله ، بل هجم عليه هجمة عنيفة ، وانهمك كلاهما فى عراك شديد ، فسقطا على الأرض يتقلبان ويتدحرجان ، لايبين منهما غير أرجلهما القصيرة، تبدو على ستار الأفق كأوتاد الساقية . خرج الأمير من مكمنه

وهو لا يحكم قدميه من فرط مايهتز جسده من الضحك . وهرع إليهما فما رأياه حتى خرا ساجدين ، تاركين أمر ثأرهما إلى حين .

وضع الأمير يديه على رأسيهما قائلا :

ــ إنهضا أيها العزيزان

فنهض القزمان وأطلقا من شفتيهما سيلا من الاعتذارات والاتهامات فى صوت واحد ، وكل يشير إلى زميله وإلى الأرض وإلى السماء ، بيديه ورجليه ورأسه ، فكانا كأعصارين أهوجين يرسلان جلبة دفعت الأمير إلى أن يطبق يديه على شفتيهما قائلا :

ــ اصمتا بحق الآلهة . هل مسكما خبل !

ثم التفت إلى « بارا » وسأله قائلا :

ــ هل استيقظت سيدتك يا « بارا » ؟

فابتسم الخبيث وقال :

ــ إن لى ياصاحب السمو سيدتين . هل يسأل سموك عن سيدتى « رمت » ؟

فضحك الأمير وقرص « بارا » فى رقبته بلطف ثم قال :

ــ أنت تعلم من أريد أيها الماكر . أين « نفرتيتى » ؟

رفع « بارا » عينيه نحو السماء مستوحياً ثم انطلق يقول :

ــ نفرتيتى . . . . نفرتيتى . . . . أين أنت الآن يانفرتيتى ؟ تراك فى السماء تحلقين ؟ أم على الأرض تسعين ؟ تراك . . .

وكان الأمير يعلم أساليب « بارا » حق العلم ، فابتسم وأخرج قطعة ذهبية ألقى إليه بها قائلا :

ــ خذ فلعل هذه تعينك على البحث .

التقط « بارا » قطعة الذهب فى لهفة ثم انتصب قائلا وهو يشير إلى القصر :

ــ فلينظر سموك إلى هذه النافذة ، وفى أقصر من أمد صيحة الديك تكون سيدتى نفرتيتى مشرفة على سموك منها .

وانطلق يعدو . وشيعه الأمير ببصره ثم رفع عينيه صوب النافذة ، وتمتم مستبقا ظهور غادته قائلا : ياما أحيلاها . . .

الفصل الثالث

كان جناح الملكة « تى » أبهى أجنحة القصر الملكى . افتن فى بنائه المهندس العبقرى « امنحتب بن حابو » ، وكسا جدرانه وأسقفه بمختلف الصور البارعة « أوتا » رسام الملكة الخاص . من هذا المخدع كانت تحكم مصر . فيه تصرف أقدار الرجال والمستعمرات ، وبكلمة من صاحبته تسير الجيوش لتفتح البلاد . وبإيماءة منها تبنى المعابد وتقام الشخوص الملكية ، أو يقال الوزراء ويبدل الحكام . فلا عجب أن كانت المقصد والمآل ، وكانت حاشيتها من النبلاء والنبيلات هم أصحاب الكلمة وأدوات الحكم فى الامبراطورية المصرية التى شملت العالم بأسره .

وكان فرعون العظيم راضياً عن كل هذا يقابله بابتسامة هادئة ، ولا يدخر وسعاً فى الاستجابة إلى أهواء مليكته العزيزة . فهو يعلم أن هذه كلها ليست سوى لعب ودمى تتلهى بها زوجته ، وتصرف فيها نشاطها الفياض ، دون أن تنال من سلطانه الإلهى الذى يخشع له كل مخلوق على الأرض . لقد ترك لها عبث الحكم ومظاهره ، واحتفظ لنفسه بجوهر السلطة ومظهر الأمر . إنه فرعون ابن الآلهة وأمبراطور مصر . ماذا يهمه بعد ذلك من سفاسف الأمور ، وتافه الحكم الذى يعنى به النساء عادة . . فلتتله زوجه المحبوبة ماشاء لها التلهى . وإنه بها لجد مسرور .

كان الملك كلما جد أمر يختلى بمهندسه « امنحتب بن حابو » ، الذى كان يؤلهه المصريون لفرط ماعرف عنه من الحكمة ونفاذ البصيرة . وبين يديهما كانت تطرح أسرار الدولة الدقيقة ، فتوزن وتناقش ، ثم ينتهى فيها إلى قرار . وتسرى تيارات خفية فى أعصاب المملكة ، فإذا رغبات الملك قد تحققت فى أدق تفاصيلها ، دون أن يشعر بالأمر أحد . وفى المحافل والأعياد كان فرعون هو الذى يظهر على الملأ ، محاطاً بأفخم أنواع الأبهة الملكية ، فتعنو له الجباه وتخشع الهام . فبينما يخيل للملكة أن فرعون لم يعد له غير مظاهر الملك ، يعلم هو يقيناً أن الملكة إنما تعبث بما يسمح أن يتركه لها من قشور السلطان .

هكذا كانت حياة الملكين عنوان السعادة فى كل الأرض . وعرف المصريون

فى أمنحتب الثالث أبهى ملك حكم النيل . كان مليح الوجه ملاحة نادرة ، فنادوه « بفرعون الجميل » ، ولقبوه «بالمجيد» . وشعر أمراء المستعمرات المصرية بسنان سيطرته تخزهم فى ضلوعهم ، فدانوا له بالطاعة والتمسوا رضاه بقوافل الجزية التى كان ورودها الدائم إلى البلاط الملكى لايترك لموظفى الجمارك المصرية لحظة راحة . كان ثراء مصر فى هذا العهد بمايفوق الوصف . حتى أصبح الذهب والفضة عدد الحصى والرمال . تستجديه ملوك آسيا ، فيبعثره فرعون عليهم بغير حساب .

كان السكون يسود جناح الامبراطور العظيم فى هذا الصباح ، على حين خلا جناح الملكة من صاحبته ، فما نبض فيه صوت . لم تنم الملكة ولم ينم فرعون هذه الليلة .

وأطلت الشمس على الأرض تصليها بأشعة حمراء لاذعة ، فاصطفق نبض الحياة فى طيبة بزاخر من الحركة ، وارتفع ضجيج القوم فى مسارب المدينة . ومع ذلك فقد بقى القصر غارقا فى سكون مهيب : الصوت فيه همس ، والحركة على أطراف الأقدام .

وكان هذا الصباح هو اليوم الأول من الشهر السابع من العام ، وفيه تفتتح أعياد طيبة التى اعتاد امنحتب أن يحييها طوال عهده ، حتى سمى هذا الشهر بشهر أمنحتب . وكان العام هو السادس والثلاثون من حكم الملك المجيد ، كما اتفق أن كان الاستعداد لمراتع هذا العام يبز كل ماسبقه أبهة وفخامة . فكانت الأعلام الزاهية ترفرف على مئات السفن المتمايلة على صدر النيل ، والغناء ينبعث من كل مكان ، والرقص يدور فى كل ساحة . حتى « باراء » و « رينو » كانا قد جمعا حولهما حلقة من المشاهدين ، أخذت تتسع تدريجاً حتى سدت الطريق .

بدأت جموع الأشراف وكبار الكهنة يؤمون القصر ويتجمعون فى ردهات طبقته الأولى فيتحدثون ويتندرون ، وحجاب الملك وأمناؤه يسعون بينهم مرحبين مكرمين ، على حين يقدم لهم الخدم الجعة والحلوى

ولكن فرعون لم يظهر له أثر . ترى أين يكون ؟ لقد خرج من مخدع الملك بالطبقة العليا كهل أشيب هو « تحتمس » الطبيب . وكان الوزير « رع —

موس » مرتقبا بالباب فتلقاه فى لهفة وتساؤل :
ــ كيف الحال ؟
وكأنما تقوم حرفة الأطباء على فن التعمية منذ خلقت الأرض ، إذ هز تحتمس رأسه الأبيض فى تثاقل وقال :
ــ فلندع إلى الإله آمون أن يشمل ابنه برعايته .
ولكن الوزير لم يقنع بهذه الإجابة المبتورة . فهو مسئول عن إتمام مراسم هذا العيد فى الأوقات المحتومة ، كما أن هذا اليوم قد حدد لكى يقابل فرعون فيه مندوبى المستعمرات المصرية . ومع ذلك فإن هذا كله يهون بجانب ما كان لدى « رع - موس » من أنباء خطيرة يريد أن يفضى بها إلى الملك . لهذا أصر الوزير على أن ينتزع من الطبيب إجابة واضحة ، فاقترب منه وأمسك بذراعه قائلا :
ــ إنك يا « تحتمس » فخر أطباء مصر . فأخبرنى بحق « تحوت » إله الطب هل . . .
وقبل أن يتم الوزير كلامه فتح باب مخدع فرعون وظهرت الملكة « تى » . كانت مرفوعة الرأس بالرغم مما مس وجهها من الشحوب ، وما يرى على عينيها من أثر السهاد . والتفتت إلى الوزير وقالت له بلهجة قوية النبرات :
ــ أنت هنا يارع - موس ؟
خشع الوزير برأسه وعقد يديه فوق صدره ثم استقام قائلا :
ــ إننى طوع أمرك ياصاحبة الجلالة .
صمتت الملكة وقتا وهى تتنقل بعينيها بين الطبيب والوزير ثم قالت :
ــ فلتعد العربة الفرعونية أيها الوزير .
وكأنما لم يصدق الوزير ماسمع ، فثبت لحظة فى وقفته وهو ينظر الى الملكة مدهوشا ، وأخيراً قال :
ــ هل يستقل جلالة الملك عربته اليوم ؟
تراجعت الملكة برأسها إلى الوراء وأنفذت إلى الوزير نظرة قاطعة ، ثم قالت ساخرة :

ــ هل هناك من يستقل العربة الفرعونية غير الملك يارع ــ موس ؟ "
كان الطبيب ملتزماً الصمت طوال هذه المحاورة . ولكنه ماسمع عبارة الملكة الأخيرة حتى تقدم إليها وقد فارقته تؤدته المستعارة وقال :
ــ أستميحك المغفرة ياصاحبة الجلالة . إن مولاى الملك لايحسن له . . .
ولكن الملكة لم تتركه يتم بل صاحت فيه قائلة :
ــ تحتمس . . . أنت طبيب ، ولقد قال الطب على شفتيك كلمته . إنما نحن زوج فرعون فنتكلم فى سياسة الدولة . فرعون لايحسن له التحرك محافظة على صحته ، ولكن فرعون يحب أن يسير اليوم على رأس موكبه لأن مصر تريد ذلك .
ثم التفتت الملكة إلى الوزير قائلة :
ــ هذه إرادة الملك يارع ــ موس .
انحنى الوزير فى خشوع وهو يقول :
ــ إرادة فرعون نافذة ياصاحبة الجلالة .
والتفتت الملكة إلى الطبيب قائلة
ــ لا تبتئس ياتحتمس . إن فرعون ابن الاله لن يصيبه ضر . ولكن عليك أن تكتم مرض جلالته عن كل مخلوق ، فالدولة تجتاز الآن أزمة خطيرة لايعلم نهايتها غير الآلهة .
ــ إنك تعلمين مبلغ إخلاصى للعرش ياصاحبة الجلالة . والآن أرجو أن تسمح لى جلالتك بالانصراف ، وسأعود لعيادة الملك بعد أوبته من الموكب .
ولكن الملكة ابتسمت له ثم اقتربت منه قائلة :
ــ أظن الأفضل أيها الطبيب ألا تغادر القصر وحال الملك كما تعلم .
صمت الطبيب هنيهة وهو مطرق ثم رفع بصره إلى الملكة قائلا :
ــ يلوح أن جلالة الملكة لاتثق بى .
فتحت الملكة عينيها دهشة وصاحت :
ــ لا أثق بتحتمس طبيبنا العزيز ! من قال هذا ؟ إننى أريدك بقربنا لأن فرعون قد يحتاج إليك فى أية لحظة . فهل تراك تبخل على الملك بوقتك ؟
ــ إننى طوع أمر فرعون وأمرك ياصاحبة الجلالة .

حنى الطبيب هامته للملكة ثم انصرف فى سكون . وما أن توارى عن الأنظار حتى التفتت الملكة إلى الوزير وقالت له مقطبة :

ـــ أليس من سوء الحظ أن يكون أبرع أطباء المملكة من أتباع آمون . . .

ـــ إن جلالة الملكة تعلم يقيناً أن تحتمس فوق الريب والشكوك ، فتعلقه بعبادة آمون لم ينل مطلقاً من صدق إخلاصه للعرش .

أمسكت الملكة عن الحديث حينا وأخيراً قالت :

ـــ إنك لاتعلم كل شيء يارع ـ موس .

ـــ إن كانت جلالة الملكة تقصد مؤامرة رئيس كهنة آمون الأخيرة فأظننى على علم بسائر تطوراتها .

ـــ لايزال يعوزك آخر حلقاتها . أنت تعلم أن رئيس كهنة آمون يمثل الملك رسمياً أثناء مغيبه . ولقد سعى بتاح ـــ موس لغرض فى نفسه إلى منع الملك اليوم من الخروج فى موكبه ومن مقابلة السفراء . ولهذا كان حتما على أن أفسد تدبيره، وأصبح لزاما على فرعون المريض أن يرأس موكبه .

وأطرق الوزير مفكراً وقد قطب حاجبيه وأطبق فكيه . وأخيراً رفع رأسه قائلا :

ـــ ولكن من أين لبتاح موس أن يعلم بمرض صاحب الجلالة اليوم ، وقد كتمناه عن كل مخلوق حتى عن ولى العهد ؟

ابتسمت الملكة وقالت :

ـــ إن مرض فرعون لم يكن طبيعيا هذه المرة يارع ـــ موس .

ـــ أتقصدين يامولاتى ...

ولكنه لم يتم . أومأت الملكة برأسها وقالت :

ـــ أجل . إنه كاهن آمون من جديد . فوفاة فرعون الآن وولى عهده لم يجاوز سن الحداثة ، يتيح لهذا الشرير فرصة ذهبية لإحكام دسائسه . أتعلم من يرشحه هذا الشيطان ليخلف فرعون فى الحكم إن قدر لمؤامرته النجاح ؟

ـــ من ياصاحبة الجلالة ؟

سكتت الملكة فترة قبل أن تعلن مفاجأتها ، ثم قالت :

ــ تحتمس الطبيب .

ــ تحتمس !

ــ أجل . فهو ينتمي إلى الأسرة المالكة بوالدته . ولعمرى لقد أحسن هذا الخبيث الاختيار . فتحتمس أحب الناس إلى قلب الشعب بعد « أمنحتب بن حابو » .

ــ ولكن كيف سمحت مولاتى لتحتمس بعيادة فرعون ، وجلالتك تعلمين عنه كل هذا !

ــ إن تحتمس نفسه لاعلم له بهذه المؤامرة ، فهو أداة عمياء فى يد هذا الخائن الوضيع . وهو لايزال بعد أبرع أطباء المملكة .

فكر الوزير حيناً ثم قال :

ــ بودى ياصاحبة الجلالة لو أذنت باتخاذ الخطوة الحاسمة . إن الشعب يفضل فرعون على كاهن آمون بغير جدال . فلو كشفنا له عن دسائس هذا اللعين لطالب بنفسه عزله وإبعاده .

ابتسمت الملكة بسمة نصفها إشفاق على الوزير ، ونصفها الآخـــر الإعجاب بنفسها ، وبما أوتيت من حنكة وبعد نظر ؛ ثم قالت :

ــ إن إبعاد كاهن آمون عن منصبه لن يشل يده عن الدس والخيانة يا « رع - موس » . بل لعل هذا مما يدفعه إلى مضاعفة الكيد والإمعان فى تدبير وسائل الانتقام .

وبعد لحظة صمت عادت تقول :

ــ ثمة حل واحد نأمن به شر « بتاح - موس » .

ــ ماهو ياصاحبة الجلالة ؟

عضت الملكة شفتها وانسرحت عيناها تحدقان فى غياهب المستقبل المجهول . ثم قالت كأنما تخاطب أمانيها العذاب :

ــ هو ألا يوجد « بتاح موس » بتاتاً أيها الوزير . ولكن علينا أن نتمسك بالصبر المرير ، وأن نتحين الفرص فى غير عجلة ، فخصمنا واسع الحيلة شديد الكيد .

غير أن من كان ينصت إلى نبرات صوت الملكة ، يخيل إليه أنها تعبر عن

إعجاب صاحبتها بكاهن آمون بما قد يفوق كرهها إياه . فقد كان الكاهن من طينة الملكة نفسها . وكم تكون الحياة مملة تافهة لو لم يوجد فى جانبها الآخر هذا الداهية الذى يملأها عقداً ومفاجآت ، ويثير فيهـــا تيارات خفية تدعو إلى مقاومتها ، وتستحث النفوس إلى مدافعتها بهجمات من نوعها . وهكذا أصبح للحياة معنى ولظلالها ألوان .

وما أكثر ما استمتعت الملكة بهذه الحرب الخفية بينها وبين كاهن آمون . فنى غداة عزل هذا الكاهن من الوزارة ، طالعت طيبة إشاعة لم تلبث أن انتشرت بين أهلها كومض البرق ، وكان من أثرها أن صارت الملكة تلقب « بالأجنبية » طورا ، و « بجاسوسة بلاد ميتانى » طوراً آخر . وتداولت الألسن قصة محبوكة الأطراف ، لم تكن تنقصها الأدلة الملفقة التى رفعتها فى أيام إلى مرتبة اليقين بين جموع العــامة . فقد كان والد الملكة المدعو « يوه ـ آه » أمير من بلاد ميتانى ، استقدمة تحتمس الثالث معه . وبالرغم من أن هذا الأمير كان قد تمصر طبعاً وطابعاً كعادة الأمراء الأجانب فى هذا العهد ، وبالرغم من أنه تزوج من بنت أحد الأشراف المصريين ، ثم تقلد بعض مناصب الدولة العظيمة ، واندمج فى حاشية فرعون ، فقد أشاع عنه كاهن آمون أنه إنما يعمل فى الخفاء للإيقاع بمصر ، رغبة فى الانتقام ممــا لحق بلاده من الذل على يد الفراعنة الفــاتحين . ولم تكن ابنته « الملكة الأجنبية » سوى أداة بارعة فى يده لمـا لها من السلطان العظيم على زوجها الملك .

وكادت الإشاعة تتطور وتتخذ شكلا خطيراً لولا أن قابلتها الملكة بأخرى ردت كيدها إلى مدبرها . فإن الملكة أنفذت رسولا إلى «الرائى الأعظم» بمعبد «رع» الأكبر بمنف تسأله أن يجتهد فى رصد الكواكب والأفلاك ، حتى يتكهن لها بوقوع ظاهرة طبيعية قبل حدوثهـا . فبعث إليها بعد حين يخبرها بأن القمر سيخسف فى ليلة عينها لها . وزاد بأن الخسوف سيكون تاما مدة نصف ساعة ، يحتجب وجه القمر بأكمله على صورة لم تقع منذ أمد طويل .

وكانت الملكة متفقهة فى علوم الدين . ولقد جعلها كاهنها الخاص تحيط بسر

بحرص سدنة المعابد على المحافظة عليه حرصهم على حياتهم .

ذلك أنه حدث فى عهد سحيق أن استطاع بعض الكهنة أن يسحروا الآلهة بالتعاويذ والتمائم ، وتمكنوا بذلك من اقتناصها فى تماثيل صغيرة من الحجر والفخار ، كانت توضع فى صناديق ثم تخبأ فى مكان خفى من المعبد لا يعرفه غير رئيس كهنته ، ومنه يستمد سلطته الخارقة الإلهية .

أمست طيبه وأصبحت ، فإذا الشفاه تتمتم بأن صندوق آمون السرى قد اختفى من المعبد . وقيل أن الإله غضب من كاهنه غضبة ضارية ، فسعى إلى انتزاع سلطته من يديه . غير أن شدة تمسك أهل طيبة بمعبودهم واحترامهم لكهنته ، جاد بهم عن قبول الرواية قبول المؤمن أول الأمر ، فواجهها الناس بين مصدق ومكذب . إلا أن الجدال قد اشتد على أى حال . فوضعت أقدار الآلهة فى أيدى عبادهم ، وصار القوم يتناولونهم بالنقد أو التأييد ، فيتدافعون ويتخاصمون . ذلك أن البشر يومئذ كانوا شديدى القرب من الآلهة ، لا يفصلهم عنهم سوى خطوة واحدة . ألم يكن المعبود بشرا أله فى قديم الزمان؟ فليس ثمة حرج من مناقشة أحوالهم ، والإنحاء عليهم باللوم . وليس مايمنع من وسم أعمالهم بالظلم ، أو رمى سلوكهم بالخطأ .

هذه الحالة القلقة هى ماسعت إليه الملكة . إذ سرعان ماأشاع رسلها أن الإله لايرضى بأن يترك عباده فى الظلام . وهو لابد عن قريب مطلعهم على رأيه ، فى صورة لاتقبل الشك . فما عليهم سوى ارتقاب مظاهر رضائه ، أو بوادر سخطه ، ليكون لديهم الخبر اليقين الذى يقطع الريب . وليعلم الناس أن لآمون زوجة هى «موت» وابنا اسمه «خنسو» وهو القمر . ولابد أن يتكلم الإله على فم واحد من هؤلاء .

أما « بتاح - موس » ، فكان لايزال منتشياً بخمرة انتصاره على الملكة . فما أن بلغه هذا التحدى الشعبى ، حتى قبله فى تهور . وماغاب عنه أن المسألة كلها من تدبير الملكة ، ولكنه سخر من محاولتها الهزيلة ، ولم يعن حتى باستشارة فلكيى معبده . ماحاجته إلى هذا ؟ وما خوفه من تلك المؤامرة البلهاء ، وهو يعلم يقيناً أن صندوق الإله السرى لايزال فى مكمنه الحريز . . .

كاد دولاب العمل فى طيبة أن يقف . فالقوم صاروا عيناً واحدة وأذناً واحدة ، ترتقب علامة الإله . وفى صباح اليوم السابق لموعد الخسوف ، شاع فى العاصمة أن فرعون ابن الإله ، قد استغرقه فى ليلته حلم مخيف ، رأى فيه « آمون » وقد أرسل ابنه القمر منذراً مهدداً . وفى الليل حينما خسف القمر « خنسو » ، وساد الظلام وجه الأرض ، كادت جموع الشعب تقضى على « بتاح - موس » ، الذى اختبأ فى حصن المعبد ، ورعد صياح العامة يدوى فى أذنيه « الموت لمنبوذ آمون » ليسقط المنبوذ . . . » « ليمت الخائن . . . »

وفى الغد اختفت أسطورة « الملكة الأجنبية » وكأنما طويت بفعل ساحر . وكان فى وسع الملكة آنئذ — وقد صار غريمها فى بطن كفها — أن تضربه بقضاء مبرم . إلا أنها لم تنس شدة حب أهل طيبة لكاهن معبودهم الخاص . وخشيت حين تهدأ الأمور أن يدرك الشعب تهوره فى القضاء على زعيمه الدينى . وقد ينشط كهنة آمون فى الكيد لها عند الشعب ، يحرضونه بأكاذيب جديدة ، ويموهون عليه بمختلف الدعاوى فتندلع الثورة . لهذا لم تنقض أيام قليلة حتى انقطعت صيحة «منبوذ آمون» من شفاه القوم ، وتركت الملكة لكهنة آمون العنان ، فمضوا يسعون لدى الشعب يفسرون ، ويبررون ، ويهدئون .

* * *

طافت هذه الذكريات بخاطر الملكة وهى تذكر وزيرها بما عليه خصمها من مكر سيء وكيد شديد . كانت ميزتها أنها لم تكن تمل انتظار فرصها ، رغم ما يخالجها فى تلك الأثناء من رغبة التلذذ بنصر مبادر ، ورغم ماقد يلوح لغيرها من أن احتمالات النصر قد صارت بحيث تستحق المخاطرة بإيقاع الضربة الحاسمة . إنها تريدها ضربة أستاذ محنك ، تتجمع فيها القوى وتتعانق الدواعى ، حتى تستطيع أن تمحق خصمها بهزة رأس . هذا هو بطش الجبابرة كما كانت تراه ملكة مصر .

أذنت الملكة للوزير بالانصراف ، ثم عادت إلى مخدع الملك فألفته جالساً وسط خدامه الذين راحوا يهيئونه للحفل الكبير . نظرت الملكة إلى فرعون فرأت على محياه الجميل تلك البسمة الرائعة التى لم تكن تفارق شفتيه . كان يهيأ إلى الرائى

أن ينابيع من الجاذبية تتفجر من هذا الوجه الساحر ، وجه أمنحتب الثالث فرعون مصر .

لقى الملك زوجه « تى » ذات الشعر الذهبى فى مقتبل عمره فأحبها وتزوجها . وكان على الرغم من عظم سلطانه على النساء ، يخضع لهذه المرأة الآسيوية الأصل خضوعا يدعو إلى الدهش.. كأن بهذا الجبار ملمس ضعف عرفت هذه الفاتنة طريقها إليه ، فإذا الملك مشغوف بها ، مطمئن إلى استكانته لها . حقاً كانت «تى» رائعة الجمال . ولكن أمنحتب كان بغير جدال يسمو عليها فتنة وسحراً . إن جمالها بشرى ، أما جماله فمن صنيعة الآلهة .

دنت « تى » من زوجها فوضعت يدها على كتفه وابتسمت له قائلة :

ـــ كيف حالك الآن ياعزيزى ؟

فأحاط الملك خصر زوجته بذراعه وسألها مداعباً :

ـــ كيف ترينه ؟

ولعل الملكة وجدت أنها لاتستطيع أن تبدى رأيها فى زوجها على مسمع من الخدم فصرفتهم وهى تقول له :

ـــ سوف أهيىء للملك مايلزم له بنفسى اليوم كما كنت أفعل فى عهدنا الأول . إننى أراك على أفتن ماتكون ياصاحب الجلالة .

حوت الملكة رأس زوجها بين كفيها وطبعت على جبينه قبلة ثم تمتمت قائلة :

ـــ إن الشيخوخة لا تعرف سبيلها إليك يا أمنحتب . وجهك لايزال وجه الفتى الذى طالعنى يوم عرسى .

ابتسم الملك فى ألم ثم قال :

ـــ إن الآلهة لاتهرم يا « تى »

وصمت قليلا تعلوه مسحة من الكآبة ثم عاد يقول :

ـــ ولكنها قد تترك هذا العالم إلى عوالم أخرى .

جذب الملك ذراعه المحيط بخصر زوجته ، ونهض إلى النافذة فتطلع إلى جموع الشعب الصاخبة السعيدة . ولكنه ـــ لأول مرة فى حياته ـــ شعر بأن مظاهر

الفرح هذه التى عمل دائماً على إحيائها والتفنن فى تنويعها، صارت الآن تقبض نفسه وتملأ قلبه بفزع غريب ، فأطبق عينيه وأدار ظهره للنافذة . إنه لايطيق رؤية هذا الضجيج المرح فكيف بالاشتراك فيه وافتتاح أول مراتعه . . . وتحرك ألم المرض فى أحشائه فأطبق فكيه ، وأرسل أنه مكتومة . فهرولت إليه زوجته تسأله :

ـــ مالك يا أمنتحب ؟

دفع الملك قدميه بتثاقل ، ثم ألقى بنفسه على أقرب مقعد وهو يمسك ببطنه كأنما يريد أن يقبض على الألم ليقضى عليه . وبعد هنيهة تمتم قائلا :

ـــ أشعر أن نهايتى على هذه الأرض قد دنت يا « تى » . إن نوبة المرض هذه المرة لن تطلق إسارى إلا فى القبر .

تجلت هذه الحقيقة المفزعة للملكة حين وقع بصرها على عينى فرعون الغائرتين . وخيل إليها أن معانى الفناء تتكلم منهما بصوت ضخم . شعرت بأن زوجها يمر بتلك الفترة المتميزة التى تشبه لحظات الشعور المضطرب الذى يصل بين اليقظة والنوم . كان حياً دون أن تتبين فيه علائم الحياة النابضة ، وكان ميتاً دون أن تسلبه يد الموت ظواهر الحركة والكلام . لم يكن حياً ولم يكن ميتاً ، ولكنه كان يدب فى شاقل ووجوم فى ذلك الطريق الموحش الموصل بين سلب العدم وجدب الوجود . .

استولى على الملكة فزع فجائى، فأحست ان صدرها قد صار فراغا . هذه المرأة التى طالما اعتزت بشخصها وأسرفت فى الاعتداد بسيطرتها ، سرعان ما تخاذلت حينما طالعها شبح وحدتها المستقبلة . أدركت فى هذه اللحظة أنها لم تكن شيئاً يذكر ، إلا لأن فرعون العظيم كان قائماً إلى جانبها كالصرح الشامخ يسندها ويعضدها . إنها بدونه لن تكون سوى « امرأة ما . . . » .

تعلقت الملكة بفرعون وضمته إلى صدرها كأنها تشغل به فضاء نفسها، وجعلت تمتم فى غير وعى قائلة :

ـــ هل تتركنى وحدى : . كيف أعيش بدونك يا أمنحتب . . . .

مر فرعون بيده على رأس زوجته ، ثم رفع بأصبعه دقنها حتى التقت عيناه بعينها فقال لها مبتسما :

ـــ من يصدق أن هذه المرأة الوجلة هى ملكتى المحبوبة التى طالما فخرت بها ! لن تكونى وحدك ياتى . فسينهض من ورائى ابنى وولى عهدى فرعون مصر الجديد . إنه سيشد عضد البلاد بأسرها فكيف تخافين على نفسك ؟ ؟

بدأت الملكة تنتحب وتقول :

ـــ إنى أريدك أنت يا أمنحتب . ابق لى .. إن ابننا ولى العهد لا يزال صغيراً .

فنظر اليها فرعون مدهوشاً ثم قال :

ـــ صغيراً ! كما أن الإله لايهرم ، فهو لا يكون صغيراً يا « تى » . ففرعون مصر يستطيع أن يحكم وهو فى المهد ، لأنه يولد ملكا وإلهاً ساعة يرى النور .

لم تكن هذه الكلمات من الملك تعزية منصرفة إلى التهوين على زوجته المنتحبة، بل انطلقت فى ثورة وحماس أعاداه صبياً يافعاً يعلن على الملأ تعاليم إيمانه الذى ولد ويموت من أجله . إن عرش مصر أسمى مراتب الوجود ، فيجب أن ينتفى بصدده كل شك قد يرين على الأذهان الضعيفة اليقين . وفرعون مصر الجالس على هذا العرش هو أضخم أهل الأرض طراً ، ولا شأن فى هذا لعمره أو شخصيته .

ولكن المرأة الوجلة المتخاذلة لم تكن لتقنع فى محنتها بأفكار مجردة ، لا تستطيع أن تتعلق بها أو تعول عليها . إن ولى العهد هو ابنها الذى حملت به وأرضعته ، ثم لقنته اللفظ وعلمته الحركة . فهى أدرى الناس به . إنه فتى أحلام له روح فى جمال الزهرة ، ولكنه دقيق البنية نحيف الجسم كالخيال الهائم . يحبه الشعب حتى العبادة ، ولكنه لا يوحى بالهيبة إلى عظماء رجال البلاط وكبار موظفى الدولة . فكيف الحال بالنسبة لخصوم العرش الأشداء !

وكأنما أدرك الملك مخاوف زوجته فربت كتفها قائلا :

ـــ لا تخافى يا تى . سوف تبخر وساوسك وأوهامك حين ينادى بأمنحتب الرابع فرعوناً لمصر . ستلمسين ذلك بنفسك . فإن لعرش مصر قوة سحرية يضفيها

على الجالس عليه ، فاذا به مخلوق آخر غير الذى عرفه الناس من قبل . إن فرعون هو الصلة بين الإله والشعب . لست خائفاً عليك يا تى ، كما إنى شديد الثقة بما سيكون عليه حكم ابنى العزيز .

وأخذ الملك بيد زوجته المطرقة وقال لها مبتسما :

ـــ تعالى بنا إلى الشرفة لنحيي الشعب قبل أن يمل الانتظار .

الفصل الرابع

اهتبل فرعون غفلة مدعويه، واسترق الخطى إلى مخدعه ، حيث ارتمى متهالكا من عناء مراسم الصباح . كانت أصوات ضحك نبلاء البلاط وعبثهم تترامى إلى أذنيه كخرير أمواج البحر البعيد . علام يضحك هؤلاء . . . ولم هذا الصخب الحاد ! عبث . عبث . كل مايفعله الإنسان فى حياته عبث وهباء . إنه كالبحر عملاق أبله ، تتدافع أمواجه فى عنف وجلبة ، فيكون هو أول من يتأثر بما يحدثه من ضوضاء ، حتى ليحسب أنه يغير وجه الأرض ،ويأتى مالم يسبقه إليه سلف أو يلحقه فيه خلف . ولكنها أمواج معتوهة جوفاء كقبض الريح ، تبتلع الواحدة سابقتها، ثم تنقلب فى سرعة وجبن كدجاجة مذعورة ، فإذا انحسرت آخر قطراتها عن شاطىء الحياة . . . فلا شىء . لاشىء قط .

أتراه يتحسر وهو فى آخر مراحله على حياة قضاها هو الاخر فى مثل هذا الصخب وذاك الضحك؟ أتكون حياته خطأ عظيما لم ينتبه إليه إلا وهو يكتب آخر فصولها ؟ وهل كان فى وسعه إدراك عبثه وهو يخط أول حروف مستقبله ، أم أن الإنسان مقضى عليه بأن يشرب كأس الخطأ حتى ثمالتها لكى يعرف أنه خطأ ؟ وما تكون الجدوى حينئذ ؟ إنه إذا اعتزم العدول عنه إلى شراب أصلح يكون قد قضى نحبه .

أيتها الآلهة ! أتكون الخليقة ماجنة إلى هذا الحد ؟ إنه هو أمنحتب الذى ابتدع هذه المراتع الصاخبة التى سميت باسمه . لقد أراد أن يجعل طيبة مدينة الأعياد والمرح ، فيقرن اسمها فى جنبات الأرض باللهو والحبور ، بالنور الذى يملأ قصورها ، والجمال الفاتن البارز فى معابدها ومغانيها . على هذا الوجه تصور مايجب أن تكون عليه عاصمة امبراطوريته الشاسعة ، فما ادخر وسعاً فى تحقيق ماتمنى . جلب لحدائقها الأشجار النادرة من الصومال ، ولمعابدها الأخشاب العطرية من آسيا ، ولقصورها التحف البرنزية المنقوشة من اليونان ولموائدها الأوانى المزخرفة والصحاف المموهة من فينيقية .

إنه يستطيع أن يسرد هذه الأعمال إلى غير نهاية . ولكن هل هو فخور بها أم تراها خطأ كبير يطأطىء له رأسه؟ ما أمر هذا الخاطر وما أتعسه ! لشد ما عانى من مناهضة كهنة آمون المتزمتين الذين عارضوه فى كل ما استحدثه فى الفنون والأزياء . ولكن هاهو ذا اليوم يدرك أن كل ما أفنى حياته فى تشييده ليس سوى شخوص من رمال ، ستطؤها أقدام القدر فإذا هى والأرض سواء . حينئذ يجول بعينيه باحثاً عن آثاره فلا يجد شيئاً . لقد حدثوه بأن عمائره ستحيا أبد الدهر . ولكنها صخور ورمال ثم لا شىء بعد .

ماهو الدهر ؟ إنه حلقات فكر الإنسان . إنه جدول الشعور البشرى يسمو صعداً نحو الآلهة ، ترفده سيول المعرفة والحق والجمال ، فتزيد قوته الدافعة وتسرع به إلى الغاية العظمى . فماذا فعل هو ؟ أى حقيقة أضافها إلى ثروة الدهر؟ لقد أسهم فى سلسلة الفكر البشرى بحلقة من صخور صم . فهل غنى الدهر بعمائره ؟ إن الآلهة لم تقم حجراً ولا شيدت حائطا ، وهى تعتبر مع ذلك ثروة الدهر وطعام فكر البشر ، لأنها بنت صروحها فى القلوب . آه لو علم ذلك وهو فتى !

ولكن نفس الملك الكئيبة مالبثت أن تألقت فرحاً حين تذكر ولى عهده . لقد كان يسيئه فيما قبل أن يرى ابنه معتكفاً ساهما ، ولكنه فى هذه اللحظة وحدها تجلى له نور جديد . إن ابنه ليس مثله كالبحر الملتطم ، ولكنه كالنيل الوديع الجميل ، الذى يجرى فى بطء وهدوء ، ليغرس فى شطئانه الحياة ، وليضفى على أهلها الخير .

أترى سيحذو ابنه حذو الآلهة فيطعم الدهر بما عجز هو عن تقديمه ، ويهبه طعاما غير الحجر الصلد والصخور الصم ! إن كان ذلك فلم تكن حياته من العبث بالقدر الذى تصوره . فهو الذى أعقب ولى العهد ، وهو الذى اختط بحياته الطريق الموصل لما قد يقيمه ابنه من عمائر أبقى من عمائره . لعله لو لم يكن كالبحر الملتطم لما نشأ ابنه كالنيل الوديع . فليهنأ بخلفه إن لم يتأت له أن يهنأ بنفسه .

من يدرى ؟ لعله لم يكن فى طوقه أن يستحدث غير مافعل . فأقدار الفراعنة

ترسمها الآلهة وحدها . وإن المرء لا يخط طريقه بنفسه بقدر ما يختطه أسلافه له فالابن لايكون صورة لأبيه ، ولكنه تكملة وتتمة . هكذا أرادت الآلهة . لأنه لو حاكى الابن عمل أبيه لاستنامت البشرية فى مهدها الأول ، ولأصبحت كالمرايا المتقابلة تعكس صوراً لاتحصى ، ولكن لشخص واحد .

قد يعصر الجد الكرم ، فيجمعه الأب ، ويعتقه الولد ، ثم يشربه الحفيد لينتشى . هذا ما يجب أن يكون . فعاصر الكرم لايشرب خمره ، لأنه لايعرف غير العصير . والمنتشى بما عتقه جدوده ، إن ظن أنه قد بزهم بجهده وسما عليهم فهو واهم ، لأنه إنما يتسلسل من حلقاتهم فيكمل لهم بمثل ما سيكمل خلفه له .

* * *

كان ولى العهد قد تسلل إلى الحديقة فى صحبة «سمنكرع» الذى اصطفاه من بين سائر أصدقائه . وما كان «سمنكرع» بنبيل ولا سليل نبيل . بل كان ابنا لأحد التجار المصريين الأثرياء . ولكنه لم يكن كأبيه ولوعا بهذا الضرب من استجلاب الرزق . شد ماحرضه أبوه على مصاحبته فى أسفاره الى آسيا أو الصومال ، فكان «سمنكرع» يلوذ بشتى الأعذار ليبقى فى منزل أبيه المقام على ضفة النيل ، يقرأ فى أوراق البردى ثم يسرح ببصره فى مياه النهر ليغرق فى تأمل طويل .

وذات يوم جلس فى شرفة القصر يقرأ تعاليم « بتاح — حتب » المقدسة . كان الوزير يقول لابنه : « إذا كنت قائداً تصدر الأوامر للجم الغفير ، فاسع وراء كل كمال ، حتى لايكون ثمة نقص فى طبيعتك . إن الصدق جميل وقيمته خالدة ، فهو لم يتزحزح منذ جلبه «رع» إلى العالم . والذى يتخطى نواميس الصدق يعاقب . وهو للضال كالطريق المستقيم . إن الخطأ لم يوصل مقترفه الى الشاطىء . حقاً إن الشر يكسب الثروة ، ولكن قوة الصدق فى أنه يبقى الى الأبد ، والرجل المستقيم يقول إنه أحسن متاع ورثه عن والده . . . »

كانت هذه الفقرة تورث « سمنكرع » حيرة واضطرابا . أترى يكون والده رجلا شريرا لأنه لاينى عن كسب الثروة ؟ إن المتاع الذى سيرثه عنه بائد . المنزل سيحترق ، والسلع ستغوص فى جوف المحيط . فماذا يبقى له بعد ذلك ؟ الصدق ..

الصدق الجميل الذى لايمكن أن يزول ولاتؤثر فيه ألسنة النار .

وبينما هو غارق فى تأملاته مرة، إذ لمح جسما أدكن يمرق فى طيات النهر . ظل هذا الجسم يظهر حينا ويختفى حينا، ثم اتجه آخر الأمر إلى الشاطىء وصعد إليه ، فإذا به تمساح هائل كان قد شاع فى طيبة منذ يومين أنه قد ظهر فى ماء النهر .

بدا على التمساح أنه يقصد هدفا معينا . فقد كان يتقدم على رمل الشاطىء فى بطء وتلصص . ورمى « سمنكرع » ببصره فرأى غير بعيد من التمساح شبحاً قابعاً فى ظل شجرة . وفى غير تردد انحدر من المنزل،وظل يعدو فى طريق طويل ملتو ، فلما وصل إلى الشجرة لاهفا، كان التمساح على قيد خطوات منها. هكذا أنقذ «سمنكرع» حياة هذا الفتى الذى أوشك أن يكون فريسة لتمساح من أشد التماسيح وأضراها . ولم يكن هذا الفتى سوى ولى العهد . ومنذ ذلك الحين تولدت بينهما صداقة لم يفصمها غير الموت.

اتجه الأمير مع «سمنكرع» الى ظل دوحة فى طرف حديقة القصر، كانت المحل المختار لولى العهد، يختلف إليه كلما أراد الخلوة بنفسه . هناك جلسا فى سكون . وكان ولى العهد مطرقا فلم يشأ صديقه أن يقطع عليه تأملاته.

وأخيراً تنهد الأمير فى استطالة ثم رفع رأسه إلى صاحبه قائلا :

ـــ لقد بدأت أكره الحياة يا سمنكرع .

صمت « سمنكرع » لحظة قبل أن يجيب ثم قال :

ـــ إننى ألاحظ فيك تغيراً طال به العهد يا صاحب السمو .

عاد ولى العهد إلى إطراقه ثم تمتم قائلا :

ـــ ما عدت أعرف نفسى .

ـــ أهى الأميرة تفرتيتى ؟

ـــ أجل . .

وساد الصمت بينهما . لقد مضى أكثر من عام منذ بدأ قلب الأمير يتحرك لهذه الفتاة . وكان فى أول عهده بهذا الحب شديد الفرح به، دائم التحدث عنه لمن

يصطفيه من أصدقائه . ولم يكن فى مقدوره إخفاءه عنهم . فقد كان حبه كشعلة من النار قدحت فى حنايا صدره ، ثم ما لبثت أن توهجت واتسعت حتى سربلته بثوب من النور ، لا يمكن أن تخطئه عين الصديق الفاحصة .

بدا كل شيء جديداً فى عينيه ، وامتلأ قلبه بموسيقى إلهية كست وجه الطبيعة بظل وردى . صار الصباح والمساء قصيدتين رائعتين لا تنضب لهما معان . وأصبح الأمير لا يمل من الخلوة إلى نفسه حيث ينعم بأحسن صحبة وأعذب حديث . واستحالت أشعة القمر فى ناظريه حمى لها سورة منعشة ، والنجوم ثنايا بسامة متألقة ، والأزهار ألغازاً صغيرة محببة ، والهواء لحناً رائعاً يبعثه مزمار مقدس .

بات يفهم أنغام الطير وكأنها تتكلم بلسانه . وكان إذ يحدق فى السحب يخالها أوجها معروفة لديه . أما الأشجار الموسوسة والحشائش المترنحة فقد صارت جميعها مخلوقات حية مدركة، حتى لقد خشى على سره من ثرثرتها .

وفجأة انقطع الأمير عن البوح بحبه إلى أصدقائه . وتبع ذلك حزن عميق خيم عليه ، فتحول الفرح فى عينيه إلى بصيص ساهم مكتئب . وفطن أصدقاؤه إلى ذلك التبدل ، ولكنهم امتنعوا عن مفاتحته فى أمره احتراماً لسره .

ولكن بدا « لسمنكرع » اليوم أن صدر الأمير قد ضاق بهذا السر ، وأنه يريد أن يفرج عن همه بالبوح به . فاقترب منه ووضع يده على كتفه ثم راح يسر فى أذنه قائلا :

ـــ هل جد فى الأمر شيء يا صاحب السمو ؟

كان ولى العهد قد غرق فى تأملاته من جديد، فأفاق مفزوعاً على صوت صديقه وقال له .

ـــ أى أمر يا « سمنكرع » ؟

صمت « سمنكرع » فترة وهو يتفحص وجه صديقه الشاحب ثم قال :

ـــ أيها الأمير . لست أحب لك هذا الحال الذى أنت فيه . ثم إنك تكتمه

عنى فتجعلنى مسلوب الحيلة فى أن أتلمس لك المخرج منه أو العون عليه. لست أفهم ماذا يشغل سموك وكل الأمور مبذولة لك . . .

وكأنما أصاب كلام « سمنكرع » ملمساً رقيقاً من نفس الأمير ، فانتفض جسده كعصفور بلله القطر ، ثم رفع رأسه إلى صديقه قائلا :

ـــ هذا هو أس البلاء يا « سمنكرع » . إن الأمور كلها مبذولة لى . فأنا إن أردت « نفرتيتى » فهى لى قبل أن أفرغ من البوح بهذه الرغبة .

ـــ أتراك تود أيها الأمير لو قامت فى وجه حبك الصعاب حتى يلذك اقتحامها والتغلب عليها ؟

هز ولى العهد رأسه قائلا :

ـــ كلا ياصديق . فليست المشكلة ما قلت . إن المشكلة أن « نفرتيتى » تعلم أننى سأكون فرعون مصر فى يوم من الأيام . وزوجة فرعون ملكة لمصر وليس من بين فتيات طيبة من لايسيل لعابها توقا إلى هذا المنصب .

ـــ إذاً فالأمير يشك فى إخلاص فتاته ؟

احتوى ولى العهد رأسه فى يديه ثم راح يتمتم قائلا :

ـــ لا . لا يا « سمنكرع » . إنما أنا المخطىء . إن خيالى الآثم هو الذى يهيء لى من الأفكار ماهى براء منه .

زوى سمنكرع مابين عينيه ثم قال :

ـــ لم أعد أفهم أيها الأمير .

راح ولى العهد يتكلم ببطء كأنما يحادث نفسه :

ـــ إنها أوهام تعصف بنفسى فلا أدرى أحقيقة هى أم سراب . لعله من المؤكد أن نفرتيتى لاتضجرها عاطفتى نحوها . فأنا إذ أقصدها فى الليل أو فى الفجر ، تظل تسامرنى من شرفتها ماغمضت أعين الرقباء ، دون تململ أو ضجر . ثم إنها بجانبى طيعة صبور ، تبتسم للقائى ، ولعلها تحن لفراقى . ولكن . . .

صمت الأمير وعاد يصر بأنيابه وهو مطرق ، فقبض سمنكرع على يده وضغطها ثم قال :

ــ ولكن ماذا يا صاحب السمو ؟

رفع الأمير عينيه إلى صديقه وقد تجلت فيهما نظرة وجل وحزن ، ثم أجاب قائلا :

ــ ولكنها كالآلهة ياسمنكرع ، وليست كالبشر . إنها تتقبل منى ما أبذله لها من عصارة نفسى فى سكون ورضا ، ولكننى لا أشعر بأنها تمنحنى من نفسها شيئا . إننى بجانبها ملتهب كالنار ، ثائر كالبركان ، منقض كالشهاب . أما هى . . . إنها هادئة، ساكنة ، مطمئنة، لاتنى عن الابتسام. هذا حالها دائماً . وقد أكون منقطعاً عنها وقتاً ما ، فأهرع إليها عقب ليلة ساهرة ، فإذا بها أمام مرآتها تضحك لنفسها وتصفف شعرها ، كأنما لم تسمع بذكرى من قبل . ثم أقابلها فترحب بى وتبسم لى، ثم تجلس صامتة فى انتظار مايقدمه عابدها من قرابين .

كان الأمير يتكلم بحماس واندفاع . فصمت حيناً ليتدارك أنفاسه ثم حول بصره إلى صديقه متسائلا :

ــ هل تفهم مقصدى يا سمنكرع ؟

أجابه صديقه باقتضاب قائلا :

ــ أجل .

ــ أجبنى إذن . .هل تحبنى نفرتيتى حقا ، أم هى تتلهى بعاطفتى نحوها ؟

ــ بل تحبك أيها الأمير . كل مافى الأمر أنك لاتفهم النساء . إن المرأة ياصاحب السمو مخلوق يختلف عن الرجل فى كل شىء. إنها نوع آخر من البشر .

ــ كيف ياسمنكرع ؟

ــ إن المرأة ياصاحب السمو لاتملك شعوراً أصيلا فى نفسها ، ولكنها تعكس ما يصوبه اليها الرجل من مشاعر ، وإنما فى ضوء باهت جميل . فنفرتيتى لا تملك أن تكون شمسا مثلك ياصاحب السمو . بل هى التابعة لك ، العابدة لأشعتك . ويخيل إلى أن المرأة لا تحتاج منا إلى عاطفة مشبوبة ، بل إلى مهارة وحسن سياسة . إنها «حقل مثمر لربها » كما قال حكيمنا بتاح حتب. فهى لاتحب من يعشقها ، وتكاد تعبد من يعرف كيف يروضها . ولكن عجباً ! أترى نسى صاحب السمو ؟

كان الأمير قد أخلد إلى كلام صديقه فأجابه فى دعة قائلا :

ــ ماذا نسيت يا « سمنكرع » ؟

ــ أليس سموك هو الذى طالما نادى بنا ألا نفرط فى أقدس ماغرسته الآلهة فى أفئدتنا فنبذله فى غير موضعه ؟ .ألم تقل لنا : « إن العاطفة المقدسة التى أودعت صدور الرجال لم تزرعها الآلهة لتحصدها النساء . فما استحق أن يولد من تفنى عاطفته فى حب امرأة ، وما أشقى من بهرته غوايات النساء فصرفته عن أعمال الرجال . فهل عزب عن سيدى الأمير ماأوصانا ألا ننساه ؟

هز الأمير رأسه فى حسرة ثم تنهد قائلا :

ــ كلا يا «سمنكرع» . لم يعزب عنى منه شىء .

ساد الصمت بينهما برهة . وشعر «سمنكرع » بسعادة قدسية إذ أحس بروحه تتصل بروح الأميرعوداً على بدء . وكانا إذ يصلان إلى هذه المرتبة من الاندماج، يكفان عن الكلام، فيفهم الواحد منهما الآخر عن طريق آخر غير اللفظ والتعبير.

وفجأة أفاق « سمنكرع » فقطب متأملا كأنما يعالج خاطراً غريباً ورد عليه ، وظهر عليه التردد والارتياب فهز رأسه وكتفيه كأنه يطرد هذا الخاطر ،ولكنه ما لبث أن تكلم قائلا :

ــ ياصاحب السمو ، إن قلبى يحدثنى بأن هذا الذى رويته لى لم يكن السبب فيما انتابك من يأس وأسى . هناك سبب آخر .

وثب الأمير مذعوراً كأنما راعه وحش مخيف . وظهر على وجهه ألم مجسم يعصر نفسه عصراً ، فخوى وجهه فى كفيه، وشهق شهقة خيل لسمنكرع أن الأمير سيغيب بعدها عن رشده . وعاد الدم يسيل من فم ولى العهد ويتسلل من بين أصابعه .

هب سمنكرع من جلسته وهم بالاقتراب من الأمير فنحاه بيده قائلا :

ــ لاتقربنى ياسمنكرع .

ــ ماذا حدث ياصاحب السمو ؟

مسح الأمير فمه بيده، ثم أدار ظهره إلى صديقه، كأنه لم يعد يجرؤ على النظر إليه.

واخيراً قال له فى صوت وئيد :

ـ كيف كشفت سرى ياسمنكرع؟

توسل إليه سمنكرع فى لهفة قائلا :

ـ أى سر أيها الأمير ؟

عاد ولى العهد يتكلم بذلك الصوت الهادىء المكتوم :

ـ كيف أدركت أننى لم أعد الأمير الذى تعرف ؟

ولكن معين هدوئه سرعان مانضب فصاح فى ثورة تنم عن أزمة دخيلة مروعة

ـ من أخبرك بأننى فقدت إيمانى بالحياة فصرت عوداً يابساً تطأه أقدام البهائم ؟ أخبرنى من أين عرفت هذه الحقيقة . . .

الفصل الخامس

كان الرسول الذى أوفده فرعون قد نقب عن الأمير فى مختلف أنحاء القصر فلم يجده . إلا أن خدم القصر كانوا يعرفون الكثير من عادات ولى العهد ، فتوجه الرسول إلى الحديقة ، وهناك لم يكن محتاجاً إلى كبير بحث ، إذ وصل إلى سمعه صياح ولى العهد ، فأسرع إليه يبلغه رسالة أبيه .

خف ولى العهد إلى والده بنفس قد تزلزلت من أصولها ، ولكنه ما قطع آخر ممرات الحديقة ودلف إلى القصر ، حتى كان قد ملك زمام مشاعره المضطربة. وفى سرعة فذة ألبس وجهه ذلك القناع الهادىء ، الذى لم يكن يفصح عما يدور فى جنانه بأكثر من بسمة وديعة لا تعبر عن معنى . والحق أنه كان لهذا الفتى المريض إرادة حادة سمت به على كل فراعنة مصر .

دخل ولى العهد على أبيه فسجد له ثم قبل يمناه ووقف خاشعاً . ومر فرعون بيده على رأس ابنه ثم قربها من فمه فقبلها . وأشار الملك بيده فأغلق باب الحجرة ، وبقى الأب والابن خاليين .

طوق فرعون خصر ولى عهده ثم حدق فى وجهه برهة وهو صامت . وأخيراً ابتسم له قائلا :

ــ إن صحتك ليست على ما أرومه لك يا أمنحتب . أرى أن الدم قد عاد ينزف من فيك .

فأجاب الأمير فى هدوء قائلا :

ــ إنها إرادة الآلهة . . لست بخائف يا أبتاه .

ضحك فرعون وزاد من ضغطه خصر ابنه ثم قال :

ــ من قال إن ابنى يخاف . . إن الفراعنة لم تخلق لتخاف يا أمنحتب .

وصمت فرعون حيناً ثم عاد يقول :

ــ ولكن لم لا ترضى أن يعالجك تحتمس الطبيب ؟

ـــ لست أؤمن بطب الأجساد يا أبتاه . إن رضا الآلهة عنى هو وحده الذى يستطيع شفائى .

أخذ فرعون يتأمل ابنه وعلى شفتيه طيف ابتسامة غامضة . حقاً إن ولى العهد فتى شاذ التفكير . . ترى ماقدر لهذا الفتى أن يكون ؟ واختلطت مشاعر الإعجاب فى صدر الملك بلون من الحسد ، فأحب أن يؤلم ابنه إيلاماً خفيفاً فراح يسأله :

ـــ وهل الآلهة غضاب عليك يا أمنحتب ؟

ولكن الأمير أطرق ولم يجب .

وربت فرعون كتف ابنه وقال :

ـــ لا بأس يا أمنحتب . . هون على نفسك . إننا فى شبابنا تثقل علينا الحياة بمشكلاتها وأسرارها . وقد تنجح فى مخادعتنا أحيانا فتزلزل نفوسنا ، حتى يخيل إلينا أن فقدنا كل شىء . . ولكنى أؤكد لك أنه حين يمتد بك العمرة ، ستحاول عبثا أن تنقب عن واحدة من هذه المشكلات التى تلوح لك اليوم ضخمة ثقيلة ، فاذا بها قد تبخرت فى الهواء . . سوف تدرك حينئذ أن أسرار الحياة لم تكن سوى هياكل مزوقة زائفة ، وأنك إذا هززت لها كتفيك وأهملتها ، لا تلبث أن تحل نفسها فى النهاية .

استمع الأمير إلى أبيه وهو مدهوش فاغر الفاه . . . كان ما يقوله فرعون فى يسر وهدوء يدوى فى أذن ولى عهده كأنه وحى عميق تحار فى فهمه الأفئدة . فراح يسأل أباه فى لهفة :

ـــ أحق هذا يا أبتاه ؟ أحق أن المشكلات تحل نفسها بنفسها دون افتقار إلى عناء ؟

ابتسم فرعون بسمة اغتباط . فلقد ولد إعجاب ولى العهد بما قاله نوعاً من رضائه عن نفسه ، فصار أكثر حباً لابنه واقتراباً منه . وعاد يقول لولى عهده :

ـــ وهل يتكلم فرعون بغير الحق يا أمنحتب ؟ عليك أن تثق بنفسك وأن تصبر . إن أحكم الرجال ليس إلا أجلهم صبراً .

وساد الصمت بينهما ، فنهض فرعون واتجه إلى النافذة ، حيث وقف يطل على

حديقة القصر . ووراءه ماوقع عليه بصره من مغان مورقة ، يحدها النيل بسوره الفضى ، فتبدو كأفرع نضرة فى جذع ضخم .

ــ ما أجمل الطبيعة يا أمنحتب . لست أدرى لم تضنى نفسك وأنت تعيش فى هذا العالم الفاتن !

وأجاب ولى العهد فى هدوء محمل بالمعانى :

ــ إن الطبيعة جميلة يا أبتاه ، ولكن الإنسان قبيح .

ــ أليس الإنسان ابن الطبيعة ؟

ــ لم يعد كذلك . فقد صيره كهنة آمون ابنا للسحر والشعوذة والتنجيم ، وراحوا يبيعونه أحجبة عديمة القيمة ، بدعوى أنها تخلص مشتريها من عذاب الآخرة ، وكأنما آخرة الآلهة تشترى بمال العباد . ..

نظر فرعون إلى ابنه وفى عينية خليط من المشاعر المتباينة . مشاعر من الإشفاق والرثاء ، وحب الاستطلاع . وأخيراً قال له وهو يبتسم :

ــ وماذا تنوى أن تفعل يا أمنحتب ؟

واستشعر الأمير رنة ساخرة فى صوت والده فلم يزد على قوله :

ــ لا أدرى يا أبتاه .

غير أن فرعون شعر بأنه مطالب بأن يضىء الطريق لابنه ، حتى لايتردى فى مهاوى الجهل والغرارة ، فمضى يقول له :

ــ استمع إلى يا أمنحتب . إن الكائن هو الذى يجب أن يكون ، وإلا لعدلته الآلهة وفق هواها . فعليك أن تسلم بالنحو الذى تجرى عليه الأمور .

ولكن الأمير لم تكن حماسته لتبرد بمثل هذه الحجة الغامضة ، فسأل والده :

ــ ألا يملك الإنسان إصلاحا لما قد يراه خطئاً يا أبتاه ؟

أجاب الملك بلهجة صارمة :

ــ إنك لست بإنسان يا أمنحتب . أنت فرعون . وعلى فرعون ألا يخدم أحداً وإلا صار عبداً له . بل عليه أن يعمل لنفسه ليصير سيداً . فالنفس الكبيرة

وحدها هى التى تستطيع أن تحيا لنفسها ، فتترك لعامة الناس خدمة المجتمع ، وإصلاح شئون الخلق . أما أنت فإنك بمحض سيادتك وترفعك ، تستطيع أن تفوقهم جميعاً فى إعلاء شأن مصر

أطرق ولى العهد ساعة ، فقد كانت العواطف التى أثارها حديث والده تعصف فى صدره فتلجم لسانه . وأخيراً تكلم قائلا :

ــ بودى يا أبتاه لو استطعت مثلك أن آخذ الحياة هذا المأخذ السهل .

نفذت هذه الإجابة إلى صميم فؤاد الملك . إنها اتهام موجع لجماع حياته التى قضاها على الأرض ــ هذه الحياة التى شعر منذ لحظات بسخفها وتفاهة جدواها . وأدرك الملك أن نفسه القديمة هى التى كانت تتكلم منذ برهة فاقترب من ولى عهده وقال له :

ــ لست مضطرا أن تنظر للحياة نظرتى لها يا أمنحتب . بل عليك أن تترسم الخطوط المميزة لعهدك وشخصيتك .

ما إن سمع الأمير حديث والده حتى انخرط فى البكاء ، كأنما قد ضاق صدره عن تحمل ماهو فيه من عذاب . لقد كشف صديقه « سمنكرع » سره منذ لحظة ، وها هو ذا والده يطالبه بأن ينهض بوضع أسس إيمانه بالحياة . إن الجميع يجهلون ماهو فيه من بلاء منذ أفلت زمام الحياة من يديه ، فأصبح لايدرى من أمرها شيئاً . وفى وسط دموعه جعل يحدث والده :

ــ هذا هو أس مصيبتى يا أبتاه . لم أعد أستطيع إنجاز ما تطالبنى به . لم أعد أفهم من أمر الحياة شيئاً .

دهش فرعون لبكاء ابنه ، فجلس إلى جواره ، واحتضنه بذراعه وهو يقول :

ــ هون عن نفسك يابنى . ماذا دهاك ؟

رفع الأمير عينيه المخضلتين بالدمع إلى والده ، وراح يتكلم بشفاه مرتعشة :

ــ حدث هذا منذ عام يا أبتاه . إذ تحطمت قيم الحياة فى نظرى ، فلم أعد أفهم من أمرها شيئاً . وكان التغيير مفاجئاً ، إذ أصبحت ذات يوم وقد فقدت إيمانى كاملا . لست أجد اليوم شيئاً استند إليه . فأنا أسير فوق لجج الحياة ، لا هدف

ولا رجاء. آكل مع الآكلين، وأنام مع النائمين، وأضحك مع الضاحكين، دون أن أعثر على نفسى الحقة فى أى حالة من هذه الحالات.

وصمت الأمير برهة ثم عاد يقول:

— لست أدرى لم أعيش!

حدج فرعون ابنه بنظرة ملتهفة. فولى العهد يجب أن يعيش. إنه إيجاب الأقدار. وتكلم فرعون متمهلا:

— أهناك ماينقصك يا أمنحتب عما أستطيع التماس العون لك فيه؟

هز الأمير رأسه فى حزن وقال:

— كلا يا أبتاه. لا شيء ينقصنى. ولعل هذا هو منبت البلاء. إن كل ما أطلب فهو لى، وكل الناس — بفضلك يا أبتاه — عبيد لأهوائى. السلطان والشعور بالقدرة — أحب ما يطمع إليه الناس وأجل ما يسعدهم — كلاهما فى طوق ورهن مشيئتى. كل ملوك الكون يلتمسون مرضاتى ويحنون لى الهام حين أسير، وأسير وأسير وأسير... أشبع نزعاتى، أحقق سلطانى، أجبى الرهبة والاحترام من قلوب الخلق... ومع ذلك فأنا شقى.

صمت فرعون متدبراً كلام ولده وهو مقطب. ولكن التقطيب مالبث أن تراخى تدريجاً ثم انسعت شفتاه ببسمة حائرة مسترببة. وفجأة ردد صوته هذه الضحكة الفاتنة التى طالما ملأت قلوب سامعيه بالفرح والطمأنينة.

رفع ولى العهد بصره إلى والده فى وجوم ودهشة ثم قال:

— علام تضحك يا أبتاه!

— عليك يا أمنحتب. إنك سوف تعيش طويلا حتى تتكلم الآلهة على لسانك.

وأمسك الملك ساعة ثم عاد يقول فى صوت منخفض:

— أتدرى لم استدعيتك يا أمنحتب؟

كان ولى العهد لا يزال يفكر فى تلك الخواطر المتدافعة إلى شعوره فأجاب وهو شارد اللب قائلا:

— كلا يا أبتاه.

ــ اعلم يابنى أن ساعتى قد دنت ، وأننى سأغادر هذا العالم عن قريب .

أفاق الأمير من تأملاته بجأة وفتح عينيه مدهوشاً ، فلم يكن يدور بخلده قط أن والده سيفارق الحياة يوما ما . إنه منذ استهل بالبكاء وهو طفل ، عرف أنه ولى للعهد، وأن أباه هو فرعون مصر . وكان يخيل إليه أن والده سيظل فرعون إلى الأبد ، أما هو فلن يكون غير ولى للعهد ماعاش . ولكن هاهو ذا فرعون يحدثه بأن حينه قد أوشك .

رفع الأمير بصره إلى والده وقال فى تردد :

ــ أهذا أمر لابد منه ؟

ابتسم فرعون لسؤال ابنه . لقد بدا له استفهاما ساذجا ولكنه جميل . فإن ابنه لم يفقه من معانى الموت أكثر مما تحتمل . بل الأشياء عنده تصح وتحترم على قدر لزومها الحتمى ، وبدرجة اندماجها فى النسق الطبيعى للوجود . إن كان الموت لازما فمن الواجب والأفضل أن يكون .

وأجاب فرعون :

ــ إنها أى أمنحتب إرادة الآلهة التى سألحق بها .

تأمل الامير قول أبيه فينه ، ثم قال :

ــ حسنا يا أبتاه .

ولم يتمالك فرعون حينئذ أن يعتنق ابنه وأن يملأ بفتوته كهوف صدره الكهل وأنشأ يقول :

ــ أمنحتب . ابنى العزيز . لكم أحبك ! أحبك لأنك أكثر الناس حباً لى .

عاد لخاطر الملك صورة زوجه وهى تنتحب وتولول حين أخبرها باقتراب ساعته . لم يكن ذلك لأنها تحبه بل لأنها تحب نفسها وراحتها . فهى تريده لنفسها . أما ولى العهد فلم يحزن ولم يعترض، بالرغم مما ينتظره من مهام ثقال ستعيى كاهله الفتى .

قبل الملك جبهة ابنه وظل يحتضنه برهة . كانت هذه اللحظة تعدل كل ما قضاه من عمر . أما الأمير فقد بسط وجهه لأبيه وعلى شفتيه بسمة حزينة ثم قال :

ــ إن كنت تحبنى يا أبتاه ، فإن لى عندك مطلباً أرجو أن تسعفنى به .

ـــ ماهو يا أمنحتب ؟

ـــ حين تنضم إلى الآلهة وتتخذ مكانك بينهم يا أبتاه ، أرجو أن تشفع لديهم ليتشلونى من محنتى .

ـــ لك هذا يا أمنحتب . . إلا أن ثمة علاجا لدى أرجو أن أقنعك بأن فيه نجاتك مما أنت فيه .

سأله الأمير فى لهفة قائلا :

ـــ حقاً يا أبتاه . . .

قبل أن يجيب الملك على ولده جال فى الحجرة حينا ، ثم ألقى بنفسه على مقعد خفيض وقال :

ـــ هل قرأت تعاليم « بتاح ـــ حتب » ؟

أجاب الأمير قائلا :

ـــ أجل

ـــ هل أنت مؤمن بها ؟

ـــ لا أملك الآن أن أبدى رأيا فى أى شىء .

ـــ حسناً . هل تذكر قول هذا الحكيم « إذا كنت رجلا ذا مكانة فأسس لنفسك بيتا ، واحبب زوجتك فى البيت كما يجب ، واتخذها قرينة لنفسك ، لتكون سيدة قلبك » .

ـــ أذكر هذا القول يا أبى .

رمق فرعون ابنه فترة ثم قال :

ـــ أمنحتب . . لقد كنت تسائل نفسك منذ لحظة عن هذا الشىء الذى ينقصك ولا تعرفه . هذا الشىء هو الزواج . إنه الشىء الوحيد الذى سيصلح ما بينك وبين نفسك .

لم يجب الأمير بل ظل مطرقا لايتحرك . فعاد فرعون يقول :

ـــ أترانى أخطأت فى وصف العلاج ؟

صحا الأمير من إطراقه ونظر إلى والده ثم قال ·

ـــ من تريدنى أن أتزوج ياأبتاه ؟

ـــ أميرة فاتنة تدعى « تادوخيبا » .

ـــ من تكون ؟

ـــ ابنة « داشرتا » ملك مستعمرتنا « ميتانى » . لقد أرسلها والدها فى صحبة وزيره فوصلت اليوم .

قال الأمير فى سكون .

ـــ أهذه إرادة مولاى ؟

أثار وجوم الأمير فى نفس الملك لونا من الاضطراب والحيرة ، حاول أن يخفيهما فى دهشة متكلفة :

ـــ حقاً يا أمنتحب إنك غريب الأطوار . أيوجد فتى لا يتهلل فرحاً للاقتران بصبية بارعة الجمال وابنة ملك فى الوقت نفسه .

أجاب الأمير وهو على سكونه الحزين :

ـــ لست أعرفها يا أبتاه

ـــ سوف تراها عصر اليوم فى حفلة الإستقبال .

ـــ إننى لن أعرفها ولو عشت معها إلى الأبد .

حدق فرعون فى ولده برهة ثم قال وهو يضغط مخارج كلماته :

ـــ إنك تحب يا أمنتحب .

ولكن هذه المفاجأة لم تسلب الأمير هدوءه ، فسالت إجابته من ينبوع سكونه كأهدأ ما تكون .

ـــ أجل .

وعاد فرعون يسأله :

ـــ أهى من الشعب ؟

ـــ بل أميرة يامولاى .

ـــ من هى يا أمنحتب ؟

ــ نفرتيتى .

خرج اللفظ من فم الأمير كالحجر الكريم يسقطه الصائغ فى مكانه من الحلية فيستقر

ــ أهى ابنة النبيل « آى » ؟

ــ بعينها يا أبتاه .

دهش الملك للخبر فقد كان جديداً عليه . كان البلاط قد أشاع عن ولى العهد أنه يكره النساء . وقيل إن ابن فرعون هو درجة الأشباع التى أدى إليها فرط ولع أبيه بالمرأة . فقد استنفد الملك غدير الحب وكشف عن أغواره، بحيث لم يجد ابنه جديداً فيه يلقى إليه بشباكه . فكان أن استراح إلى نفسه وانصرف بها عن جهد قليل الغنم .

وفرح الملك لهذا الكشف لأنه ينشىء رباطاً جديداً يصله بابنه فقال له :

ــ إننى أهنئك يا أمنحتب بحسن اختيارك . إن « نفرتيتى » من أجمل ورود طيبة ، وأبوها « آى » هو فخر الامبراطورية شرفاً ونبلا . ولكنى لست أدرى كيف يمنعك حبك لهذه الأميرة التزوج بابنة ملك « ميتانى » ، فما أظنك فقيراً يا أمنحتب حتى لا يسعك التزوج بمن تشاء من النساء ...

سأل الأمير وهو مقطب قائلا :

ــ هل يقصد مولاى أن أتزوج الأميرتين كلتيهما ؟

ضحك الملك ضحكته الفصية ثم قال :

ــ أتجده صعب المنال يا أمنحتب ؟ وفى وسعك كذلك أن تتسرى بمن تشا من الحظايا. هل نسيت أن الملكة «تى» ليست بزوجتى الوحيدة ، وأننى سبق لى أن تزوجت أيضا والدة الأميره التى أرسلها إليك الملك « داشرتا » اليوم ؟ أنت ترى أن التاريخ يسعى لأن يعيد نفسه .

دفع الأمير وجهه بين كفيه وغمغم قائلا :

ــ لا أستطيع يا أبتاه . لا أستطيع .

ودهش الملك لإجابة ابنه فسأله :

ـــ لم لا تستطيع يا أمنحتب ؟

فرفع الأمير بصره فى توسل وقال :

ـــ أبتاه .. إن حب «نفرتيتى» يستأثر فى نفسى بكل وتر يمكن أن يهتز بعاطفة ما . فكيف تريدنى أن أحب هذه الأميرة الأخرى ؟

قهقه الملك مسروراً ثم قال :

ـــ من كلفك أن تحب هذه الأميرة الأخرى يا أمنحتب ؟ إننى أطلب منك الزواج فحسب . عجبا ! ألست رجلا .. ألا يشعرك قربك من امرأة جميلة بسعادة حارة ؟

هز الأمير رأسه وأجاب :

ـــ إن زواجى نفرتيتى نفسها قد يهز عطفى فرحا ، ولكنه لن يشعرنى بالسعادة . . فليست السعادة عندى فى مباهج الحب ، ولكنها فى الانسجام الرفيع للروح الذى يؤهلها للاتصال بسر الخليقة . السعادة عندى هى الألم المضنى ، ولست أعرف سعادة عن طريق اللذة .

لم يكن للملك كبير صبر على مواصلة الجهد العقلى مدة طويلة . فقد عاش حياته مثالا للحكمة العمليه السهلة المأخذ . ثم إن هذا النوع الصوفى من النقاش لم يكن مما يدخل فى طوق فهمه ، بل كان يشعر نحوه كأنه شىء مريض متفكك . شىء كثير التغلغل فى أحشاء النفس حتى ليفسدها لكثرة مايعرض خباياها للأبصار . إن معابده الضخمة وتماثيلة الجبارة لاتعرف شيئا عن هذه التوافه الفكرية الدقيقة التى لا تتميز عن أوهام المخبولين .

لا عجب إذاً أن ضاق الملك ذرعا بولى عهده فأخذ يحدثه فى صرامة قائلا :

ـــ أرى يا أمنحتب أن كثرة إخلادك لنفسك قد أفسد عليك تفكيرك . إنى لم أسمع بآرائك تلك من أكثر كهنة رع اعتكافا ونسكا ، فأى روح خبيث أوحى إليك بهـــذه الأفكار السود ؟ ألا تخشى حين يحضرك الموت أن تعرض حالك، فتجد أنك قد قضيت عمرك هباء منثوراً فى الهواء ، تجرى وراء الإحساسات الشاذة ، وتبحث عن شىء غير موجود ؟ ماذا يشقيك ، وماذا ينقصك ؟ إنك

تستطيع أن تجد فى الزواج سعادتك الجسدية ، وفى ديانة رع وآمون سعادتك الروحية ، فعلام تبحث إذن ؟

ابتسم الأمير فى حزن وقال :

— إننى أبحث عن شىء ليس برع وليس بآمون . لقد وصلت إلى أسرار معابد هاته الآلهة ، وأريد أن أقفز فوقها . إن روحى حبيسة وتريد أن تنطلق .

ضرب فرعون بيده على حافة مقعده بعنف قائلا :

— لايعنينا هذا الجدل الآن يا أمنحتب . فالأمر الذى حدثتك به اليوم أمر خطير الأثر ، ثم أنه يتطلب حلا سريعاً ، فموعد استقبال الأميرة لم يبق عليه غير سويعات . فعلام عولت ؟ إننى لاأسمح لنفسى بقسرك على أمر فيه عسر لك ، فأنت فرعون مثلى .

نهض الأمير قبالة والده وقد اكتسى وجهه بطابع الجد الرزين . ثم قال :

— أرجو مولاى أن يعفينى من تلبية ماطلب منى .

ولكن الملك صاح فى حماسه وعنف ، وراح يهدر كالبركان !

— كلا يا أمنحتب . لن أعفيك . فلست وحدك من يمسه هذا الأمر . بل إن مصر والإمبراطورية كلهما يتعلق مصيرهما بما تتخذ من قرار . فإن كنت تجد أنك ستشقى بتزويجك ابنة ملك ميتانى ، فعليك أن ترحب بهذا الشقاء لأنه من أجل مصر — أجمل غادة فى الوجود ، وأحب المعانى إلى القلب . تقول إن روحك حبيسة فى معابد الآلهة ، وإنها تريد أن تقفز . فلتقفز إلى مصر الوطن ، ولتكن مصر هى الدين . إننى لم أشعر مرة فى معابد آمون أو رع بمثل ما أشعر فى معبد مصر من روعة وخشوع . إننى ملتصق بها كأشجار الجميز الجاثمة على شط النيل ، وهى أقرب إلى من والدى ومن ابنى لأنى أنا مصر وهى أنا ، أنا طينها وماؤها وهواؤها وكل قطرة من دمى هى التى أودعتها جسدى . إنما مصر صدر عريض مفتوح لشعبها . فكيف لايحبونها . . . كيف لايعبدونها . . . كيف لايموتون من أجلها ليحيوا بها فيبعثون فيها . . . إن قول الشعراء : « إن الموت من أجل مصر حياة » ليس مجرد خيال بل هو حقيقة واقعة .

كان الملك كلما طال به الحديث ازدادت حماسته وعلا صياحه ، فما إن فرغ حتى هده الجهد ، فألقى برأسه إلى الوسادة المثبتة بظهر مقعده ، وأخذ يلهث بحدة أنبأت عما آلت إليه صحته من ضعف .

ومع ذلك فلم يرحم الأمير ضعف والده بل تجلت فيه روح المشاكسة ، فعمد إلى صياغة إجابته على نمط جدلى يفسد به على الملك قصده فقال مبتسما :

ـــ لست أدرى يا أبتاه كيف أخدم مصر بتزوجى أميرة ليست مصرية ؟

لعبت بنفس الملك سورة غضب خفيف ، إذ لم يكن يحتمل تشكيكا فى جدوى السياسة التى استنزف عمره فى سبيل دعمها لترتفع إلى مستوى دستور للدولة . فقال محتداً :

ـــ لعمرى إنك فذ التفكير يا أمنحتب . ولعلك معذور ، فأنت لا تزال طفلا فى فن السياسة . اعلم يا أمنحتب أن جدودك الفراعنة أقاموا الإمبراطورية المصرية بحد السيف ثم حافظوا عليها بحد السيف . ولكننى حين اعتليت العرش اكتشفت ما يحوط هذه السياسة من أخطار كثيرة ونفع قليل . فعزمت على أن أتبع وسيلة غير هذه الوسيلة من مقتضاها أننى بدلا من أرغم بلاد الأمبراطورية على قبول سلطان مصر ، أعمل على جعل هذه البلاد نفسها تلح فى طلب هذا السلطان وتسعى من أجله ، فهذا هو فن الحكم الصحيح . ولهذا فقد استقدمت أمراء المستعمرات المصرية ونبلاءها ، وبنيت لهم قصور ضيافة فى طيبة هى التى تراها على الضفة اليسرى عند منحنى النهر . ولقد صادف هذا العمل اعتراضاً قوياً من جانب النبلاء المصريين ، الذين أشاعوا بأننى أصبغ بلاط الإمبراطورية بعناصر أجنبية سيتولد عنها خطر كبير فى مستقبل الأيام . ولكننى لم آبه بكل هذه الاعتراضات النفعية ، بل أنشأت معاهد العلم لهؤلاء الأمراء الأجانب ، ويسرت لهم سبل الاتصال بأبناء أشراف المصريين ، فتوطدت بين الفريقين صداقة متينة قامت على أساس تشبع هؤلاء الأجانب بالثقافة المصرية الخالدة . هكذا أصبح الجيل الجديد فى المستعمرات مصريا أكثر من المصريين ، وصار يتتبع أحداث مملكتنا باهتمام ولهفة يفوقان ما كان يظهره نحو أمور بلاده الداخلية .

ولقد غاظ ملوك آسيا أن يشعروا بأنهم فى بلادهم قد صاروا أدنى مرتبة من فرعون مصر . وإن أشق مايعذب الملوك هو شعورهم بأن كبرياءهم قد مست . لهذا كان على أن أبعد هذه الشبهة عن خواطر ملوك المستعمرات ، فأشعرهم بأنهم يتساوون فى القدر مع فرعون مصر . وكان آن أرسلت فى طلب الزواج من بعض بناتهم ... ولن تستطيع تصور أثرهذا الإجراء ياأمنحتب . . . فقد كان فعله كالسحر .فبعد أن كان ملك «ميتانى» يخاطبنى بلهجة استعلاء تنبىء عن شعوره بالغضب،إذا بهاليوم — وقد اطمأن إلى تقديرى لمكانته — يتفنن فى التذلل إلى بألفاظ لا أستطيع توجيهها إلى خدمى . وفى هذا اليوم وحده ولدت الإمبراطورية المصريه حقاً . أما فتوح أجدادنا فلم تكن سوى غزوات موقوتة بحد السيف يحدثنا التاريخ بعشرات من أمثالها .

تحمل الملك هذا الحديث الطويل فى شجاعة فرعونية حقاً . لم يتوقف ليتدبر كلماته أو يلم أفكاره ، بل انطلقت المعانى من فمه كسيل عرم يزخر بالقوة المخبوءه.

ولم يعد الأمر بينه وبين ابنه مجرد نقاش ومحاولة قهر ، بل لقد اتخذ صفة الوصية الأخيرة التى يعهد بها فرعون إلى ولى عهده . وبعد فترة عاد يقول :

— إن مصر يا أمنحتب منذ أن فصل الإله « شو » الأرض عن السماء إلى اليوم الذى يلتقيان فيه من جديد ، قد قدر لها أن تكون زهرة العالم المتوعه الألوان بقدر تنوع الأمم والجماعات ، فمصر هى العالم ، والعالم هو مصر . يؤمها القوم من مختلف بقاع الأرض فتضيفهم وترحب بهم ، ثم ماتلبث أن تصهرهم فى بوتقة سرها الإلهى ، وتمسح جباههم بماء نيلها المقدس ، فإذا هم ذره طيعة فى خضمها العالمى . لهذا وجب على مصر أن تكون مضيافة كريمة لأنها لم تخلق لنفسها بل للعالم . قد تتبدل الحكومات والأنظمة فى مصر ، ولكن العبقرية المصرية لن تتبدل . وقد تطرأ عليها ثقافات ومدنيات من الشرق والغرب ، فيعتقد أصحاب هذه المدنيات أنهم غزوا مصر بها وغلبوها على أمرها . وهم خادع . . . . إنها الضريبة المفروضة على كل حضارة تظهر على الأرض ، أن تأتى لتسجل اصولها فى مصر « سجل العالم » . إنها الإلزام الأدبى القاهر الذى يستوجب من كل ثقافة

أن تأبى لتسوغ تعاليها أمام مصر «ضمير العالم» . إنها الأمم تروح وتغدو ، والأديان تتنافس وتتطاحن ، والفلسفات تتغير وتتبدل ... كل هاتيك فى ظل مصر الباقية الشامخة «أم العالم» ، التى تسع الأرض بأسرها ، ولا أرض تسعها . . .

صمت الملك فترة وجيزة تدارك فيها أنفاسه ثم قال :

ــ هل يستكثر الأمير المصرى بعد ذلك أن يتزوج بالأميرة الأسيوية من أجل مصر ؟

قام ولى العهد فاقترب من الملك فى تباطؤ ، ثم وقف خلفه ووضع يديه على كتفى والده وقال مبتسما :

ــ لعل الأمير لم يعد يستكثر ذلك يا أبتاه . . .

الفصل السادس

ـــ مولاتى ، أنت لاتزالين زاهية كأبهى ماتشتهى العين . أفليس من القسوة البالغة أن تعتكف الزهرة النضرة فى أردية مسودة ؟

قالها وابتسم . كان « بتاح موس » رئيس كهنة آمون ، قد أخذ نفسه ، بابتسامة استحياء يرسمها على شفتيه ، فيبدو كعذراء بوغتت فى خدرها . وكان ظنه أن هذه البسمة الآخاذة تجلوه فى مظهر الكاهن المتبتل ، الذى لعزوفه عن الدنيا يحرجه اختلاطه بالناس ، ويخجله تحدثه إليهم . ولطالما أفاده هذا القناع من الرياء . فهو يهىء إلى سامعه أن محدثه رجل طيب القلب قليل الحيلة ، فيشفق عليه ، ولا يتحرج من أن يفضى أمام هذا الملك الطاهر بما يعنى قلبه من أسرار لا يشك فى أنها ستطوى فى بئر من الكتمان . وقليلون هم الذين استطاعوا أن يكشفوا ماوراء هذا الستار الخادع من نفس جشعه وشخصية خبيثة .

كان « بتاح موس » قصير الجسم ، ضخم الرأس ، يمشى مهرولا خافض البصر ، كأنه لا يهتم بما فى طريقه من غوايات الدنيا . وكان يصافح من يقابله بحرارة بالغة حتى ليربكه بما يظهره له من آيات الود والترحيب . ولكى يظهر للقوم أن هذه هى طبيعته التى لايملك عنها محيصاً ، فقد حرص على أن يسوى فى معاملته بين الفقير والأمير . يضىء على الجميع ببسمته المستحيية ، ويشع فيهم بحرارته التى أوقدها فى أتون نفاقه .

لاغرو إذن أن أنشأ كاهن آمون لنفسه بطانة كبيرة من أهل « طيبة » المخدوعين . إنهم يعرفونه بعينيه الصغيرتين ، وبأسنانه البارزة على شفته السفلى مما يجعل لهيئة وجهه النحيل سمة فأر مبتسم . يعرفونه بصوته الخفيض المتهدج وبمسوحه السود المحتشمه ، وبذراعيه المنعقدتين على صدره كأنه فى صلاة دائمة . يعرفونه ويفسحون له الطريق خاشعين مبجلين ، وشفاههم لاتفتر عن الهمهمة بالدعاء للكاهن الأكبر . والحق أن « بتاح موس » كان « خدعة كبرى » . . .

ورفعت الملكة «تى» عينيها إلى الكاهن، وقد هزتها الدهشة مما سمعت ، فظلت تحدج وجهه المستحيي بنظرات يلمع فيها الشرر . وأخيراً قالت بصوت حديدى :

ــ ماذا تعنى «يابتاح موس»

لم يفقد الكاهن هدوءه بل ظل رانيا إلى أرض الحجرة الملكية ويداه معقودتان فى حجره . قال :

ــ إننى يا مولاتى رجل قليل الخبرة بأمور الدنيا . غير أن إلهنا الأعظم «آمون» يلهمنى أحيانا مافيه الخير ، فلا أملك سوى الإذعان لأمره . لقد مات فرعون زوجك المقدس فحزنت عليه الأمة حزناً لم تشعر به للملك من قبل . وظلت تتجاوب أنحاء المملكة بالعويل حتى لم يبق فى العيون دمعة لم تذرف ، ولا فى الصدور شكاة لم تتصعد . فقد كان فرعون الراحل عظيما جباراً ، عرف كيف يحمل عبء الحكم الفادح بشجاعة لايعد لها سوى مهارته وذكائه .

وصمت الكاهن فترة ثم عاد يقول :

ــ ولكن فرعون قد مات . . .

لم تكن الملكة «تى» قد استبانت بعد مايرمى إليه هذا الذئب المخادع ، فراحت تقول :

ــ ولكن نجلنا فرعون الجديد قد تربع على عرش أبيه ... عم تتحدث يا «بتاح موس» .

ــ أطال الله فى عمر ملكنا الشاب أمنحتب الرابع : النور الجبار ، صفى الالهتين ، ملك مصر العليا والسفلى ، وحبيب «آمون ــ رع» سيد السماء . ولكنك تعلمين يامولاتى أن جلالته مابرح يافعا لا يحتمل إهابه الغض قسوة الحكم . لهذا خشى الناس ألا يكون فى مكنته امتلاك زمام السلطة بما يضمن لسفينة الدولة أمن المسير .

بدأت أغراض الكاهن تتكشف لبصيرة الملكة . ونازعتها رغبة التثبت مما ادركت فقالت له مبتسمة .

ــ ولكنك تعلم أيها الكاهن الجليل أننا قد نصبنا أوصياء على العرش إلى أن

يبلغ فرعون رشده . أليس فى هذا الكفاية لضمان سلامة الدولة ؟

فعاد الكاهن البكر يلوح بابتسامته التى يظنها تسيل عذوبة ، والتى أصبحت الملكة تمقتها أشد المقت . قال :

ـــ إنه فوق الكفاية . . وتجدينى أول من يعترف بجدارة مولاتى وعظم كفايتها . غير أن الملكة تعرف حال شعب طيبة . لقد شاء له حمقه من قديم الأزل ألا يميل إلى حكم الملكات ، فهو يعمد دائما إلى مناوأة سلطتهن . ولقد طلبت مقابلة مولاتى اليوم لأبوح لها بهذه الحقيقة التى يؤلمنى التفوه بها . وثقى أننى ما كنت لأتكلم بهذه الصراحة لولا ما وصل إليه الحال من التحرج . فإن جلالتك أول من يعلم بخبر تلك الاضطرابات التى نشأت فى العاصمة ، ثم ذاعت فى أنحاء المملكة حتى صارت الشواهد تنبىء بقيام ثورة عامة لا يعلم نتيجتها غير الآلهة .

كانت القلاقل التى يتحدث بها كاهن آمون المظهر المادى للدسائس التى افتن فى حبكها مذ مات فرعون الراحل . ولقد توصل إلى إضرامها بوسائل شتى نوعها وفق ما يثير كل فئة من الناس . قال لأتباع آمون إن الملكة تزمع القضاء على ربهم لتحل رع مكانه . وقال للوطنيين المتحمسين إن ملكتهم الأجنبية تسعى إلى بيع مصر للآسيويين . ثم وسوس فى صدور أهل طيبة التياهين برجولتهم أنه مما يحط بقدرهم قبولهم حكم امرأة . بل لقد همس الكاهن الشرير فى أذن الشعب أن الملكة قد سمت فرعون بمساعدة كهنة رع لتستأثر بعده بالحكم .

هكذا جمعت القلاقل وقودها من هنا ومن هناك ، فبدأت الأسماع تتبين همهمة خافتة صادرة من الشعب .

غادرت الملكة مقعدها واتجهت إلى النافذة تطل منها على حديقة القصر ، وهى تستقصى فى خاطرها أخبار تلك الدسائس التى وصلت إلى علمها فى وقت لم تكن تملك لها منعا . وعاودها من جديد إعجابها بمهارة كاهن آمون . غير أنها لا تعرف بالضبط ما سوف يعرضه عليها هذا الثعبان المتلون . .

وتكلمت الملكة وهى لا تزال مولية الكاهن ظهرها

ـــ وما هى الوسيلة التى تقترحها أيها الكاهن الجليل للقضاء على هذه القلاقل التى لم يصل إلى علمها بعد ؟

وعاد الكاهن يقول من جديد :

ـ يا صاحبة الجلالة ، إن جمالك يتخطف الأبصار ويأسر الأفئدة . عليك بالزواج يامولاتى ليقوم إلى جانبك ملك رجل يرتاح إليه الشعب .

لم تغير الملكة من وقفتها ، فقالت دون أن تنظر إلى الكاهن وعلى شفتيها ابتسامة اغتباط وتسلية .

ـ ومن هو الزوج الذى تراه ملائماً لنا يا « بتاح موس » ؟

ـ إنك يامولاتى أشرف امرأة فى المملكة فلا يليق بك سوى رجل يعادلك فى الشرف .

ـ ليس من يعادلنى فى الشرف سوى فرعون يا « بتاح موس »

ـ ولكن فرعون قد مات ياصاحبة الجلالة . وفرعون الحالى هو ابنك.

ـ إذن . . .

ـ إذن فلا مفر من أن يكون الزوج الكفء لصاحبة الجلالة هو من يلى فرعون فى المرتبة

استدارت الملكة وصوبت إلى الكاهن سهام عينى نمرة متحفزة وقد علا وجهها ابتسامة غامضة المعانى . وأخيراً تكلمت فى صوت هادىء ملول كأنها تقرأ أرقاماً لامعنى لها .

ـ إن المراسم الملكية يا « بتاح موس » تنص على أن الذى يتلو فرعون فى المرتبة هو كاهن آمون .

لم يجب « الكاهن البكم » بل أرخى عينيه إلى الأرض ورسم على شفتيه إحدى ابتساماته المخضلة بالوداعة والحياء ، فبدا كفتاة ناعمة يفضى إليها بخبر خطبتها . وراقبته الملكة وهو يقوم بدوره فاضطرم قلبها بعواطف متضاربة تترجح بين رغبة القتل ولذاذة الاستماع .

وطال بينهما الصمت فرفع الكاهن رأسه وقال فى صوت واهن :

ـ مولاتى . . . إننى رجل لامأرب له . وجلالته أول من يعلم بأننى اعتزلت

السياسة واعتكفت فى المعبد . غير أنه يوحى إلى أحيانا من آمون فلا أستطيع سوى الإذعان لحكمه صاغراً .

وأجابت الملكة بلهجة قطة تداعب فأرها فتملأه بالآمال قبل أن تهوى عليه بالمخلب :

ــ ولكنى قد عاهدت نفسى أيها الكاهن الجليل على أن أظل مخلصة لذكرى زوجى فرعون الراحل .

ــ إن واجبك الأعظم ياصاحبة الجلالة هو أن تخلصى لمصر أولا .

ــ وعهدنا المقدس يا « بتاح موس » ؟

ــ إننا يامولاتى دمى فى أيدى الآلهة توجهنا كيف تشاء . وليس علينا أن نقرر مصير أنفسنا . فالآلهة تأمر ونحن نطيع . ولعل روح فرعون العظيم الراحل لو ملكت التكلم الآن لما خارت لك بغير مانصحت مولاتى باتباعه .

رفعت الملكة حاجبها متصنعة الدهشة ثم قالت :

ــ حقا . . . ولم ذلك أيها الكاهن المبجل ؟

رأى الكاهن أن الفرصة قد سنحت لكى يلقى بإحدى وسائله فى الإقناع :

ــ لأنه فى اليوم التالى لهذا الزواج ستنقطع القلاقل على التو ، فيعود الأمن إلى ربوع مصر ، وتعرف الطمأنينة طريقها إلى قلب الملكة . وليس لمولاتى أن تخشى شيئاً ، فهى تعلم عظيم تقديرى لها وحبى إياها .

جاشت بنفس الملكة رغبة فى أن تهوى على الجسم القابع امامها فتوسعه ضربا ثم تأمر بأن يلقى خارج القصر . ولكن نوازع الحكمة منعتها من أن تظهر على وجهها شيئا مما يتأجج به صدرها ، فقد خشيت أن يفسد التدبير الذى اجتهدت فى حبكه مع مستشاريها ، ولا سيما أنه لم يصل إلى علمها بعد مبلغ ما صادفه هذا التدبير من نجاح أو إخفاق .

* * *

كان مجلس البلاط قد انعقد فى اليوم السابق للتدبر فى وسائل القضاء على تلك الاضطرابات الشعبية قبل أن يستفحل الأمر . وكانت الملكة الوالدة لحداثه

عهدها بالسلطان ، ولرغبتها فى أن تشعر نفسها بقوتها المادية الهائلة الممثلة فى الجيش المصرى ، فقد رأت أن تخمد هذه القلاقل بقوة السلاح . وجاراها فى هذا الرأى « حور محب » القائد الشاب : الذى لم يجد غير هذه الفتنة ليصرف فيها نشاطه الحربى بعد أن استتب الأمن فى المستعمرات الأسيوية . ولم يعد ما يبرر شن الحملات عليها .

غير أن الحكيم أمنحتب بن حابو والوزير رع موس اتجها إلى غير هذا الرأى . فقد أدركا أن هذه الحملة المسلحة ضد الشعب هى نفسها ماقصد إليه كاهن آمون . فهو يستطيع بمكره أن يستخلص منها وقوداً لإشعال نار الفتنة التى قد تنتهى بحرب أهلية طاحنة .

وكان الوزير « رع موس » قد صادفه فى إحدى رحلاته التفتيشية فرصة سعيدة لم يهتم بأمرها فى ذلك الحين ، بل اكتفى بأن رواها للحكيم « أمنحتب ابن حابو » . وشاء حسن الطالع أن يتذكر الحكيم هذه القصة أثناء انعقاد مجلس البلاط ، فحدث الملكة بها ورغب إلى المجلس أن يتدبر أمر استغلالها . وبعد تقليب الأمر على وجوهه المختلفة ، انعقد الرأى على استخدام حيلة محبوكة الأطراف سرعان ماوضعت موضع التنفيذ . فأرسل القائد « حور محب » فى مهمة دقيقة يتوقف على توفيقه فيها نجاح الحيلة بأكملها ، واختص الوزير بتنفيذ الجزء السياسى من المكيدة الذى لم يكن يقل خطره عن مهمة « حور محب » .

وفى المساء عرفت الملكة أن الوزير قد نجح فيما وكل إليه . فقد أنفذ فى طلب « تانم » مساعد رئيس كهنة آمون الذى يليه فى المرتبة ويمثل الإله فى غيابه . وبعد أخذ ورد طويلين تمكن الوزير من الحصول على موافقته على أن يلعب الدور الذى رسمه له . وكان ثمن هذا الدور ثلاثة أحمال من الذهب دفعت فوراً ، ووعداً ملكياً بأن يعين حاكماً لإحدى المستعمرات الأسيوية بدلا من وظيفته التى لن يتمكن من الاحتفاظ بها إن نجحت المؤامرة .

ولكن هاقد أمسى المساء . ثم أشرق جبين الفجر ، ولم تلبث الشمس أن

توسطت كبد السماء ، ومع ذلك فلم يصلها خبر عن « حور محب » . . . ولكن لعل تأخره دليل على توفيقه فى مسعاه وإلا لعاد من ساعته . فعلى الملكة أن تشغل الكاهن حتى تستبقيه لديها ، وأن تمهد لمفاجآتها له بما يهد من أعصابه ، حتى إذا طالعته بما دبرته له ، كان ذلك كالسيف ينفذ فى أحشاء فارس قد طرحته دابته وتسنمه خصمه .

جلست الملكة قبالة الكاهن ، وقالت له فى صوت غفل لا يبين عن غضب أو تشجيع :

— لقد كنا نعلم تقديرك لنا يا « بتاح موس » لكن حبك . . .

وأمسكت الملكة فلم تتم . وحدق الكاهن فى وجهها فلم يستطع أن يجزم هل ترتجف شفتاها بطيف ابتسامة ، أم تعلو جبينها مسحة من تقطيب ، أم أن كليهما يجتمع فى قسمات هذا الوجه الغامض الذى تحتكم صاحبته فى أدق عضلة فيه . يقينا إن الملكة تفوقه براعة فى فنون الأداء والتمثيل ، فقد اقتصر جهد الكاهن على تشخيص الحركات ، أما هى فقد تعدته إلى البراعة فى رسم الظلال وأشباه الظلال ، حتى لتستطيع الإيحاء بأدق المعانى وأخفى العواطف بلألاء عينيها الجذاب أو بتموجات وجهها الرقراق .

وأمام هذا التيه المغلق فضل الكاهن أن يعمد إلى الإفصاح عما يقصد ، لعلمه بأن النساء إن لم يستهوهن الثناء فهو لا يضيرهن على أى حال قال :

— إن الرجل لا يملك سوى الإعجاب بأجمل أزهار الأرض يا مولاتى ، والإعجاب يسير الحب فى ركابه . . . صدقينى يا صاحبة الجلالة ، إن الإلهة « هاتور » إلهة السنا لتغار من حسنك وتتمناه لنفسها .

أجابت الملكة بمثل الصوت المصمت المغلق .

— عجباً أيها الكاهن المبجل . . . ولكنك متزوج ولك أبناء .

دخل فى روع الكاهن أنه قد بدأ يطرق أبواب التوفيق ، فنوازع الغيرة فى المرأة هى أصدق مظاهر الميل . وساعده على هذا التصور أنه كان يدرك بغريزته أن الملكة تشعر نحوه بإعجاب كمين . فقال مبتسما :

ـــ أتغار صاحبة الجلالة من زوجتى . . . أؤكد لمولاتى أن شدة إخلاصى لها ستورثها الملل منى .

وصمت الكاهن حيناً ثم عاد يقول وعلى شفتيه ابتسامة غير ابتسامة «الكاهن البكر» :

ـــ إن إعجابى بمولاتى يرجع إلى عهود طوال . وقد لاتذكر مولاتى أننى طلبت يدك من أبيك وأنت فتاة ، ولكن فاز على فرعون بالرغم من سبق إلى الطلب .

ـــ هل أشقاك هذا الفوز كثيراً يا «بتاح موس» ؟

ولعل الكاهن أراد أن يقتنص من الملكة إجابة صريحة : فسألها بدوره بدلا من أن يجيبها :

ـــ وهل أسعدك ياصاحبة الجلالة ؟

وقبل أن تجيب الملكة سمعت نقراً بالباب ، ثم دخل كبير الأمناء وتقدم إليها فأسر فى أذنها خبراً برقت له أساريرها ، فألقت إليه بأمر مقتضب ، وأشارت إليه بالانصراف . غادرت الملكة مجلسها ، وجالت فى الحجرة وقد عقدت كفيها خلف ظهرها . واستطال بها هذا الحال دون أن تنبس بلفظ . وخيم السكون على الحجرة حتى لم يكن يسمع فيها إلا أنفاس الكاهن ووقع خطوات الملكة المنتظم . وكان لاستمرار هذا الوقع وانتظامه أثر عميق فى أعصاب الكاهن ، فأخذ يرمق الملكة فى غدوها ورواحها ، كأنما شدت عيناه إليها . ثم تنحنح وتململ فى مجلسه ، فلم تلتفت إليه ، بل اطرد وقع خطواتها المنتظم المستمر . وبعد برهة كان الكاهن يصور صوت هذا الوقع بشفتيه ، على غير شعور منه . كان كالمسحور . وبدأت الوساوس تحتل صدره . ترى ماذا أسر كبير الأمناء إلى الملكة ؟ وهل تجوال الملكة وإطراقها نتيجة لهذا الخبر ، أم هو التفكير فيما عرضه عليها وتقليب الرأى فيه ؟ .

ولكن الملكة سرعان ماقطعت على الكاهن حبل هواجسه ، إذ وقفت أمامه وأنفذت فيه نظرة صارمة ارتجف لها قلبه . ومع ذلك فلم تبادر المرة بافتراس فأرها ،

بل ظلت تحدجه برهة طويلة ، ثم تحركت شفتاها قائلة :

ــ لا أكاد أصدق أيها الكاهن الجليل ما أسمعتنيه اليوم من حديث .

لم تكن نبرات صوتها متفقة مع ما فى نظرتها من صرامة . فكاد الكاهن يجن ، ولم يعرف فى أى متجه يسير . ولكنه جالد نفسه ، وأخفى هواجسه ، ثم أجاب :

ــ الأمر الخطير يناسبه الحديث الخطير ياصاحبة الجلالة .

لم تغير الملكة من نظرتها ، ولم تبدل من صوتها ، إذ قالت :

ــ لا . . . إنى أعرف كاهن آمون حقبة طويلة . ولست أتصور أن يصدر منه هذا القول .

حاول الكاهن أن يركن إلى المزاح . فقال :

ــ إن الحقيقة يامولاتى على عكس مايتصوره المرء ، وإلا لم تكن حقيقة .

هزت الملكة رأسها وازداد تقطيب عينيها .

ــ حتى هذا الحديث ما كان لينطق به كاهن آمون .

ماذا دهى الملكة ! وما هذا الخوف المتسلط على وجدانه ! ماباله لا يستطيع تمالك زمام قلبه ! هاهو ذا يسمع نفسه يحدث الملكة على غير إرادة منه قائلا :

ــ ماذا تقصدين ياصاحبة الجلالة ؟ هل أنا . . . هل أنت . . .

ولم يعرف كيف يتم حديثه ، فجعل يفغر فاه صامتاً وهو يلهث . وعادت الملكة تهز رأسها :

ــ وباه . . . أكاد لا أصدق أن الماثل أمامى هو « بتاح موس » رئيس كهنة آمون .

ما كادت الملكة تتم حديثها حتى سمع نقر على الباب من جديد ، ودلف فى هذه المرة الوزير « رع موس » ، فأعلن الملكة قائلا :

ــ « بتاح موس » رئيس كهنة آمون ، ومساعده الكاهن « تا ـ نم » يريدان التشرف بمقابلة مولاتى فى أمر هام .

صاحت الملكة فى صوت مرعد :

ــ ماذا تقول ! أين هما ؟

وبعد قليل دخل الحجرة الملكية الكاهن « تا - نم » ، فى إثر كهل قصير القامة ، بادر بالسجود والتكفير للملكة . فما استوى ولاقى وجهه الضوء حتى صرخت الملكة ، وقفز « بتاح موس » من مقعده صائحاً . كان القادم الجديد نسخة أخرى لرئيس كهنة آمون ، حتى ليستحيل على العين أن تميز أى فارق بين ما للشخصين من سحنة وهيئة . . . المشية المهرولة ، سمة الجسم ، ثم المسوح السود المحتشمة ، والذراعان المنطبقتان على الصدر ، والعينان الضيقتان كالفأر ، والأسنان البارزة فوق الشفة السفلى . . . لايمكن أن يكون هذا تشابهاً بل معجزة . . .

وتكلم القادم الجديد ، فإذا بصوته نفس الصوت الخفيض المستحى .

— معذرة ياصاحبة الجلالة إن كنت قدأزعجتك فى أمر لك . ولكنى لم أملك سوى المبادرة إليك ، حتى أريح نفسى من خاطر ظل ينغص على حياتى من يومين .

نظرت إليه الملكة المرتاعة بحدقتين ازدادتا اتساعاً ، لتزدادا تعبيراً عن دهشة صاحبتهما . وقالت بصوت متهدج :

— ما الأمر أيها الكاهن الجليل ؟

— إننى أعتذر عن كل ماصدر منى ، فقد كنت مجرماً دنيئاً .

— كاهن آمون الأكبر مجرم دنىء . . .

قالتها الملكة وهى تنتقل ببصرها بين القادم الجديد ، وبين زائرها القديم . كأنما تتخير من بينهما من تنطبق عليه هذه الأوصاف ، لتصب عليه دهشتها . وجاء تأكيد القادم الجديد سريعاً ، فقال :

— أجل يامولاتى .

انتفض زائر الملكة القديم ، ولكنه لم يفتح فاه . واستطرد القادم الجديد قائلا :

— اليوم ياصاحبة الجلالة ، بينما أقوم بصلاة الصبح ، تجلى لناظرى الإله آمون فرأيته مقطباً مزمجراً ، ثم مالبث أن صب على جام غضبه . قال لى إن المتربع على العرش هو ابنه الحبيب ، وإننى بوصفى خادماً للإله ، كان على أن أستميت فى خدمة فرعون ، بدلا من أن أدس للعرش ، وأثير الشعب . والحق يامولاتى إننى إن كنت

قد فعلت هذا . فقد صدر عن إخلاص وصدق يقين بأن فيه منفعة لمصر . غير أن الإله رمانى بالإجرام والدناءة ، وبين لى فى صورة لا تقبل الشك ، أننى كنت أفعل ذلك لخدمة أغراضى الشخصية ، ولأحقق مطامع وضيعة كانت تضطرم فى نفسى الخاطئة .

صمت القادم وأطرق ، فاقتربت منه الملكة وقالت :

ــ إنك تظلم نفسك يا أبتاه . أليست هذه الاضطرابات من نوع القلاقل التى تعقب وفاة الملك عادة إذا كان خلفه ما انفك فتياً ؟

كان المشهد بارعاً حقاً . . . فقد كان كاهن آمون يتهم نفسه بنفسه ، على حين تتطوع الملكة للدفاع عنه . وبلغ من دقة سبك الإخراج ، أن خيل لبتاح موس أنه يرى شبحه فى العالم الآخر ، وقد وقف يعترف بذنوبه أمام الإله « أوزوريس » . وهاهو ذا يرى آثامه تتجمع فى كفة الذنوب ، وإذا بها تهبط وتهبط حتى شال الميزان ، وأصبح مصيره المقرر أن يلقى إلى الغول الضارى ، الذى يفتح فمه على الدوام انتظاراً لكل خاطىء .

وعاد القادم الجديد يقول .

ــ كلا ياصاحبة الجلالة . إن كل ثورة من هذه الثورات ، أجهدت حيلتى فى تنميق مسبباتها ، ثم كنت من بعد ذلك أرعاها ، وأورى نارها . إننى وحدى المسئول عن كل هذه القلاقل ياصاحبة الجلالة . وليس ثمة تكفير أتوسل به إلى غسل كل هذه الآثام . فأنا أضع حياتى رهن أمرك ياصاحبة الجلالة .

ولكن صاحبة الجلالة ابتسمت وقالت :

ــ إن حياتك عزيزة علينا أيها الكاهن المبجل . ولكن الحق إننى لم أكن أتصور كل هذا من كاهن مصر الأول ، الذى أشاد الشعب بنبله .

ــ لا يامولاتى . إننى لم أكن نبيلا فى يوم من الأيام .

ولم تتمالك الملكة أن تخفى ابتسامة لاحت على شفتيها ، فقد كانت دلالات هذا المشهد الفريد تملأها غبطة وتسلية . وصاحت مدهوشة .

ــ هكذا . . . وعلام عولت الآن ؟ ؟

ــ إن صفحت عني مولاتي، وشاء كرمها أن أظل في منصبي ، فسأصدر أمرى لأعواني كيما يقفوا هذه الاضطرابات في الحال . ولقد أعلمت مساعدى الكاهن « تا - نم » بالأمر ، وأحضرته إلى مولاتي ليكون تحت تصرفها حتى أبرهن على صدق توبتي .

التفتت الملكة إلى الكاهن الآخر وسألته :

ــ هل أنت مستعد للعمل في خدمتنا أيها الكاهن « تا - نم » ؟

ــ إنني طوع إرادة مولاتي ، وعبد رغباتها .

ــ حسناً . وأنت ياكاهن آمون الأكبر . لقد شاءت إرادتنا أن نصفح عن ذنوبك . انصرف إلى معبدك .

ولكن « بتاح موس » تقدم إلى الملكة ، فتكلم أول مرة قائلا :

ــ لاداعي لهذا ياصاحبة الجلالة .

التفتت إليه الملكة وانبعثت منها صيحة دهشة ثم قالت :

ــ أما تزال هنا . . . لقد كدت أنساك أيها الرجل . حدثني من تكون أنت ؟

عض « بتاح موس » على أنيابه وقال :

ــ لست محتاجة لأن تطيلي تمثيل دورك ياصاحبة الجلالة. إنني أعترف بهزيمتي.

تأملته الملكة ملياً . حقا إن حاله يثير الشفقة . ولايستطيع الباحث في النفس البشرية أن يجزم هل هي هذه الشفقة ، أم هو نبل الملكة ، أم هو إعجابها القديم بالكاهن هو الذي دفعها إلى أن تمتنع عن إطالة تعذيبه ، على ماهنالك من لذة التشفي والانتقام . ولكنها ــ وقد أدت حيلتها الغرض المقصود منها ــ سرعان ماطرحتها بعيدا عنها فرجعت الكاهن الحق إلى منصبه ، ثم وجهت إليه خطابها على هذا الاعتبار :

ــ حسنا يا « بتاح - موس » . هل أنت مستعد لأن تنفذ ما تعهد به لنا هذا الكاهن المبجل منذ لحظة ؟

ــ هذا أمر مفروغ منه يا مولاتي .

ليكن ذلك . وسنحتفظ بهذا الكاهن المحترم رهينة لدينا لضمان تنفيذ ماتعهدت به ، وإلا قام هو بتنفيذه .

صوب « بتاح - موس » إلى الكاهن المزيف نظرات تقدح شرراً ثم التفت إلى الملكة .

ـــ أتسمح مولاتى بأن تخبرنى أين عثرت على هذا المخلوق ؟

فقهقهت الملكة وقالت :

ـــ لا تخف يا « بتاح موس » فلدينا من أمثاله كثيرون .

ـــ لا يا صاحبة الجلالة . فلا يوجد فى العالم سواه

ثم التفت إلى الكاهن الزائف وقال له :

ـــ أليس كذلك يا « هوتى » ؟

ولكن الملكة لم تترك لكاهنها فرصة الإجابة بل صرخت قائلة :

ـــ عجباً . . . أتعرفه يا « بتاح موس » ؟

فنظر إليها نظرة ساهمة ملولة ثم قال :

ـــ إنه توأم لى ياصاحبة الجلالة . ولقد أخفيت أمره عن الناس أجمعين ، إذ لم يكن انتسابه إلى يشرفنى فى كثير أو قليل ، بعد أن اختار طريق الفساد ، واندس بين سفلة القوم . وكانت صلتى به قد انقطعت منذ أمد بعيد . ولكن هاأنذا أراه فى هذا اليوم المنحوس الذى ما كان يجب أن يظهر فيه .

والتفت « بتاح موس » إلى مساعده وقال له :

ـــ هيا بنا يا « تا - نم » فلا بأس أن نقتسم ثمن خيانتك معا .

ولكن الملكة تكفلت بالإجابة عن الكاهن فقالت :

ـــ أخشى أنك ستضطر إلى البحث عن مساعد جديد يا « بتاح موس » . فإن الكاهن الجليل « تا - نم » قد أصبح منذ اليوم حاكما لبعلبك ، حيث يكون من سوء حظه أن يصبح بعيداً عما سيوحى به إليك الإله آمون .

لم يجب رئيس الكهنة ، بل ظل يحدق فى وجه الملكة المنتصرة فى هدوء

ضخم عميق . هاهو ذا قائم أمامها كعهدها به فلم يتحطم ، ولم يبك ، ولم يتوسل بل لقد استقام ظهره وقداعتاد الانحناء ، وشمخ رأسه وقد علمه الخفض، واحتدت نظرته وما كانت إلا حيية . وهوى قلب الملكة فجأة فقد شعرت أنها المنهزمة وأن الكاهن هو المنتصر . فإن فى محض تحمل الهزيمة نوعاً من النصر ، وفى التهليل والفرح بالنصر هزيمة خفية . إن الكاهن الآن هو المسيطر على الموقف من غير شك . فقد انتهى نجاحها وانتهى إخفاقه ، غير أن الشجاعة التى قابل بها الكاهن محنته ،دلتها على أن ماوقع بينهما اليوم إنما هو حلقة فى سلسلة . ولسوف تنثنى دورة الأقدار فى فلكها المعكوس ، فيذهب إخفاق الكاهن فى غياهب النسيان ، ثم تتجمع له على مر الإيام بذور نصر جديد لايلبث أن يزدهر حين تدق الساعة .

وتتبع الكاهن هذه الخواطر وهى ترتسم متلاحقة على صفحه وجه الملكة التى أخذها هذا الشعور المفاجىء على غرة منها ، فأدرك أن قناصته قد أصبحت فريسته . وعلم أنه لو عرض عليها الآن ـ وهو طريح مهزوم ـ ماعرضه عليها منذ حين ، فقد تقبل وهى منتصرة ما سخرت منه وهى مهزومة .

ولكن الكاهن الأريب اكتفى بأن رشق الملكة بنظرة أشاع بعدها بسمة لم تكن هى الأخرى بسمة «الكاهن البكر» .

ثم انحنى مسلما وخرج مهرولا . .

* * *

وفى المساء كانت الملكة ترأس حفلا صغيراً استمعت فيه إلى المغامرات التى لقيها القائد الشاب «حور محب» وهو يجد فى البحث عن شبيه كاهن آمون . فحدثها كيف أنه ظل يتنقل بعجلته الحربية من بلدة إلى قرية ، حتى انتهى أخيراً إلى غار فى كبد الصحراء ، حيث وجد ضالته متربعاً وسط أتباعه ومساعديه .

سألته الملكة وهى تتأمل بين أناملها عنبة وردية كخد الشمس :

ـ أهو يتعبد هناك ؟

ــ كلا ياصاحبة الجلالة . إنه زعيم عصابة تسلب قبور الموتى .

ضحكت الملكة وهى تمتص رحيق حبة من العنب على مهل وقالت :

ـ يظهر أن السدب يا «حورمحب» من تقاليد أسرة رئيس الكهنه .

وضحك القوم عالياً وقد امتلأت رءوسهم بخمرة الجعة ونشوة النصر . ولم يكد أن ينفض الحفل حتى كان القائد «حورمحب» قد ارتقى إلى رتبة قائد الجيش الأعلى .

الفصل السابع

تمضى الأيام تلو الأيام ، وتقترب الأرض من الشمس فتصطلى بنارها، ثم تشيح عنها فترجفها برودة الحرمان ، ويتوسط هذين ربيع زاهر وخريف قاتم — ألافلاك لاتنقطع عن الدوران .

تولد الأطفال فترضع الوالدات ، تتألق العذارى فتخفق القلوب ، يهيم العشاق ثم يسعدون ، يتزوج الفتيان ثم ينجبون ، ويأخذ الناس ويعطون ، ويروحون ويغدون ، ثم تعتل الأبدان فتهمى العيون ، ويموت الشيوخ فيدفنون ، فاسقون أو متعبدون ، وهناك فى المغرب يعثون ـ قلب الحياة لايفتر له نبض .

العالم بأسره يهيم ويدور وينبض ، ولكن ثمة مخلوق قد قبع فى مكانه لايبرح ولا ينشط .

أين فرعون . .

لم تكن تراه أبهاء القصر الملكى . ولم تكن تعرفه المحافل أو الولائم ، ولم يكن يظهر فى المراسم العامة إلى جانب والدته ، ولم يشاهده الملوك والساسة ممن يقصدون طيبة .

أين هذا الفتى الناحل الجسم ، الكبير الرأس ، العريض الجبهة ، الخفيف الوطء كأنه الخيال ؟ أين تلك القسمات النبيلة ، وتلك الأجفان الثقيلة على العيون الحالمة ، وهذا الفم العذب الوديع كأنه ينبوع من ألحان الملائكة ؟

لم يكن أحد يعرف . ولا فرعون نفسه كان يدرك أين هو أو ماذا يفعل . مخلوق على هامش الحياة قد تخلف عن موكبها إلى جانب الطريق ، تمر عليه الأيام والليالى وهو ساهم واجم يحدق فى الفضاء . . .

حتى زوجته الأسيوية لم تكن تراه إلا لماما . كانت تحدثها أحلامها بأنها حين تصبح زوجة لفرعون العظيم ، ستصير ملكة على جميع أمم الأرض ،

تحوطها الجلالة والمهابة . فلم يمض شهر على زواجها حتى وجدت نفسها حبيسة فى قصر من ذهب ، لا يكاد يشعر بوجودها أحد . أيكون هذا هو العز الضخم الذى مناها به أبوها وهو يقنعها بالتخلى عن ميلها لابن عمها الذى لايعدو أن يكون أميراً أسيوياً متوحشاً ، لتتزوج فرعون الإله الذى تخر له جباه الملوك ؟

أين هو فرعون الإله . إنه وهم لا حقيقة . وهى حين تنظر إليه تشعر كأنه شبح أو خيال لا يمت إلى الآدمية بصلة . كانت تأسرها أحياناً ضحكته التى تلمع كجناح الحمام الأبيض ، ولكنها لم تكن تفهم كنهها ، بل توجس خيبة مما كانت تلمسه وراءها من معان غامضه . وأصبحت تنظر إلى زوجها كأنه مخلوق غير بشرى بل كأنه روح هائم فر من عالم الأموات . ولم تكن الأميرة الأسيوية سوى جسد من لحم حار . وأنامل فرعون باردة كأكف الموتى .

ومن هنا تولد خوفها من زوجها . اقتصر هذا الخوف فى بادىء أمره على أنها أصبحت تهيب قربه وتعمل على الهرب منه . ثم تطور الخوف على مر الأيام جزعا راعبا ورهبة قتالة . ولم تكن فى غربتها تجد صدرا عطوفا تشكو إليه محنتها، بل زاد فى اهتياج مشاعرها هذه الوحدة المروعة التى فرضت عليها . وكيف تنفرد بنفسها ! إلى الأخيلة القتالة التى تعصر فؤادها عصراً ، أم إلى شبح زوجها المخيف الذى يطاردها فى يقظتها وفى أحلامها بأنامله الباردة وبسمته الغامضة ! وزاد من شجونها أن ترامت إليها أنباء عن صلات زوجها الماضية بالأميرة نفرتيتى. فهل قدر لها أن تحرم كل عطف وأن يفوز بحب زوجها امرأة غيرها ؟

اعتملت هذه الأشجان فى صدر الملكة الغض ولعبت الأخيلة الموحشة برأسها الصغير فإذا بها مريضة طريحة الفراش . وعادها الطبيب « تحتمس » وأجهد نفسه فى التماس العلاج لها ، ولكنه أسقط فى يده فانصرف يقول لفرعون إن داء الملكة بعيد عن منال طبه . فلم يكن مرض الملكة علة جسمية معروفة ، بل انتابتها مضاعفات عصبية جعلتها لا تنقطع عن الصياح والبكاء . كانت تقطع شعرها وتمزق ملابسها . وكان أكثر مايثيرها أن ترى زوجها أمامها أو أن تسمع صوته من بعيد. فإذا اتفق أن لامستها يده كفى هذا لكى يؤرقها ليالى موصولة . ثم أصبحت تهاب

أيدى الناس جميعاً فاترى يدا ممتدة حتى يخيل اليها أن ألسنة من الجليد تنفذ فى جسدها.

وصار حالها لا يفترق عن الجنون . ولم يكن بدنها النضر وعظامها الغضة لتحتمل قسوة هذا العناء المضنى ، فاشتدت عليها وطأة المرض وأصبحت أيامها على الأرض معدودات . هذه المسكينة التى أماتها خوفها من زوجها لو أنها رأته وهو لا يزال « أمير الأحلام العذبة » لعبدت الثرى الذى يسير عليه .

فاذا دها فرعون ؟؟

حتى الأميرة نفرتيتى لم تكن أسعد به حظا من زوجته . فقد كان الملك لا يسمح لنفسه بأن يخون إخلاصه لزوجته المريضة ، كما رفضت نفرتيتى أن تتزوج منه فتصبح ضرة للأميرة الآسيوية . غير أن فرعون لم يكن ملحاً فى طلبه بل تركها وانصرف . وندمت نفرتيتى ماشاء لها الندم . فقد كانت تحب الملك وخيل إليها أنها أغضبته . وعادت تتودد إليه فما كان يقابلها بغير الابتسام . ثم حاولت أن تجرب سلاح البعد فلم يسأل عنها . حينئذ بدأت تشعر بالغيرة . ووقع فى قلبها بعض الوقت أن فرعون قد بدأ يشغف بزوجه . ولكن أخبار انكماش الملكة عن زوجها لم تلبث أن وصلت إلى مسامعها لحطمت هذا الوهم . إذا لم يكن حب الملك لزوجه قد صرفه عنها فلم لا يأتى إليها ؟ ماله أصبح غريباً عليها بعيدا عنها وهو من كان يقضى الليالى تحت شرفتها . .

ماذا دها فرعون ؟ ؟

لعل السر فى هذا مفتاحه فى يد صديقه «سمنكرع» . ولكن « سمنكرع » نفسه لم يعد يرى فى صحبة فرعون فقد ساد علاقتهما جفاء غامض . لحظ هذا الصديق تغيرا خفياً فى طبيعة فرعون فلم تعد ضحكته الجميلة تفيض بالبشر بل جدت فيها ومضات من السخرية السوداء والتشاؤم البغيض . ولم يعد فرعون يطرق الموضوعات المحببة إلى قلبيهما تلك التى طالما جمعت بين روحيهما ، بل كان يهرب منها إلى الحديث التافه والمزاح السهل . ثم امتنع الملك تدريجا من أن يفتح صدره لصديقه فشعر « سمنكرع » أنه بات بعيدا عن ثقته أو هذا ماخطر له . وكان سلوك فرعون قد أصابه مثل هذا التبدل ، إذ صار يخالط نوعا آخر من الخلا ن

الذين يميلون الى المرح ومطارحة اللذات، وينأون عن كل جهد أو عمل عقلى .وكان صفى الملك فى هذا الحين هو النبيل « تيتو » الوسيم النزق كالعصفور . وكان « تيتو » مثالا للأناقة وحسن الذوق ، فما لبث الملك الذى لم يكن يعرف مايلبس أن اقتدى به ، حتى صارا يتعلونان على ابتكار الأزياء واستحداث أساليب التأنق وحسن الهندام .

هكذا رأى « سمنكرع » أنه قد صار دخيلا على هذا الجو الجديد بعد أن خان الملك مثلهما المشتركة ، التى أجهدا نفسهما فى صوغها تحت ظلال الدوح وعلى شطئان الجداول . فما كان منه إلا أن تدلى فى سكون من أفق صديقه القديم . فهل افتقده فرعون فأرسل فى طلبه ؟ لاشىء من هذا . وكأنه لم يكن يعرف فى يوم ما شخصا يدعى « سمنكرع » .

ولقد احتار « سمنكرع » فى تأويل هذا التطور ورده إلى تعليل معقول . فالملك لم يكن من هذا النفر الذى يفسده السلطان فيجعله يتنكر لأصدقائه الأول ، ثم إنه لم يكن يباشر هذا السلطان حتى يقال إن سورته قد طغت عليه بالرغم منه . بل إن حياة الملك وهو فرعون لم تكن تختلف فى مظاهرها عن حياته وهو أمير . فإذا لم يكن هذا هو مرد التبدل فى طبيعة الملك ومسلكه فما يكون المرد ؟ لقد كان الملك يفنى نفسه فى سبيل أصدقائه فأصبح اليوم ولا صديق له .

فماذا دها فرعون ؟

هل صحيح أن فرعون قد غدا مهملا لزوجته ، خائنا عهد حبيبته ، متنكراً لأعز أصفيائه ؟

* * *

فى مبنى متطرف من حديقة القصر ألف فرعون أن يجلس الى منضدة مثقلة بمختلف الأسفار وصحائف البردى . كان يلقى ببصره إلى النيل البعيد الملتمع فى أحضان الطبيعة الخضراء كخنجر من ماس يذهب به التفكير كل مذهب . ويطول به الشرود فتدمع عيناه ويتمنى لو دفن هذا الخنجر فى صدره فيستريح مما هو فيه من شقاء . فلم يكن الملك جاهلا بتلك المشاعر الجديدة التى عرفت طريقها الى صدور أصدقائه وخلانه، بل كان إحساسه بها كإحساسهم . وكان يعلم أن هذه التهم الخفية

باطلة لا أساس لها . غير أنه وجد نفسه عاجزاً عن ردها ، فقد كانت الحقيقة التى سيدفعها بها أقسى عليه من التهم عينها .

كانت الحقيقة هى أن الملك هو الذى تعمد قطع كل هذه الصلات الحبيبة العزيزة . أما العلة فى هذا فقد كان يعرفها وحده . وكان البوح بها يفقده آخر أضواء الأمل فى حياته . فلم يكن يطيق الملك أن تنمحى ثقة صحبه فيه كل انمحاء .

هذه الحقيقة هى أنه أدرك فى يقين أن نفسه قد صارت رديئة فاسدة بحيث لم يعد جديراً بالاحتفاظ بصلاته الروحية القديمة : وعرف أنه يخدع أصدقاءه إن اندمج بينهم على أنه المؤمن السامى الذى عرفوه ، على حين لم يعد له الآن سوى روح قبحه الشك ، وعصفت به السخرية الشريرة التى لفظت المثل العليا وحطمت المبادىء الرفيعة . وكان يمنى نفسه بأنه لا بد متغلب على هذا التطور عن قريب فيعود إلى صلاته الجميلة بصحبه ، وتشرق الشمس بعد احتجاب . غير أن الأيام كانت تمر فما يزداد الملك إلا تغلغلا فى شكه وبعداً عن إيمانه القديم . وقد كانت شئون نفسه فى هذا العهد تلهيه عن مهام الحكم فأهملهما إهمالا تاماً ، وألقى عبئها على عاتق والدته .

هذا هو الذى دها فرعون .

أين هو ؟ إنه معتكف فى صومعته القاصية عن صخب القصر حيث قطع صلاته بالعالم . وكان إذا اضطر لمغادرتها إلى محفل أو وليمة رسمية يعمد إلى الاختفاء وراء قناع من السخرية والتهكم يستر به شقاءه المرير . ولم يكن أسبق إلى مجاراته فى هذا المضمار من النبيل « تيتو » ورفقته، فاندمج فى زمرتهم حتى بدا للناظر العابر كأنه واحد منهم .

غير أنه كان لاعتكاف الملك علة أعمق من تلك . فقد عقد العزم على استكناه أصول الشك المستولى عليه ، فلعله إن تعرف إلى أسبابه يمكنه التغلب عليه . أراد أن يعرف لماذا لم يعد يعتقد ألوهية المعبودات المصرية ويستريب بصفاتها المقدسة . هل « آمون » إله ؟ هل « بتاح » إله ؟ هل « ست » إله ؟ هل « أوزوريس » و « شو » و « هاتور » جميعهم آلهة ؟ هل « رع » نفسه —

أكثر الآلهة المصرية سمواً وروحانية — إله ؟ ؟ إن الشمس التى يتجسد فيها هذا المعبود هى بلا شك قوة عظيمة جبارة . ولكن هنـاك أيضاً الأرض والقمر والنيل والنبات . فهل كل واحد من أولئك إله فى ذاته كما تقول المعتقدات المصرية ؟

وكان أن اعتكف الملك يدرس الكتب الدينية ، ويراجع النقوش المحفورة على الأهرام وغيره من الآثار القديمة ، فيقارن فيما بينها ثم يطلق العنـان لفكره يتأمل ويتدبر . وكان يخيل إليـه أحياناً وهو يتتبع حلقات تفكيره أن هناك بعض أضواء الأمل فى نفس هذا الشك المستولى عليه . بل خيل إليه مرات أن شكه الراهن أفضل من إيمانه القديم . غير أن تلك المشاعر ما تلبث أن تغور فى ظلمات نفسه ، فيعود إليه يأسه وحيرته فيطرق وتنهمر دموعه .

ولم يصبر الملك طويلا على هذه الدراسات الدينية التى كانت تورثه الحيرة بدلا من أن تعيده إلى طمأنينة الإيمان . لطالما هرب من صومعته فخرج هائماً على وجهه فى الحقول ورأسه يكاد ينفجر لشدة ما تتضارب فيه الأفكار . وأخيراً عول على أن يضع حداً لهذا الجهد الموئس، وكان أن أخرج الأسفار جميعها من صومعته فلم يترك فيها قصاصة من صحيفة بردية .

كان يزامل فرعون فى بحوثه الدينيـة شاب يدعى « بك » ، وهو ابن « أوتا » كبير مثالى الملكة « تى » . وكان « بك » من أذكى شبان طيبة ، له نفس فى صفاء الجدول المتألق، وعزيمة تكاد تدانى عزيمة فرعون مضاء وقوة . وكان أول ما لفت نظر فرعون إليه أنه استطاع فى إحدى الولائم الملكية أن يسوى له صورة على صحيفة من البردى فى لحظات معدودات . فى هذه الليـلة جاذبه الملك أطراف الحديث فى شأن الفن المصرى القديم والجديد فأعجب بآرائه ومال إليه . ومن هذا الحين نشأت بينهما صداقة وطيـدة ارتاح إليها الملك لأنها — وهى قريبة العهد — لم تكن تظهر لهذا الصديق إلا تطور فرعون الجديد .

وكان « بك » حين تنتهى دراساتهما فى بطون الأسفار، يعمد إلى قطعة من الصلصال يصور بها هيئات مختلفة لمعبودات وأشخاص . ولم يكن الملك يرضى عن مجهودات صديقه الفنية دائماً فكثيراً ما عدل له فى هيئات تماثيله، إذ كان هو الآخر

مثالا مجتهداً فى صباه . ولقد هاجت هذه المحاولات الفنية خواطر الملك فأطلقت عقله يفكر ويتأمل . . .

كان الملك قد تعلم فن النحت على يد كاهن من أتباع « رع » . ولكنه بعد أن أتقن أصول الفن الأساسية، ضاق ذرعا بما كان يلقنه إياه معلمه من وجوب تقييد الأوضاع الجسدية على مقتضى التقاليد الدينية التى تحكمت فى الفن حتى هذا العهد. فترك معلمه وراح ينشىء بنفسه . أما « بك » ، فقد تلقى أصول فن النحت على يد والده « أوتا » ، زعيم مثالى الامبراطورية، الذى لقن ابنه الأوضاع التقليدية على أنها جزء عنصرى فى أصول الفن . وكان هذا مثار الخلاف الدائم بين الملك وصديقه . فكان الملك لايعبأ بالقيود ، ويعمل على تصوير الحركة خالصة نقية تنبض منها الحياة ، على حين يصر « بك » على أن يقدم رجل تمثاله ويؤخر الأخرى وفقاً للتقاليد القديمة .

ولكن الملك أدرك أن نظرته إلى الفن لا يمكن أن تصل إلى مرتبة الحركة الثورية على القديم الفاسد ، إلا إذا تعهدها بالدرس والتهذيب ، حتى يجلو أصولها على أحسن وجه . لهذا فإنه بعد أن يئس من بحوثه الدينية أحال مكتبته إلى معمل ، واستبدل بكتبه ومحابره الحجارة والمعاول . ثم أكب مع تلميذه « بك » يعملان ويحطمان ويعدلان . وكان مصدر وحيه فى هذا التجديد ، الفن المصرى المتناهى فى القدم الذى ظهر فى أيام الفراعنة الأولى .

غير أن الملك كان إذا فرغ من عمله وخلا إلى نفسه ، تسلمته أفكاره السود. فبلبلت فؤاده . إن العمل لم يسعده فهو لا يزال يحس بالشقاوة تخز نفسه وخز الإبر . فعلام إذن كل هذا الجهد ولأى غرض يبذل ! كان يزداد تأكداً على مر الأيام، أن عليه أولا أن يحل مشكلة نفسه وإلا فلا معنى للحياة . ولكنه لم يستطع أن يصل إلى حل لهذه المشكلة بالرغم من كل ما بذل فى هذا السبيل .

آه لو تتكشف له علة شقائه . . .

لقد بدا للملك منذ عهد أن مرجع شقائه هو تنافر حياته ، وفقدان انسجام شخصيته مع ما قدر له أن يكونه . واستولت عليه فكرة مؤداها أنه لم يخلق للملك

وأنه بمحاولته أن يوفق بين نفسه الطليقة باعتباره بشراً، وبينها باعتباره فرعونا لمصر، إنما يجمع بين شتيتين متنافرين مالبثا أن اعتركا فى صدره فأورثاه هذا البؤس. أما وهو لا يستطيع أن يغير ما بنفسه فليس لديه إلا أن ينبذ العرش .

وذهب إلى والدته فى أحد الأيام وكاشفها بهذه النية . ولم تكن الملكة تفهم فرعون كفهم أبيه له . فلم تدرك من رغبة ابنها غير معنى واحد ، هو انتهاء عهد سلطتها التى ترتكن إلى وصايتها عليه ، فجزعت ونصحت واحتجت، فما ازداد الملك إلا تصميما . وكانت الملكة تعرف معدن عزيمة ابنها ، كذلك لم يغب عن بالها رقة قلبه ويسر تأثره . فلم تجد أخيراً غير أن تبكى له وتستعطفه ، لكى يرجىء إنفاذ رغبته إن لم يشأ أن يعدل عنها ، ثم أكدت له أنها ستعفيه من تحمل كل تبعات الحكم، وتعصمه سائر مضايقات المنصب .

وكان أن عاش فرعون طليقاً من أتفه القيود الملكية ، لا يعرف من الوزير ومن الحاكم، ولا يهمة أن تقوم الثورات أو أن تنسلخ المستعمرات . فهل أفادته هذه الحرية الظاهرية ، فأطلقت سراح روحه الحبيس فى سجن تعاسته ؟ لاشىء من ذلك . فلم تكن المشكلة إذن أنه أسير منصب معين ينشز بحياته عن لحنها الطبيعى، بل الطامة هى شعوره المرهق بأن شيئاً ينقصه ، وجهله بهذا الشىء ماذا يكون .

لم تكن بنية الملك الرقيقة لتحتمل هذا الجهد المضنى المتصل الحلقات . فازداد تدهور صحته وكثر نزيف الدم من فمه . غير أن علته لم تقف به عند هذا الحد فقد كان من أثر إجهاد فكره المستمر ، نهك أعصابه المتواصل ، أن عاجله مرض خطير أسلمه الى نوبات من الصرع كانت تجعله يتلوى على الأرض كدودة اقتطع بعض جسدها . وكان يبلغ من شدة هذه النوبات أحياناً أن يحسب الطبيب أنها قاضية عليه، فيبدأ رجال البلاط فى إعداد معدات الجنازة والدفن . ولكنّ الملك كان ينجو منها فى كل مرة .

ولم يكن الزمن ليقنع لفرعون بهذا القدر من المحن . فقد ابتلى فى أوقات إفاقته بنوع مرضى من الأوهام تستولى عليه ، فتصور له أشباحا وأخيلة مزعجة تظل تتراقص أمام عينيه بصورها البشعة، مصدرة أصواتاً منكرة مفزعة، ثم لاتلبث أن

تحدق به من كل جانب فتهدده وتتوعده ، وقد تهم عليه بطعنه أو ضربة وما تنصرف إلا وقد هدت كيانه فتتركه كومة من الهشيم . وكانت تتراءى له أحيانا أشباح أناس يعرفهم ، فتظهر واضحة ناطقة كأنها مجسدة فعلا . فقد يفتح الباب عن نفرتيتى فتدخل الحجرة وتتقدم إليه هاشة تمد إليه ذراعيها ، ويقوم إليها الملك ليحتضنها ، فإذا بذراعيه تطبقان على صدره ولا أحد غيره فى الحجرة . وقد تأتيه زوجه باكية منتحبة . فتجلس عند قدميه حيث يسمع عويلها ويرى ارتجاف أعطافها ويكاد يحس بحرارة جسدها ، فينحنى عليها وإذا به يحدق فى أرض الحجرة وقد اختفى الشبح فى طرفة عين .

ملأت هذه الأوهام صدر الملك برعب جديد كان يعكر عليه أوقات صحوه أتراه قد جن وهو لا يدرى ؟

هذا حق واقع لاشك فيه . كيف فاته أن يدرك ذلك من قبل ، وقد ولد وهو مجنون ... ألا يذكر أنه وهو فى السابعة من عمره كان يخيل إليه أنه المخلوق البشرى الوحيد، وأنه لا يوجد فرد من نوعه فى كل أنحاء الأرض . . . كان يبدو له أن كل من سواه — حتى أبوه وأمه — ليسوا غير أرواح هبطت من عالم آخر ، لتخدمه ولتصور له دنيا يعيش فيها . إنه يذكر الآن جلياً كيف استولت عليه هذه الفكرة وهو صبى فى إصرار غريب لم يملك له دفعاً . فكان يتجمع تحت غطائه ليلا ، وعيناه تحدقان فى الظلام، وفكره يدور بما يتصور أنه أخطر حقيقة استطاع أن ينتزعها فى غفلة من هؤلاء الماكرين الملتفين حوله . ألم يكن هذا بدء الجنون ؟

إذن فما كان يعتقد وهو فتى أنه أفكار سامية ، وما كان يصوره له شعوره من عواطف نبيلة لم يكن سوى أخيلة الهوى. ماذا بقى له إذن مما يحبب إليه هذه الحياة التعيسة المملوءة بالآلام والأشجان؟ حتى ذخر ذكرياته الجميلة قد سلبه ولم يعترف له به .

وكان ان استولى على فرعون خاطر شرير، أخذ يشتد فى صدره اضطراماً كلما طال به عهداً . وكان أول ماطالعه هذا الخاطر فى يوم عاصف، اشتدت رياحه حتى لكأنها طوفان متجسد من التيارات يدفع كل مايصادفه بأيد جبارة . واتفق أن كان الملك فى هذا اليوم بمحجر بالقرب من طيبة، يشرف على قطع أحجار لبعض تماثيله .

وبينما هو واقف بمنعطف من الجبل ، إذ سمع صوتا مرعدا القمة فرفع بصره يتبين أمره ، فلفحته رياح سافية أعمت عينيه . وفى لحظة أحس بسيل من الأتربة ينهار عليه من كل جانب ويخزه بسنان كالإبر فحجب عينيه بكفيه ، تجمع مكانه . ولكن انهيار الرمال مالبث أن اشتد وصحبه صوت مدو يصم الآذان : وأخذ الصوت يقترب ، ثم إذا بريح قوية تلفح الملك فتلقيه على الأرض . وكان الصوت يزداد دنوا وارتفاعا . وفجأة أحس بشىء يهفو به بسرعة خيل عادية ، فلما أفاق إلى نفسه تبينة جلموداً هائلا ينحدر إلى سفح الجبل . لم يصب الملك بغير خدوش فى ذراعه اليمنى . وأقبل « بك » ورجال البلاط يهنئونه بنجاته من الموت، فكان ينظر إليهم ذاهلا دون أن يراهم . أحس بقلبه يدق كالمطرقة وبرأسه يغلى كالمرجل. وتملكه شعور غريب لم يكن يعرفه من قبل — شعور الرغبة فى الهرب من الحياة ، ونزوع إلى الاحتماء براحة الموت . لشد ماتمنى الملك فى هذا اليوم لو سقط الحجر على رأسه فحطمه .

منذ ذلك الحين وفكرة الانتحار تنمو فى صدر الملك حتى ملأت كل أقطار نفسه، وملكت عليه شعاب عقله أصبح هذا الخاطر يرافقه فى غدوره ورواحه، فإذا دجا الليل دلف معه إلى فراشه فيزود النوم عن جفونه. بدت له الحياة ناصلة تافهة لا أمل فيها يستحق العيش ، فكيف وهى تطالعه فى كل يوم بألم جديد وعذاب شديد ...

وفى هدوء الليل ، والناس هجوع والقمر ساج ، كان يحلو للملك أن يجلس فى شرفة حجرته وحيداً ، فينشد أبيات الشاعر القديم المجهول الاسم :

انظر : إن اسمى ممقوت ، أشد من رائحة اللحم الفاسد فى أيام الصيف الحارة

انظر : إن اسمى ممقوت ، أشد من رائحة السمك العفن ، وأكثر من تل من من الصفصاف ملىء بالأوز .

انظر : إن اسمى ممقوت ، أشد من زوجه تتراى عنها إلى زوجها أقاويل السوء

انظر : إن اسمى ممقوت ، أشد من فتى شهم ، قيل عنه لمن يكرهه إنه مزور على أبيه .

لمن أتكلم اليوم ؟ الناس شرهون . وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب .
لمن أتكلم اليوم ؟ فإن الذى يستفز غضب الرجل الصالح بأعماله الشريرة .
يعجب به الناس و يضحكون له كلما كانت خطيئته شنيعة .
لمن أتكلم اليوم ؟ إذ لا أحد يذكر الماضى ، ولن يفعل أحد الخير لمن أحسن إليه .
لمن أتكلم البوم ؟ إذ لا أحد فى سلام ، وفرح القلب لاوجود له
لمن أتكلم اليوم ؟ فإنى مثقل بالشقاء ، والخطيئة التى تحل بالأرض لاحد لها .
ألا مرحباً بالموت . . .

إن الموت أمامى اليوم ، كمثل المريض يتماثل ، وكمثل الذى ينزل إلى الحديقة بعد طول اقتعاد .

إن الموت أمامى اليوم ، كرائحة زهرة السوسن ، وكما يقبع الإنسان فى ظل شاطىء نهر رطب .

إن الموت أمامى اليوم، كطريق معبد ، وكما يثوب الرجل إلى زوجه الحنون .
ألا ما أهنأ الموت ...

إن الذى هنالك سيتربع كإله حى ، ويحاسب المذنب على الجرم الذى اقترفه
إن الذى هنالك سيقف فى سفينه الشمس ، ويتقبل أحسن القرابين ليقدمه إلى الإله الكريم .

إن الذى هنالك سيكون رجلاً عاقلا محفوفا بالتبجيل ، مصليا «لرع» حين يتكلم

إن الذى هنالك ستتبرأ نفسه من خبث الأرض ، ولن تطالعه شراهة البشر وغلظتهم.

— إلى أيها الموت الحبيب . . .

أسرع وانحدر بى إلى الغرب ، حيث يتحد جسمى بالأرض ، وترتفع روحى لتستريح . . .

هذا هو النشيد المحبب إلى نفس فرعون المسكين . . .

الفصل الثامن

من الطبائع ما لا ينشط إلا إذا طالعه الإخفاق ، على حين يضفى عليه الفوز خمولا واستكانة . فالنجاح لديه بلوغ للأرب . أما الاخفاق فهو الدافع والمثير ، يضرم نار غضبه فتحتشد له جيوش مواهبه .

كان هذا حال « بتاح موس » حين انصرف من لدن الملكة . لقد حمل طاقته جهداً عنيفاً وهو يحاول أن يملك عنان نفسه أمامها ، فلما خرج إلى الطريق انفجر مرجل غضبه ، فبدا كثورة أمه طامية مجتمعة فى فرد . والحق إن غضبة الكاهن كانت جبارة مرعدة ، أحس بها معبد آمون وترددت صيحاتها فى أبهائه ، حتى خيل للكهنة أن رئيسهم قد أصابه مس .

وبعد أيام هدأت السورة ، فخلفت وراءها عزيمة مرهفة إلى الصراع . وأحس الكاهن براحة غريبة وهو يقلب فى رأسه مختلف أساليب الكيد . وكأنما الشباب قد عاوده فغدا ذلك الفتى الطموح الذى هبط « طيبة » منذ سنين عدة ، ليبنى مستقبله وليكافح العقبات التى قد تعترض طريقه .

غير أن مشكلة اليوم تختلف عنها بالأمس . فأنظمة الامبراطورية المصرية لم تكن تمنع أى فتى مهما يتضع مولده أن يبلغ أسمى مراتب الدولة بكفايته وجده . فتمكن «بتاح موس» من أن يصبح رئيساً لكهنة آمون . ولكن دستور الدولة ، وطبيعة الشعب ، والديانة الرسمية ، كانت كلها تقف حائلا فى وجه من تحدثه نفسه بالمساس بالعرش المقدس . ولم يكن غرض الكاهن اليوم سوى هذا . وما دام المتربع على العرش عدوه اللدود ، فسيظل دائماً الصخرة التى تتحطم عليها أمانيه ، ما لم يتوصل بدهائه إلى أن يحل فيه ملكا من صنعه .

ولكن كيف ينال كاهن « آمون » من هذا الصرح المتماسك من العقيدة المتأصلة ؟ إنه وهو أقرب الخلق إلى الآلهة ، يعرف أن الفراعنة ليسوا سوى بشر كسائر الناس . وهو يدرك حق الإدراك أنهم عرضة للأخطاء ومطية للأهواء .

فإن الكهنة هم الذين أحاطوا العرش بهالة من التقدير ، وها هم أولاء يعانون النكران الأليم لحسن الصنيع . إذن فليسلب كاهن آمون العرش ما منحه إياه أسلافه من قبل . عليه أن يظهر للناس أن فرعون قد يخطىء ، وأن من واجبهم محاسبته على هذا الخطأ ، بل ومن حقهم أن يخلعوا من لا يرضون عنهم من الملوك. وكان أن أعمل الكاهن ذهنه فى الوسائل التى تمكنه من تحطيم أنبل ملك عرفه الوجود .

كانت الوسائل التى لجأ إليها « بتاح موس » فذة فى نوعها ، فقد قامت على فكرة لم تعرفها السياسة المصرية من قبل . كان الدستور المصرى فى هذا الحين هين المبنى ، إلا أنه متين الأركان . عرش سام يخلص له الجميع ، ووزراء وموظفون يتلقون سلطتهم من الملك ، وشعب أمين لا يعترض إلا عن طريق المحاكم المنبثة فى جميع الأقاليم . الملك يحكم والشعب يطيع ، لأن كلا منهما يثق فى الآخر .

« الشعب يشير والملك يطيع » ، « حكم الملوك منوط بإرادة الشعب » ، « العرش منصوب لخدمة الأمة » . . . هذه هى الصيحات الخافتة التى بدأ كاهن آمون يسرها فى آذان شعب طيبة . وهذه هى بذور الديموقراطية التى ابتكرها هذا الكاهن الماكر ، وراح باسمها يمهد الأمور لتحطيم خصمه .

ولأول مرة فى التاريخ عرفت مصر نظام الأحزاب . ولقد بدأ « بتاح موس » بأن عزل العرش وميز أنصاره . ثم راح يعمل على أن يكون له فى عقول الشعب صورة مستقلة مالبث أن أسماها « حزب الملك » . وأخذ فى الوقت نفسه يبث دعايته الأثيمة فى شعب طيبة ، مظهراً نفسه فى مظهر من سيخلصهم مما ستوقعهم فيه دسائس ملكة أجنبية وعجز ملك مخبول . وصار القوم يناقشون فى أمور الدولة على ضفاف النيل ، وفى ظلال البيوت . فلم تلبث أن تكونت الحلقات ، وتشعبت الآراء . حينئذ أدرك الكاهن أن فرصته قد سنحت. فأشاع خفية أنه قد تكون حزب يدعى « حزب آمون » ، يعمل على رعاية مصالح المصريين المعرضة للبوار . وأخذ دعاته يغرون القوم بالانضمام إليه .

أطلق كاهن « آمون » عجلة دسائسه تدور ، ولم يبق له سوى أن يقتعد معبده

فى اطمئنان إلى أن تينع الثمرة فيظهر بنفسه ويقطفها . غير أن طبيعته الإدارية المحكمة ، ورغبته فى ألا يترك شيئاً لرحمة الظروف ، تركته غير راض أن يدع الامور تسير على هذا الوضع . لحزب آمون حزب كين . وسيضطر إلى أن يبق كذلك مدة طويلة ، إلى أن يشتد ساعده ويجتمع له من الأنصار مايمكن الكاهن من الجهر به .

ولكن الحزب لايستطيع أن يصل إلى السلطة ، وهو لايعتمد إلا على كهنة أمون والمارقين من أهل طيبة ، بل يعوزه سند آخر يستطيع بواسطته أن يبلغ أغراضه بالقوة إذا لزم الأمر . ذلك أنه مهما تبلغ سطوة الرأى العام فى طيبة ، فالملك مستطيع أن يقضى عليها آخر الأمر بحد السلاح . فكيف يتمكن بتاح موس من أن يوفر لحزبه قوة تضارع قوة العرش ؟ قوة تستطيع أن تضع أمانيه موضع التنفيذ ؟ انطلق الكاهن يبحث وينقب .

سنحت للكاهن فرصته يوم أرسلت إليه الملكة القربان التقليدى، الذى اعتادت الفراعنة تقديمه إلى الإله آمون فى فترات موقوتة . ذلك أن حامل القربان فى تلك المرة كان القائد الشاب حور محب الذى كان موضع إعزاز الملكة وتقديرها فى هذا الحين.

وكان «حور محب» مملوءاً بالحيوية والنشاط اللذين يبلغان به حد العنف فى كثير من الأحيان . وكان القوم فى طيبة — وخاصة النساء — يعجبون بهذا العنف ويعتبرونه دليلا على فتوة صاحبه وشدة شكيمته . إلا أن شخصية «حور محب» كان بها ملمس ضعف خفى عرف كاهن آمون أن ينفذ إليه من خلاله . ذلك أنه كان شديد الطموح الى درجة تعميه فى كثير من الأحيان عن مبادئ الإخلاص ومقتضيات الأمانة، إن كان فيهما مايعوقه عن الوصول إلى أهدافه. ولذلك لم تكد تنقضى لحظات على مقابلة بتاح موس له ، حتى أدرك الكاهن أنه يواجه صنواً له يستطيع أن ينفذ إلى أدق همساته الباطنية .

بدأ كاهن آمون حديثه مع القائد بالإطناب فى المديح له ، والثناء الطيب على جليل أعماله ، فراح يقول :

— إننى أتتبع فعالك المجيدة مغتبطاً بها أيما اغتباط أيها القائد العظيم .

فقهقه حور محب ، وقال بصوت ينبض بغرور الفتيان:

ـــ عفواً أيها الكاهن الأكبر ، فما أؤدى إلا واجباً على نحو مصر

أخذ الكاهن يجرب حظ « ابتسامته العذراء » مع هذا الفتى الطموح ، فركبها على شفتيه ، ثم راح يقول :

ـــ كثيرون غيرك نسوا هذا الواجب يا « حور محب » . والحق أن وجودك قد أضاء قلبي بشعاع الأمل بعد أن كدت أيئس من صلاح الحال . فيجب أن تعلم أيها القائد أنك أمل مصر فى أن تستعيد سابق عزها .

ولم يكن الكاهن محتاجاً إلى أكثر من هذا القول ليذيب قلب القائد رقة وانعطافا . . لقد دخل حور محب على كاهن آمون وهو مافتىء منتشياً بخمرة الانتصار ، فقد قام بأهم دور ترتب عليه سقوط الكاهن . وكان بتاح موس يدرك هذه الروح ، فمازال يستدرجها فى مهارة مشعوذ حاذق ، إلى أن جردها من سمها ، ثم جعل ينفث فيها من معسول القول ماأحال السم ميلا ثم حبا خفيفاً .

ولم يكن أعرف من الكاهن بأن خطوته التالية هى أن يبذر فى صدر محدثه بذور التمرد والسخط على ماقدر له ، حتى يثير فيه غريزة الطموح التى لا تلبث أن تركبه المركب الذى يريده له ـــ مركب السعى الخفى إلى النهوض بنفسه فوق المستوى الذى وصل إليه .

ـــ أصدقنى يا « حور محب » إنك لاتجد من يحسن تقدير مواهبك فيجزل فى مكافأتك على الوجه الذى تستحق . وإنه لما يحزن نفسى حقاً أن أراك مغموراً وأنت أهل لأرفع منصب فى الدولة . إننى أكاد أجزم أنك من نسل أسرة ملكية إذ ألمح فى وجهك سمات الآلهة .

كانت مراجل الطموح قد اخذت تغلى فى صدر القائد الشاب ، فاخذ ينظر إلى الدنيا من منافذ شهواته ، وبدأ يفسر الحقائق على ضوء أطماعه المشبوبة . وشعر أنه أصبح على أبواب تطور عظيم وهو يجيب الكاهن قائلا :

ـــ إن أبى ينتسب إلى الفرعون العظيم « أمنمحعت الأول » الذى حكم مصر قبل دخول الرعاة . ولكن . . .

ولكن الكاهن لم يتركه يستدرك أو يفسر بل ابتدره بقوله :

ـــ أما قلت لك يا «حور محب» . . . إن نظرى لا يخطىء يابنى . وهأنذا أقسم أمامك بأن الآلهة قد اختارتك لكى تلعب دوراً مخالفاً لما تقوم به . وسوف تثبت الأيام صدق نبوءتى .

* * *

وانصرف «حور محب» من لدن كاهن «آمون» وهو أشد مايكون اضطرابا وقلقاً. كانت الأمانى ترتفع به حيناً حتى ليشفق على نفسه من الفرح ، ثم تعتاده نوبة من الخشية والتوجس ، فيمتلىء قلبه بالجزع على ماقد يسببه له طموحه من نكبات . ثم ماكنه هذه المهمة الأخرى التى اختارته الآلهة لها ؟ إن كاهن «آمون» إذا تكلم عن طوايا الآلهة ورغباتها فهو يتكلم عن علم لأنه أكثر الناس صلة بها . غير أن الكاهن لم يشأ أن يفصح عن مقصده بل تركه غارقاً فى لجج الفرض والتخمين آه لو يدرك الكاهن كم هو فى حاجة إلى معرفة هذه الرغبات الإلهية، حتى يستطيع أن يستوضح طريقه على ضوئها ، وأن يهيىء نفسه لتلبيتها . . .

وكان أن تواصلت زيارات «حور محب» السرية لكاهن «آمون» ، الذى صار يطالعه فى كل مرة بتدبير جديدة . فيوماً يدعى أنه سمع صوت «آمون» يقول له كذا وكيت. ويوماً آخر يحدثه بأنه وقع على ورقة بردية أثرية تحوى تكهنات نبى قديم، وأنها تومىء بوقوع تطور جليل الأثر فى الحكم ، يتم فى عهد ملكة تحكم بالوصاية عن فرعون فتى . ويوماً ثالثاً يجمع الكاهن خيوط إيماءاته ومداوراته فى حديث منطق عذب يجنى به ثمرة إعداده الطويل، ويدفع فريسته خطوات فى السبيل المقصود، ثم يستأنف نسج حيل أخرى منمقة فيغرى دميته بخطوة أخرى . وهكذا لم تنقض أشهر قليلة حتى فتن «حور محب» بسحر الكاهن وصار ألصق به من أخلص أتباعه .

وكان اليوم الحاسم حين تمت المحالفة بين رئيس الجيش ورئيس الديانة ، على أن ينضم الأول الى حزب «آمون» ومع موالاته إظهار الإخلاص لفرعون والملكة حتى لا يدرك أحدهما من أمر مروقه شيئاً . أما الالتزام الذى يقع على عاتق «حور محب» بمقتضى هذا التحالف فهو أن يعمل على إثارة الجيش على

فرعون تدريجا ، حتى إذا جاء اليوم الموعود انقلب عليه. ولم يكن من هذا الالتزام سوى تنصيب « حور محب » على العرش بدلا من فرعون المخلوع .

وقال له الكاهن وهو يحاوره :

ــ لا أظنك حينئذ ناسيا مركز الإله « آمون » ووجوب صدارته على كل المعبودات الأخرى غير منازع . وما أظنك كذلك حارمه خيرات المستعمرات المصرية التى صارت اليوم لا تأتينا فضلاتها إلا بتسمح من كاهن « رع » .

فانطلق القائد يسرف فى الوعود ويقول :

ــ ثق ياأبتاه أننى سأقتلع معابد رع من جذورها ، فأشرد كهنتها وأصادر أملاكها . ولن تعرف مصر إلها غير آمون ، ولن تعرف القوافل الآسيوية طريقا غير الطريق الموصل إلى معابده المقدسة .

ابتسم الكاهن وقال :

ــ حسنا ياصاحب الجلالة . وعد الملك ملك الوعود ...

الفصل التاسع

أمضى الملك ليلة مضطربة لم تفارقه فيها أحلامه المزعجة . وأحس حين اعتدل في فراشه بألم شديد في صدره ، فشرب جرعة ماء وبقي متكئا يحدق في لوامع الفجر الأولى وهي تتماوج على رءوس الأشجار . كان منظر الشروق أعظم مايفتن الملك من مشاهد الطبيعة ، وإنه ليحس بالراحة إليه حتى في عهده المضطرب هذا الذي سلب فيه كل متعة . أخذ يرنو في نوع من الرهبة والاستمتاع إلى خد الأفق وهو يتورد تدريجاً بمثل خجل العذارى يفاجأن في الخدور .

بعد برهة ستبرز الشمس مستحيية من عشيقها الأرض . ولكنه سيسجد لها ثم يطلق من فم كل مخلوق من كائناته أهازيج البشرى والترحيب . وما تلبث أن تمتلىء الشمس غروراً وصلفا فتصعر له خدها حتى تصليه بنارها . ولكن إلى حين فالأرض الأبية لاتطيق الإستعباد . وتنظر الشمس ما الخبر ، ثم تنزل من عرشها السامى تلتمس التوبة . إلا أن الأرض لا تزال تعرض ؛ وحين تضيق الحيلة بالشمس ، تجثو في المغرب عند قدمى عشيقها الأرض ، وقد احمرت مقلتاها وانتفختا من طول العويل . . .

هذه قصة حياة الشمس ، فما سيرته هو ؟ ؟ لقد ماتت زوجه الأسيوية منذ عام ، وبعد أيام ستحتفل الأمصار بزواجه من أميرته نفرتيتي . فهل هو خليق بهذا الزواج الجديد ، أم أنه يرتكب من هذا الطريق جريمة أخرى ؟ ألم يكن هو المسئول عن وفاة زوجه الأولى ؟ ألم يكن قاتلها ؟ لقد كان أعلم الناس بمصدر علتها ، ولكنه مع ذلك ترك الزهرة تذوى وتموت . ويحدث نفسه بأنه لم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً . حسنا . فلم يتزوج ثانية فيكون سبباً في داء جديد ليس له عنده دواء ؟ .

حقاً إن نفرتيتي سلكت حياله مسلك الشمس مع الأرض ، فأصبحت أكثر توددا وإلحاحا ، وصارت تحبوه من مظاهر عطفها وحنانها بما لم يعهده فيها من قبل . كما أنه لايزال على حبه القديم لها فما فترت عاطفته . ولكن ألم يكن يحسن به أن

بجالد هذه النوازع جميعها فلا يجعلها تؤثر فى الحقيقة التى يدركها حق الإدراك — تلك الحقيقة الرهيبة من أنه لم يعد يصلح لنفسه ولا يصلح لغيره ؟

استقام الملك على قدميه ، ولكنه مالبث أن تهالك على الفراش ، إذ شعر بأنه منحل القوى، لاتقوى رجلاه على حمل جسده النحيل . واضطرمت فى صدره ثورة شديدة على نفسه وضاق بها أيما ضيق . أما لهذا الشقاء من نهاية . . .

استراح برهة ، ثم قام متهالكا إلى سفر على منضدة قريبة، أخذ يقرأ فيه حتى لا يدع لأفكاره المعتمة مجالا تستبد فيه بروحه الحائر . ولكنه لم يفهم شيئاً مما يقرأ، فأغلق السفر وأطرق . وسمع همهمة الكهنة من بعيد وهم يرتلون نشيد الفجر للإله «رع» الصاعد فى سفينه . ولكنه ظل على جموده إذ كان قد هجر الصلاة منذ عهد بعيد . وتمثلت له رؤى صباه كأنما تدعوه إليها فى عتب وترحيب . ألم يك سعيداً حينذاك ؟ ولكنه يقول لنفسه أنه كان سعيداً لأنه كان جاهلا . ثم يغلب على هذا التفكير هاتف خفى ينادى فى أذنيه بأنه كان سعيداً لأنه كان كاملا ، أما اليوم فهو مبتور مشوه . وتعصف به نفسه من جديد .

أتاه الخدم بطعام إفطاره فشرب كوباً من اللبن ولم يمسس غيره . ثم ارتدى ملابسه وتوجه إلى مخدع والدته يسأل عنها إذ كانت متوعكة هابطة القوى منذ أيام . كان يعلو وجه الملكة صفرة تميل إلى البياض . ولم تكن هى الأخرى قد استراحت إلى نوم هنيء . انقبض صدر فرعون حين لاحظ بوادر الهرم تتجمع حول عينى والدته وتسلب اللون من شفتيها . وراحت تحدثه عن سفير قادم اليوم من بلاد الصومال وفى ركابه قافلة محملة بأنفس السلع ، وأوصته بأن ينوب عنها فى مقابلته والترحيب به . ماله وللسفراء والحكام . . . لقد ترك زهرة زوجته تذبل وتفنى . أفلم يكن قد ترك من قبلها زهرة أنبل وأعظم هى مصر ! ولكنه طمأن والدته ووعدها خيراً ، ثم هبط إلى حديقة القصر .

بدت الحديقة لناظريه فى هذا اليوم ضيقة مملة ، فتركها واتخذ سمته صوب الحقول . ومر فى طريقه بشوارع طيبة ، فكانت لا تزال مقفرة إلا من بعض الصناع المهرولين صوب الضفة الشرقية للنهر، حيث يعملون تحت إمرة «أوتا» فى

بناء معبد الملك . ولكنه حين وصل إلى حدود المدينة ألفى الحياة فى الحقول قد سبقت حياة العاصمة بعدة ساعات . ولم يكن الملك معروفاً من الشعب فلم يلتفت إليه أحد .

أحس الملك بجفاف فى حلقه وعاوده ألم فى صدره فعرج على قرية قريبة يلتمس جرعة ماء . وما أن دنا من منازلها الصغيرة المتراصة حتى هب عليه نسيم رطب يحمل فى طياته رائحة طالما أحبها : رائحة الحطب المحترق تخالطها رائحة خبز الذرة الساخن . ولسبب مجهول لديه شعرت نفسه براحة لطيفة لم تعهدها منذ سنين ، فوقف هنيهة يملأ صدره بهذا الشذى المحبوب . وبرزت فى باب بجانبه فتاة صغيرة تحمل حطباً فسألها شربة ماء ، فاختفت برهة ، ثم أحضرت له جرة أخذ يكرع منها بنهم . فلما روى ظمأه ناولها الجرة فى تردد لم يغب الفتاة ، فسألته أهو فى حاجة إلى شىء آخر .

ابتسم الملك وقال لها :

ـــ لقد خرجت من منزلى ولم أتناول سوى كوب من اللبن ، فلما شممت رائحة خبزك شعرت بالجوع . غير أننى لا أملك دراهم ، ولذا . . .

قاطعته الفتاة مبتسمة :

ـــ لا بأس أيها المسكين . أصبر قليلا وسآتيك برغيف .

عادت الفتاة بالرغيف ، فاختطفه الملك وراح يقضمه بنهم وهو سائر إلى جوارها . والتفتت إليه الفتاة بعد لحظة وقالت :

ـــ يظهر أنك لم تتناول طعاماً منذ مدة طويلة أيها الرجل الصالح .

خجل الملك من ملاحظة الفتاة فانقطع عن الأكل ثم قال :

ـــ أجل يا ابنتى . إننى لم آكل منذ مدة طويلة .

وارتاحت إليه الفتاة فأخذت تحاوره :

ـــ وكأنى بك لم تشرب لبناً كذلك ؟

ازداد خجل الملك ، فراح يؤكد لها أنه شرب لبناً قبل أن يبرح منزله . ولكن الصبية لم تكن لتقتنع بتوكيداته وهى تراه قد أوشك على التهام الرغيف فى ومضات عين ، فقالت له ضاحكة :

ــ إن كنت قد شربت لبناً فلم يكن ذلك فى منزلك أيها الرجل الصالح .

أدرك الملك أن الفتاة قد اعتبرته شحاذاً محترفاً فاحمر وجهه وأطرق . وكأنما أحلت الصبية بأنجانة فأخذت تخفف عنه وطأتها قائلة :

ــ إن والدى يمتلك هذا الحقل القريب . ولقد سمعته يقول إنه فى حاجة إلى عامل يساعده على جمع القمح ، فلا بأس أن تتقدم إليـه ، وسوف أخبره أننى رأيتك تعمل فى حقل مجاور بنشاط وكفاية فلا يبعد أن يقبل طلبك .

أحس الملك وهو يستمع إلى الصبية بسعادة خفية ترقص فى قلبه ، فابتسم لها وقال:

ــ ولـكنك ترين يا ابنتى أننى ضعيف لا أقوى على عمل الحقل الشاق .

ــ لا تهتم بذلك يا أبتاه . فأنت طيب القلب . وسوف أحضر إليك كل يوم أؤازرك فى عملك .

وأشارت الصبية إلى رجل متكىء إلى جذع نخلة فهمست فى أذنه قائلة :

ــ هذا هو أبى . فـكر فيما قلت لك وعد إليه بعد حين فسأكون فى انتظارك .

ثم شدت على يده فى حرارة وانطلقت تعدو صوب أبيها .

وقف الملك واجماً وقد اغرورقت عيناه بالدموع . لقد ولد فيه عطف هذه الفتاة الطهور شعوراً بالمحبة والرضا ، فاض بهما قلبه حتى لم يعد قادراً على احتمال تفجر سيلهما المطرد . كأن ينابيع من الحب والغبطة قد انبثقت فجأة فى أحشائه ، فغمرته بفيض من السعادة لم يعرفه منذ سنين . لقد أشفقت عليه هذه الصبية وهى لا تعرفه ، وأحبته دون أن تدرى من أمره شيئاً . ها هى صبية كالزهرة البيضاء لم تجد فيه هذا الغول البشع الذى يراه فى نفسه ، بل لقد أروته وأطعمته ثم حاولت بعد ذلك أن تشاركه أعباءه . ما أسعده . . .

استولى على فرعون شعور غريب لم يدرك كنهه . كأنما كان نائماً واستيقظ . وكأن العالم المنبسط أمامه الآن ، هو غير العالم الذى عاش فيه منذ لحظات حين كان غارقاً فى أحلامه القاتمة . وأحس برأسه تدور كالطاحون ، فظل واقفاً لا يتحرك وهو يحدق فى غير شىء . وهب عليه نسيم رطب صافح جبهته المتقـدة فى رفق فصحا من غشيته ، وبدأ يسير فى ظلال الدوح المتمايلة . وأحس بالتعب يعاوده فتوجه

إلى ساقية وجلس فى ظلها ، ثم أسند ظهره إلى جدارها وأغمض عينيه .

مضت لحظات والملك على حاله لايتحرك . وأخيراً اعتدل وفتح عينيه ولكنه لم يكن يدرك مايبصر ، فقد كان مابرح يتابع أفكاره المتلاحقة . ثم بدأ يتأمل المشهد المعروض أمامه ، فانتقل ببصره من الساقية الخربة إلى الغدير الملتف حولها إلى شجرة الجميز الحانية فوقها . ورأى عن يمينه دجاجة رقطاء تمشى بحذر ووجل فتتقدم برجل ثم ترفع الأخرى ، فلا تخطو بها حتى توجه أذنها صوب الطريق تتسمع الخطر . وظل يرقب حركاتها العنيفة المفاجئة ساعة، ثم أجفل فجأة إذ هبط عليه شعور غريب .

لم يكن الملك قد أتى إلى هذه البقعة من قبل . هذا أمر يستطيع أن يجزم به من غير تردد . ولكنه أحس مع ذلك إحساساً صادقاً بأنه قد سبق أن وجد فى هذا المكان قبل اليوم . وخيل إليه أنه يذكر سائر معالمه بكل ماتحوى من تفاصيل. حتى هذه الدجاجة الوجلى التى تقدم رجلا وتثنى الأخرى ، لم تكن تنقص تلك الصورة التى حوتها ذاكرته عن هذا المشهد . ولكن عجبه لم يقف عند هذا الحد . فقد بدأ يشعر أنه قد وجد فعلا فى هذه البقعة ، ولكن فى زمن سحيق متناه فى القدم . وخيل إليه أنه يستطيع أن يتميز بعض الذكريات الغامضة الهفافة تهبط عليه من هذا الزمن الخارج عن نطاق حياته الراهنة . ولكن الذى سرب إليه الرعب أن إدراكه لهذه الذكرى لم يكن مقصوراً على المكان فحسب ، بل تعداه إلى الملابسات والمشاعر . فهو حين أتى هذا المكان للمرة الأولى كان يحس بمثل مايحس به اليوم ، وكانت تحيط به تلك الملابسات عينها ، وأنه جلس مثل جلسته الراهنة واستند إلى ذلك الجدار الخرب نفسه . فلم يكن شعور الملك كمثل شعور من يعود إلى مكان زاره من قبل ، بل لقد أحس بأنه يكرر أدق تكرير حالة تامة التفاصيل والملابسات كممثل يقوم بدوره مرتين .

وحينئذ شعر الملك أنه لم يكن حراً فى تصرفاته هذا اليوم ، وأنه لم يأت إلى هذا المكان لمجرد المصادفة ، بل كان مقوداً إليه بإرادة خارجية لا يملك لها دفعاً . وغمرته رهبة خفية إذ شعر بأن ثمة روحاً قدسية تهيمن على المكا

فتتجلى فى أوراق الشجر الجافة ، وفى ماء الجدول . وفى كل جسم وذرة تقع عليها عيناه . بل لقد هيىء إليه أن كل شيء يتكلم حوله بلغة مفهومة يستطيع إدراكها .

وفجأة شعر بطنين مدو يملأ آذانه فلم يعد يسمع شيئاً . وازداد الطنين فأصبح صفيراً مزعجاً اضطر معه الملك إلى أن يضع أصابعه فى أذنيه فما انقطع أو فتر . وشعر بغثاء يتصاعد من جوفه فيخمش حنجرته ويجفف لعابه ، حتى صار حلقه قطعة من خشب . وازداد تصبب العرق من جبهته وشعر بأن دمه يضطرم وأنه يندفع فى عروقه بسرعة خارقة .

ولم يكن ما أصاب جسده بغير أثر فى تفكيره . فقد كانت الخواطر تتوارد فى رأسه بسرعة مخيفة ، فلا تبقى فى الوعى سوى لمحة خاطفة ، ثم تترك مكانها لغيرها من السوانح وهكذا . ولم تكن بين هذه الخواطر رابطة ما، بل كانت كحديث زمرة من الناس يتكلم كل منهم فى موضوع مستقل ، ولا يجيب أحد منهم على أحد . هذه الشجرة قد تقع فى أية لحظة — ما معنى كلمة « استكانة » — إن « لسمنكرع » طريقة غريبة فى الحديث — أيها الناس لعمرى أنتم منافقون منافقون — ما أشهى الخبز الذى أكلته . . . وهكذا . . وخيل للملك أنه لو استمر تفكيره على هذا النحو مدة أخرى ليفقدن رشاده ولا يعودن إليه عقله . فحاول أن يتشبث بإحدى خواطره ، وأن يعمد إلى استبقائها فى وعيه فترة وإن قصيرة فلم ينجح . إذ كانت الخاطرة تفلت منه تاركة ورآءها غيرها ثم غيرها لاهوادة ولا رفق . امتلأ الملك جزعا ووقع فى وهمه أنها نهاية العالم . . .

بعد برهة انقطع الطنين وعاد إلى الملك سمعه . ومع ذلك ظلت الخواطر تطرد فى واعيته بتلك السرعة والتفكك . ولكنه بعد قليل اكتشف اكتشافا مدهشاً سر له . وجد أن هذه الصور التى بدت له أولا بغير رابطة ولا انسجام، يستطيع أن يدرك بينها صلة جوهرية عميقة تجمعها فى أساس مشترك . كأنما هذه الخواطر المتباينة هى ألوان الدنيا بأسرها، وكأنه عرف كيف يجردها من ظواهرها ليستبين فيها وحدة عنصرية لم يدركها فى ماضى حياته . ظهر لبصيرته خيط واحد يصل

كل معانى العالم المتنافرة ، وأدرك أن هذا الخيط الواحد هو سر الوجود الكامن فى كل مخلوق مهما يختلف مظهره

لم تلبث الخواطر بدورها أن خفت سرعتها ، ثم انقطعت أخيراً مخلفة وراءها سكونا شاملا وفراغا مطلقا . وشعر الملك أنه لم يعد يفكر فى شىء على الإطلاق ، فأسند رأسه إلى جدار الساقية وأغمض عينيه .

أحس الملك بقوة خفية تدفعه إلى النهوض فاستوى على قدميه . ثم شعر بأنه مقود بإرادة خارجية توجهه إلى حافة الغدير ، فأطاعها وجلس على الشاطىء مترقباً . لم يكن خائفاً فى ذلك الحين ، فقد اطمأن إلى هذه الإرادة وأحبها فألقى إليها عنانه ، متلهفاً لتلبية ما تأمره به . وفجأة أحس بأنه سيوحى إليه بعد لحظات بإجابة ما ، ووجد نظره مثبتاً فى ماء الغدير . فجلس ينتظر .

لم يكن ثمة شىء غريب فى مجرى الجدول . ولكنه بعد حين رأى عوداً من القش يجرفه التيار ، ثم توضحت فوقه جرادة دقيقة خضراء . بدا على الجرادة أنها تريد الوصول إلى الشاطىء ، فأخذت تقوم بمحاولات متكررة كانت تغير من اتجاه العود ، دون أن تحول بينه وبين مجاراة التيار . لشد ما اجتهدت فى الجدف بأرجلها لتصل إلى وجهة تريدها ، فما حفل بها الماء الجارى ، بل يشدها فى ركابه . وأسقط فى يد الجرادة فحاولت التعلق بأعواد العشب النامية على جانبى الجدول . هذا يومىء إليها فتمسك به كأن فيه نجاتها ، وذلك يبسم لها فتسرع إليه ، وثالث يغريها بمعسول الأمانى فتجد فى طلبه . وكانت فى كل هذه المحاولات تجتهد فى مغالبة التيار المتدفق ، ولكنه يزجيها فى طريقه فما يأبه بما تبديه . عجباً ! ألا تستطيع كل هذه الأعشاب المتكاثفة أن تنقذها من جبروت هذا التيار !

وأخيراً يئست الجرادة فأمسكت عن المقاومة ، وسلمت أمرها إلى التيار القوى الجبار ، مترقبة حظها فى استكانة . ياللدهشة ! هذا التيار الذى كانت تقاومه بكل قواها هو الذى أوصلها أخيراً إلى بر السلامة ، دون أن يتطلب منها جهداً ما سوى إلقائها قيادها له . لم ينفعها جميع ما توسلت به من عشب ، ولكن هذا التيار الواحد الأحد . السارى بين الشطئان كشعاع الشمس ، هو الذى كتب لها النجاة . لطالما

حاولت نكران جبروته والهزء بسيله الحيوى الدافق ، فلجأت إلى من هم دونه ، فما أنقذوها على كثرتهم . ولشد ماخاصمت نفسها وهى تجـالده وتقارعه ، فلما استسلمت له انحدرت بسلام فى مسربها المقدور، وصالحت نفسها بإخلادها إليه .

فطن الملك فبكى بكاء غزيراً وقلبه يطفح بالبشر .

وحين غادر مجلسه من الشاطىء ميمما ناحية القصر بحث فى حنايا صدره عن مصادر تعاسته فلم يجد لها أثراً .

لقد عاد « أمير الأحلام » المدينة من جديد ، ولـكنه فى هذه المره كان قلبه حاوياً لسر الله ، الإله الواحد الأحد الذى لاشريك له من تلك الأوهام البشرية النامية كالعشب الطفيلى على شطئان غدير الحياة .

الفصل العاشر

جلس الوزير «رع موس» فى قاعة العرش ينتظر مقدم فرعون . ولكنه لم يكد يستند برأسه إلى ظهر المقعد حتى هبط عليه النعاس ، فلم يكن الوزير معتاداً أن يحضر إلى القصر فى مثل هذا الوقت المبكر حين كانت الملكة «تى» تباشر تكاليف الحكم . ولكن الملك حين تولى بنفسه مقاليد المملكة فرض على موظفيه نظاماً صارماً دقيقاً كان أول من أخذ نفسه به . ولم يكن يقنع فى كل عمل يباشره بما دون الكمال ، كما كان يتطلب من معاونيه أن يسموا بوظائفهم إلى هذه المرتبة . ولهذا اضطر الوزير إلى أن يجهد نفسه إجهاداً لاعهد له به ، حتى يرتفع بمعرفته لأمور البلاد إلى الدرجة التى ترضى رغبات الملك . وما كان فرعون يقنع بعرض عام لسياسة الدولة ، بل لابد من أن يعرف أدق التفاصيل لما يعرض عليه من مسائل قبل أن يبت فيها برأى . لهذا كانت ساعات عمل الملك تمتد أحياناً إلى مابعد منتصف الليل ، فيراه رجال البلاط منكباً على أوراقه لاينى ولا يكل .

كان التغير الذى أصاب الملك بعد الوحى الذى نزل عليه وهو على شاطئ الغدير، تغيراً مفاجئاً دهش له القريب والغريب . هذا الفتى الخامل الذى كان يقضى أيامه منطوياً على نفسه فلا يقع عليه بصر إنسان ، رجع إلى قصره ذات يوم ، فإذا به شعلة من نشاط تعتمد على إرادة من حديد ، لقد انقضى عهد الحيرة والاضطراب إلى غير رجعة . وانقضى كذلك عهد تلك الأوهام التى كانت تصور للملك بأنه لم يخلق للحكم . لقد أرادت الأقدار أن يولد ابناً لفرعون، فعليه أن يلقى بنفسه فى تيار الحكمة الإلهية دون مناقشة أو معارضة . إن أنانيته القديمة هى التى جعلته يحاول أن يغلب إرادته على إرادة الأقدار .

دهشت الملكة لما رأته من تبدل حال فرعون ، ولكنها هونت من أمره ، وحسبته

بعض نزوات ابنها التى ألفتها منه . ألم يأتها ذات يوم يفضى إليها فى هدوء بأنه سيعتزل الملك ؟ أو لم تره يطلع عليها فى بعض الأيام مرتدياً مسوح الكهنة ، ثم إذا به مثال ينحت الصخور يوماً آخر ؟ وهى بعد ذلك تراه عربيداً يقرع الكأس بالكأس هو والأمير « تيتو » . . . إنه اليوم يقول إنه سيحكم . فلتتركه يحكم ما طالت به نزوته ، فقد يأتيها فى الغد قائلا أنه سيزاول تجارة العطور . لقد انقضى عهد وصايتها عليه منذ عام ، ولكنه تركها مع ذلك تحكم بنفسها دون أن تحدثه نفسه بانتزاع السلطة من يديها ، بل كان يهرب من القيام بأبسط المهمات التى تكلها إليه فهل تصدق أن من هذا حاله يستطيع الحكم حقاً أو يرغب فيه رغبة صادقة ؟

ولكن سرعان ما أدركت الملكة خطأ تصورها ، وعرفت أن الملك يعنى ما يقول . كانت الملكة مريضة حين بدأ يباشر سلطته بنفسه ، فلما أبلت من علتها رغبت أن تعود إلى مزاولة مهامها السالفة ، وأن تعامله باعتباره فتى يافعاً لا بأس بأن تشركه معها بين فينة وأخرى ، لتطلعه على أصول فن الحكم . ولكنها لم تتصور لحظة ان إبنها سيخلفها فى الحكم إلا بعد وفاتها . ودخلت عليه ذات مرة فى حجرة العرش فوجدته يناقش وزيره فى بعض المسائل . وحاولت الملكة أن تتخذ هيئة صاحب الأمر وأن تستقل بتوجيه الحديث ، فلم تجد من الوزير مطاوعة على مجاراتها فيما أرادت ، بل ظل يوجه كلامه إلى الملك وكأنه لا يشعر بوجودها . أما الملك فقد كان يقطع حديثه إذا تكلمت الملكة احتراماً لها ، ولكنه كان يصله على الأثر ، ويستغرق فى مناقشاته عوداً على بدء . ومرة حاولت أن تدلى برأيها فى موضوع أثاره الوزير فما كان من الملك إلا أن نظر إليها مبتسما وقال :

ـــ أظنك متعبة يا أماه . وإنه ليسرنى كثيراً ألا تتهاونى بصحتك فأخلدى إلى الراحة مطمئنة إلى أننى قد عقدت العزم على أن أحمل عنك كل الأعباء .

وكذلك كلما أرادت الملكة أن تظهر بنفسها فى ميدان النشاط السياسى ، ألزمها فرعون حدها بأدب ورفق بالغين ، ولكنهما يبينان عن عزيمة جبارة لا تملك لها الملكة دفعاً . ولم تكن الملكة وحدها هى التى تلين لعزيمة فرعون ، بل إن سحر إرادته النافذة شمل كل عظماء المملكة ، فلم يجرؤ أحد على معصية أمره . كان يأمر وهو

يبتسم ، ولكنه يشرف على تنفيذ ما أمر به بإرادة من نار . ولم تكن تخفى عليه خافية فيجوز عليه التمويه أو الإدعاء . وهو من بعد هذا كله فتى نحيل رقيق الصحة ، لم يبلغ منتصف العقد الثالث من عمره . وحين أدركت الملكة ألا فائدة من مناهضته فى حقه الشرعى ، عرفت كيف ترتد فى سكون لكى تقوم بدور الوالدة النصوح . ولم يجهل الملك مقدار ما تجشمته والدته فى سبيل ذلك من نكران نفس ، وهى التى درجت على حب السيطرة منذ تزوجت أباه . لهذا دأب دائماً على أن يستشيرها فى معظم الأمور . لكى يصور لها أنها ما برحت ذات رأى فى توجيه دفة الحكم .

كان أول ما فعله الملك حين عاد من جلسته بشاطىء الغدير أن أرسل فى طلب صحبه الأقدمين . ولما دخل « سمنكرع » القصر كانت أفكاره تلعب به كل ملعب، فقد انقطع عن زيارة الملك منذ مدة طويلة ، ولم يستطع أن يصل بفكره إلى علة استدعائه بهذه السرعة . إن الأمر خطير إذن .

وفى ردهة القصر وجد صديقه « مرى رع » الذى كان يرتاح إليه الملك ارتياحه « لسمنكرع » فى العهد القديم ؛ وكان « مرى رع » ابناً لأحد عظماء كهنة المعبود « رع » ، وهو فتى حاد الذكاء واسع الاطلاع ، أرسله رئيس كهنة « رع » إلى الملكة « تى » ، وسألها أن تقبله فى البلاط الملكى حتى يخادن ولى العهد، فيعلمه حب الإله « رع » ، ويبعده عن تأثير كهنة « آمون » .

ولقد دهش « سمنكرع » لرؤية « مرى رع » . فقد كان مثله من المغضوب عليهم فى العهد الأخير . وأقبل عليه وقد خالجه نذير سوء يسأله :

— ما الأمر يا « مرى رع » ؟

فهز الصديق رأسه وقال :

— لست أدرى يا « سمنكرع » ، فقد أرسل إلى فرعون يطلبنى ولا أعلم السبب .

— أتظن الملك قد أصيب بسوء ؟ لقد انتهت إلى فى الأيام الأخيرة إشاعات كثيرة عن ضعف صحته وتفاقم علة صدره .

وحين أهل عليهما الملك ورأيا بسمته التليدة تضىء وجهه ، وذلك السحر الخفى

الذى اعتادا أن يلمحاه فى عينيه ، خر كلاهما ساجدين ، ثم هرعا إليه يعانقانه يقبلان يديه . هذا هو حبيبهما السالف قد عاد إليهما. وكان الملك أشد فرحاً منهما، فظلت الدموع تسح من عينيه دون أن يستطيع لها كفا . وجرى بين ثلاثتهم حديث طويل إلى أن بدأ بقية صحب الملك يتقاطرون على ردهة القصر. فحضر «بك» وحضر النبيل « تيتو » وشاب يدعى «ماهو » كان الملك يثق بإخلاصه ثقة عمياء فعينه رئيساً لشرطته ، وحضر كثيرون غيرهم ومن بينهم . . . « حور محب » قائد الجيش الأعلى !

أطلع الملك صحبه عن سبب دعوته إياهم، وشرح لهم بقدر ما استطاع الرسالة التى أوحى له بها والده العظيم ثم أنبأهم بأنه قد اختارهم رسلا لنشر تلك الحقيقة الجديدة . قال لهم :

ــ أيها الأصدقاء . إن الحقيقة الأولى أصدق الحقائق . وإن «رع » الذى تجلى لى اليوم فى هيئة « آتون » هو أقدم آلهة مصر . فهو الإله الحق لأنه وجد منذ الأزل . ولكننا نرى اليوم عبادة « آمون » قد عدت على الدين الصحيح واغتصب كهنته مركز « رع » الممتاز لمعبودهم « آمون »، حتى صيروه على مدى الأحقاب المعبود الرسمى للدولة . ونحن جميعاً نعرف الأساس الذى تقوم عليه عبادة « آمون » . إنه الغش ، والكذب ، والدس فى الخفاء ، والتدلى بالخواص الإلهية المقدسة إلى مرتبة السلع يتاجر بها الكهان . وبهذا أخمدوا الوازع الدينى الذى هو أساس نهضة الشعوب ، إذ وجد الناس أنهم يستطيعون شراء سلامتهم فى الآخرة بالنقود. ولم يقنع كهنة آمون بكل هذه الشرور بل اجترأوا إلى عهد قريب على التدخل فى سياسة الدولة ، فكانوا يحكمون إلى جانب فرعون.

كان الملك يزداد حماسة وحدة كلما طال به الكلام ، فخرجت ألفاظه كالسهام تبحث عن فرائسها . ولكنه حين وصل إلى هذا الحد، صمت برهة ثم دوى صوته كالرعد فى أنحاء الردهة إذ صاح يقول :

ــ أيها الإخوان . هذا الحال يجب أن يقف عند حد . فكهنة « آمون » ليسوا أقوى منا . وإنى لهم ند شديد الضرب عنيد الصراع . وإن صيحتى التى أشيعكم بها هى أن ثوروا وحطموا . ثوروا على هؤلاء الكهان الأشرار ، وحطموا مفاسدهم

ولم تتبدد أصداء كلمات الملك من مسامع صحبه حتى انطلقوا فى الأرض يبشرون الشعب بحماسة متقدة . فلم تنقض أيام قلائل حتى كانت مصر بأسرها تردد صيحة فرعون . أما « حور محب » فقد انطلق الى أستاذه كاهن « آمون » يبلغه ماحدث.

كان نذير إعلان الحرب بين فرعون وبين كهنة « آمون » ، هذا المرسوم الذى أصدره يوم باشر مهام الحكم فمنع بمقتضاه الكهنة من التدخل فى سياسة الدولة ، وفرض لكل من يثبت عليه منهم أنه قام بأى نوع من النشاط السياسى عقوبة مزدوجة هى الحبس والتجريد من الكهانة .

أما أثر هذا المرسوم فى رئيس كهنة «آمون» فقد كان الصمت التام . لم يرفع هو ولا أحد من أتباعه صوتاً باعتراض أو احتجاج . ففرح الملك واعتقد أن ضربته نفذت إلى الصميم . أما الملكة « تى » فقد توجست خيفة وأدركت أن كاهن «آمون» لابد مبيت أمراً .

وسرعان ماظهرت نية « بتاح موس » ، فقد وصل إلى علم أعوان الملك المخلصين أن كاهن « آمون » بدأ يلعب فى الخفاء ، وأنه يحاول أن يشترى ذمة كثير من كبار الموظفين . ولم يكن الكاهن ينقصه المال لتحقيق هذا الغرض ، فقد كانت أوقاف المعبود « آمون » التى أرصدها له الفراعنة السابقون من الكثرة والاتساع ، بحيث تستطيع أن تمول مملكة بعيدة الأطراف . فإذا تمكن الكاهن من ضم كبار رجال الدولة إلى حزبه ، أصبحت سلطة الملك قائمة على أساس من الرمال المنهارة .

أحس الملك بأن الأمر بات خطيراً ، وأنه يتطلب العمل السريع . ولكنه ظل مع ذلك متردداً بعض الوقت . فهو من جهة لم يكن يستطيع أن يضمن إخلاص سائر موظفى الدولة المنبثين فى عرض المملكة ، ومن جهة أخرى أدرك أن العلاج الحاسم الذى يجتث هذا الخطر من جذوره ، قد ينبنى عليه رد فعل سىء لن يتأخر كاهن آمون عن التفنن فى استغلاله . وكان أن ساور فرعون اضطراب وحيرة . فيوما يعقد العزم على وجوب البدار ، ويوما آخر تتغلب عليه حكمة مستشاريه الكهول ، فيتراجع ويفضل التريث .

ولكنه فى أحد الأمسيات ، إذ كان يصلى منفرداً فى معبد القصر مناجياً ذلك

الروح الجميل الذى أخذ شعوره به يزداد على كر الأيام ، خيل إليه أنه يسمع همهمة غامضة لا يعرف لها مصدراً . لم يكن الصوت ذا مقاطع كما يكون الأمر فى لهجة الكلام ، ولكنه استمر فى طبقة واحدة كطنين الذباب . ولم يجز بخاطر الملك فى ذلك الحين أن ثمة روحاً يخاطبه ، بل كل ماشعر به هو أن تأملاته وكثرة تعبده، قد ارتفعا به إلى أجواء روحية أسمى من حياة الأرض ، وإن هذا الطنين الذى سمعه من قبل وهو بمنعطف الغدير ، لايعدو أن يكون الأداة المحققة لهذا السمو الروحى أو الظاهرة المادية له . إنه يصم أذنيه عن عالمه الأرضى، ويفتح قلبه لاستقبال أصداء نورانية . وحين انقطع الصوت أحس فرعون بأنه قد انمحى فى عناصر الكون ، وأنه يستطيع أن يتوضح سر كل الكائنات ، لأنه مندمج فيها . وكان من أثر هذه الوحدة مع الكون الأعلى أن تيسرت لناظريه الأمور ، إذ بات مستطيعاً أن يرقب كيف تتحكم فيها القوانين الإلهية ، وكيف تصرفها وفقاً للسنن الثابتة التى تحكم الكون .

كانت نتيجة هذه التجربة الروحية أن شعر الملك بأن عليه فى مستأنف حياته الإقلال من تعويله على تفكيره الخاص ، واللجوء إلى هذا الكائن السامى كلما طالعته مشكلة خطيرة تتطلب حلا ناجحاً . أما النتيجة المادية لهذه التجربة ، فقد تجلت فى المرسوم الجرىء الذى دهشت له مصر، حين عرفت فى صباح أحد الأيام بما أمر به الملك من تحويل ثلاثة أرباع أوقاف المعبود « آمون » لخدمة الإله الجديد « آتون » . صعق « بتاح موس » لهذا الإجراء الذى لم يكن يتوقعه من أكثر الفراعنة جرأة ، فكيف بهذا الفتى المريض . . . وأدرك كاهن « آمون » أول مرة أنه أمام خصم شديد البطش صلب الإرادة . وزاد فى خوفه أن الملك لم يكن من نوع الرجال الذين اعتاد مقارعتهم والتغلب عليهم . فهو ليس كوالدته الملكة « تى » ، ولا كمن سبقه من الفراعنة ، ولعله لا صنو له فيمن يعرف الكاهن من الناس . فهو قد طرح كل الأساليب السياسية العتيقة التى ينبغ فيها كاهن آمون ، وجاء بسياسة فذة لم تعتدها مصر من قبل . فاحترام التقاليد كان أول مبدأ سياسى واجتماعى واجب الاتباع ، أما الملك الحالى فلم يكن يهمه تقليد

ولا يقف فى طريقه وضع عتيق . كان ثائرا على كل شيء ، فتأتى قرارته قاطعة كحد السيف .

* * *

لم يطل انتظار الوزير « رع موس » فى حجرة العرش ، إذ مالبث أن صحا من غفوته فزعا على صوت باب الحجرة وهو يفتح بجأة ، والملك يتقدم من خلاله فى خفته ونشاطه اللذين أصبحا حديث المجالس فى طيبة . والحق إن الملك كان يبدو للناظر العابر كتلة من المتناقضات . فقد كان يرى وهو يصلى فى المعبد وقد استحال جسما متحجراً مستغرقاً لاينبض . فإذا مانزل إلى ميدان عمله اليومى أحسه موظفو الدولة كأنه أعصار سريع الحركة ، يظهر فى كل مكان ويباشر كل أمر . ولقد يرى فى ضاحية الكرنك يشرف على معبده ، فإذا به بعد لحظات متربع عرشه بالقصر الملكى ، يناقش وزيرا أو يقابل سفيراً ، ثم إذا به يشاهد قبل انتصاف النهار فى دار الحكومة ينتقل من مصلحة إلى أخرى ، والأعين ترمقه فى ذهول . ولقد راجت الإشاعات فى طيبة بأن الملك لاينام إلا ساعات ثلاثاً ، وأنه يقضى أحياناً أربعة أيام فى عمل متواصل لايذوق فى خلالها طعم الكرى وأصبح الملك على مر الأيام أسطورة جميلة يتناقلها الشعب بإعجاب ودهشة ، فنافس بذلك جده العظيم « تحتمس الثالث » .

حيى الملك وزيره واستفسره عن حاله ثم ابتدره سائلا :

ــ هل حضر كاهن « رع » الأكبر من منف ؟

ــ لقد وصل مساء أمس يامولاى وهو الآن بالمعبد . ولكن ياصاحب .

قاطعه الملك مبتسما :

ــ لكن ، لكن ، لكن . . ، لم هذه الخشية يا « رع موس » ؟ . أن العالم يسير باطراد ولم أر « لكن » هذه تعترض فلكه يوما ما . إنك تحب تعقيد الأمور ولعمرى إنها تتعقد حقاً إن سمحنا « للكن » هذه بأن تطل علينا برأسها كل حين .

أطرق الوزير حيناً ثم رفع رأسه قائلا :

ــ أنت شاب ياصاحب الجلالة وأنا كهل . ولقد علمتنى التجارب يامولاى أن

الرجال الذين يصلون الى أحسن النتائج ، هم الذين يعرفون كيف يلقحون حماسة شبابهم بحكمة الشيوخ .

انطلق الملك ضاحكا كبرعم يتفتح للندى وقال :

— بودى يا «رع موس» لو لقحت أنت حكمة شيخوختك مرة بحماسة الشباب. إن الحماسة ياعزيزى «موس» هى الإيمان ، والإيمان ينتصر فى كل الأحيان . فالإنسان وحده هو الذى يشيخ . أما الدنيا فهى على الدوام فتية نضرة لا يوافقها ماتدعوه بحكمة الشيوخ . فأنا إذا شعرت يوماً بأعراض « حكمة الشيوخ » هذه ، فسأدرك من فورى أنى بدأت أفقد صلتى بالحياة .

كان الوزير يدرك أنه لاطاقة له بمحاجة الملك فى رأى يذود عنه. ثم إنه لم يكن يرتاح، إلى مثل هذا الجدل الذى كان يزعزع مقاييس الحياة التى درج عليها، ويظهر حكمة تجاريبه التى اكتسبها على مر السنين بمظهر القصور والتفاهة . فالشيخ لايلذه أكثر من أن يدهش الفتيان ببارع القول ، وأن يفتنهم بما يكشف لهم من أسرار الحياة . وقد حسب الوزير أنه سيجد فى الملك الشاب مرتعاً خصبا لنصائحه وحكمه ، فإذا بالآية تنعكس ، فينقلب الملك معلما والوزير تلميذا يستمع .

ابتسم الوزير لمليكه وقال :

— لن أسمح لنفسى بمخالفة مولاى يوم عرسه .

قطب الملك وجهه، وجال فى الحجرة جولتين ثم تبوأ العرش وقال :

— آه لو أنكم وافقتمونى على رأيى فى أن يقوم رئيس كهنة « رع » وحده بمراسم الاحتفال . . . إننى أخون نفسى إذ أسمح بأن يشترك فى تزويجى كاهن إله زائف .لقد صرت أبغض هذا المعبود «آمون » حتى أصبح اسمى نفسه ثقيلا على سمعى لأنى أنتسب به إليه ، وأخشى أن أبغض نفسى من أجله.

والتفت الملك إلى وزيره سائلا :

— أتعرف يا «رع موس » لماذا أسمانى أبى «آمون حتب » مع أننى أنتسب بمولدى إلى الإله «رع» لا إلى « آمون » ؟

— أنت لاتدرك يامولاى مدى سلطة كهنة « آمون » ولاعظم نفوذهم . إن

والدك المجيد لم يكن يستطيع أن يسميك بغير هذا الاسم ، كما لم يستطع والده من قبل أن يسميه بغيره . وأنت ياصاحب الجلالة قد جئت أمراً عظيم الخطر حين صببت الحرب على كاهن آمون ، وحين أبيت إلا أن يشترك رئيس كهنة «رع» في عقد قرانك اليوم . هل نسيت يامولاى أن عاصمة ملكك هي طيبة موطن الإله «آمون» ومعبودها الخاص ، لا منف موطن الإله «رع» ؟

أطرق الملك وقال وهو يعض أنيابه :

ــ كلا يا «رع موس» لم أنس ذلك ، إن هذه الحقيقة شوكة في جنبي وقيد في يدي .

* * *

وقف الملك تحت الخيلة الفرعونية ، وإلى جانبه عروسه الفاتنة «نفرتيتي» يعرضان موكب الزفاف الملكي . وكانت طيبة ، قد تجاوبت فيها الأغاريد فرحاً بملكها ، فاحتشد أهلوها يهللون ويضحكون حول القيان والراقصات ، إلى أن بدأ الموكب الملكي في التحرك ، فكف الناس عن الصخب ، ووقفوا مبهوري الأنفاس محلقي الأعين . مرت الجنود بثيابهم الملتمعة ، وفي إثرهم العربات الملكية المشدودة إلى أكرم خيول آسيا ، وأعقبتها مواكب الأزهار ترقص من حولها الغواني الفاتنات . كل هذا في نظام بديع لم يشبه مايعكر صفوه . ولكن حين مرت محفة الإله «آمون» تحمل صنم المعبود المقدس ، ومن ورائها «بتاح موس» على رأس كهنته المتشحين بالسواد ، وقع حادث انعقدت له ألسنة الناس دهشة . ذلك أنه كان مشدوداً إلى محفة «آمون» عبد أسيوى موثق بالحبال ، هو الفدية التي ستقدم إلى المعبود شكراً له على هذا اليوم السعيد .

وكان قربان هذا اليوم فتى أشقر مفتول العضلات ، يسير خافض الرأس مثقل الخطى . ولم يكن القوم يشفقون عليه أو يرثون لحاله ، بل كانوا يصيحون ويهللون في وجهه ، وكأنهم يحسبونه سعيد الحظ لما سيناله من شرف التفدية بنفسه على مذبح الإله .

استمر قربان «آمون» سائراً في خضوع وهو يتأمل بأعين زائغة معالم

الأفراح الملكية، فيرتد بصره حسيراً حين يدرك أنه يسير فى موكب جنازته . فلما حاذى خميلة فرعون رفع وجهه فإذا به مخضل بالدموع . وفجأة جذب الأسير وثاقه فقطعه وأفلت من محفة « آمون » ، ثم جرى صوب الملك . فلما دنا منه انبطح على وجهه ساجداً وفرائصه ترتعد من فرط الرعب . جرى كل هذا فى لمح البصر فما استطاع أحد أن يفعل شيئاً ، بل وقف الجميع يحدقون فى دهشة . وحاول بعض حرس الملك أن يتقدم من الأسير ، فأشار إليهم فرعون إشارة ردتهم إلى أماكنهم .

رفع الأسير رأسه ونظر حوله بوجل ، فلما لم يجد من يتعقبه توجه ببصره إلى الملك والدموع تنهمر من عينيه فى سكون . أما الملك فقد جلس مكانه لا يبدى حركة ، بل أخذ يحدج الأسير وهو مقطب ، فلم يلتفت حتى إلى وزيره إذ انحنى عليه يسر فى أذنيه كلاما خافتاً . وفى وسط هذا الهدوء الشامل ارتفع صوت الأسير المتوسل قائلا :

ماذا جنيت يامولاى حتى يذبحنى الكهنة الذين خدمتهم بإخلاص . . .

حين سمع الأسير صوته يتردد فى جوف السكون المطبق ، تملكه الرعب إذ خيل إليه أنه هبط إلى عالم غريب لا يفهمه ساكنوه . ولكنه استأذن بعد برهة قائلا :

ــ لقد كنت أرجو أن تنتهى مدة أسرى بعد عام بمقتضى القانون الجديد الذى أصدرته جلالتك ، ففرحت ودعوت لمولاى . وكنت كلما تصورت فرح زوجى وعيالى بلقائى حين أعود إليهم بعد الغياب ، أكاد أصرخ من فرط السعادة. ولكنهم يريدون قتلى اليوم ، فلم هذا يامولاى ؟ ماذا فعلت . . .

وتغلبت الشجون على الأسير فأخذ ينتحب فى شدة عصفت بجسده . وفجأة أحس بيد تمر على رأسه فإذا بالملك واقف فوقه يبتسم له ويقول :

ــ لا تحزن أيها الأخ ، انهض إلى جوارى .

انكب الأسير على قدمى الملك يوسعهما تقبيلا ، ثم وقف بين يديه وما زال يرتجف . أما الملك فقد أومأ برأسه وصاح قائلا :

ــ فليستأنف الموكب السير .

بدأت الجنود تتحرك وفى إثرها العربات الملكية ثم مواكب الزهور. ولكن حين جاء دور محفة « آمون » رآها القوم ملتزمة مكانها لا تتقدم خطوة ، والكهنة من ورائها ماثلون . انحنى الوزير على الملك يهمس فى أذنه عوداً على بدء قائلا :

ـــ أتوسل إليك يامولاى أن تعيد الأسير إلى كاهن « آمون » . إنك تعرض نفسك لخطر عظيم ، « فبتاح موس » محوط الآن بكهنته ومن حوله شعب طيبة الذى يقدسه ويتفانى فى تلبية أوامره . إنه ممثل ماهر يا مولاى ويستطيع فى هذه اللحظة أن يصطنع ثورة تودى بنا جميعاً .

ولكن الملك لم يزد على أن هز رأسه فى هدوء وإصرار . كان كاهن « آمون » يرقب الملك ووزيره عن كثب ، فلما اتضح له إصرار الملك على فعلته ، تقدم إليه ببطء وهو عاقد يديه على صدره ، إلى أن وقف قبالته فانحنى له ثم استقام دون أن يتكلم . نظر الملك لحظة فى عينى الكاهن ثم قال له :

ـــ أتريد شيئاً أيها الكاهن المبجل ؟

تكلم الكاهن بصوت واضح النبرات ليسمعه أهل طيبه المحتشدون فقال :

ـــ قربان « آمون » يامولاى . إنه من حق الإله وليس من حق جلالتك .

وعلا صوت الملك كالرعد حين أجاب قائلا :

ـــ لن يكون لآمون قرابين من البشر بعد الآن يا « بتاح موس » . لا لآمون ولا لأى إله آخر . هذا أمرنا .

وعاد الكاهن يقول :

ـــ إن هذا العمل يا مولاى سيغضب إله طيبة العظيم ومعبود الدولة الرسمى . فالإله يريد قربانه ويجب على البشر ألا يعترض إرادته ؟

ـــ كأنك لم تسمع ما قلت يا « بتاح موس » !

ـــ إذن فمولاى مصر على تجريد الإله من قربانه ؟

احتبست أنفاس الشعب انتظاراً لإجابة الملك . أما فرعون فقد راح يحدق فى عينى الكاهن بنظرات من نار ، ثم ما لبث أن تراجع فى هدوء إلى مقعده تحت الخميلة فجلس عليه وصفق بيديه ثم صاح قائلا :

— فليستأنف الموكب السير .

ولكن الكاهن صرخ على الأثر قائلا :

— مولاى . إن موكب الإله لايستطيع السير بغير قربانه .

حينئذ علا صوت الملك يدوى فوق الجموع قائلا :

— وأنا قد أمنت قربان الإله . فإن كان إلهك لا يرضيه إلا أن ينهل من دم البشر البرىء ، فلست أبتغى رضاءه ولا أعبأ بنقمته .

لم تكن طيبة قد سمعت بمثل هذا القول من قبل . وقد حسب كاهن «آمون» أن تعلو همهمة الشعب ثم تنقلب إلى زمجرة طامية تكتسح أمامها الأحمر والأسود . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . إن الذى حدث هو عكس ما تصور الكاهن . فقد علت من الجموع أصوات استحسان وأخذوا ينظر بعضهم الى بعض فى ترقب ولهفة . والحق إن مسلك الشعب فى تلك الفترة كان مبعثاً للعجب الشديد . فقد كانت حاشية الملك نفسها لا تتوقع إلا ما حسب الكاهن . فكيف قبل الشعب أن يهان معبوده على مسمع منه فلا يثور له بل يتحمس لمن تسبب فى إهانته ؟ ألأن اتجاهات نفسية الجموع شىء غريب شاذ لايخضع لقانون ؟ أم لأن الجموع تلذها أعمال الجرأة فتغطى على شعورها بالمهانة ؟ أم يكون السبب أن الملك إنما عبر عن إحساس دفين فى صدر الشعب ؟ أم تكون حماسته وفتوته وهو يرعد للكاهن العجوز قد سخرتا الناس وحركتا فيهم نوازع البطولة ، فاندفعوا يؤيدون الملك بغير وعى منهم ؟

أسقط فى يد الكاهن ولم يبق أمامه إلا أن يجرد آخر سلاح لديه ، عله ينجح فى تحويل شعور الشعب . فهو يعلم أن الجموع بطبيعتها تشفق على المغلوب وتنتصر له . لهذا تقدم الكاهن من الملك فخشع أمامه ثم استقام قائلا فى صوت كسير يقبض بالألم :

ـ ليأذن لى صاحب الجلالة بالانسحاب .

وتراجع الكاهن إلى أتباعه وأشار إلى حاملى محفة الإله فاستداروا بها. وبدأ موكب آمون يسير عكس اتجاه موكب الملك . ولكن « بتاح موس » كاد يصعق حين سمع رد الشعب على حيلته ، فلم يكن غير الضحك والصفير . ها هو ذا قد أخطأ فى حسابه مرة أخرى . فبدلا من أن تصوره الجموع فى هيئة المنهزم المظلوم ، رأوا فيه الرجل الشرير الذى تغلب عليه بطلهم النبيل ، فشيعوه بما يستحق من زراية .

الفصل الحادى عشر

مضى عامان منذ أن هبط الوحى على الملك ، طرأ فى خلالهما على ديانته تغييران جوهريان ، كانا السبب المباشر فى تبدل أقدار الامبراطورية المصرية ، وفى توجيه حياة الملك إلى الطريق الفذ الذى سار فيه .

ظل الملك مدة طويلة وهو يعتقد إن ماأوحى إليه به ليس إلا مذهباً جديداً فى عبادة « رع » ، فاختصه باسم « آتون » أحد الأسماء الحديثة لإله منف ، ونشره بين أتباعه على هذا الوجه . واستمر مدة عام كامل وهو يجد فى المعانى الرمزية لعبادة « رع » مايكافىء مطالب مذهبه الروحية ، فقنع بأن يجتهد مع أصحابه فى تفسير مظاهر هذا الإله بما يلائم سمو الديانة الجديدة .

ولكن حدث منذ عام أن شعر الملك بإحساسات خفية تلعب فى نفسه دون أن يدرى لها كنهاً . واكتشف فى الوقت نفسه قصور ديانه « رع » عن مجاوبة الفكرة الملتهبة فى صدره . فهو حين وصل فى دراسته إلى البحث فى منشأ « رع » ، وجد أن هذا المعبود لم يكن إلا بشراً تأله فى قديم الزمان ، وحكم مصر حقبه مديدة ، ثم ارتفع إلى السماء وتجسم فى قرص الشمس ، وأصبح يشرق على الأرض كل يوم ، ثم يتركها فى الليل ليستريح . ولقد درج الملك على قبول هذه العقيدة قضية مسلمة منذ ولد . ولكنه وجد نفسه ذات مساء يتساءل عن قدر انطباقها على حقيقة الكون المحيطة به ، وهل هى تفسر كل مظاهر الطبيعة التى تتجلى لبصره كل يوم ؟

ظلت هذه الشكوك تساور الملك أياماً عده دون أن يجد لها جواباً . وخيل إليه أحياناً أنه لن يستطيع أن يجد لهذه المشكلة حلا فتزداد حيرته . حقاً لقد كانت تطيف برأسه رؤى غريبة يشعر بأنها صادرة من روح سام ، ولكنه لم يكن يدرى لها تفسيراً . وقصارى مافطن إليه أن هذه الرؤى أختارته هو عينه ، وأنها تومىء إليه للنهوض بعمل خاص .

ولبث كذلك حتى كانت إحدى ليالى الصيف الرطبة إذ سبقته زوجته الحبيبة

إلى مخدعها ، وبقى هو فى الشرفة بعض الوقت قبل أن يلحق بها . ظل قاعداً فى جوف الليل وقد انسرحت أفكاره فى مختلف الآفاق ، فتركها على سجيتها وأخذ يتابعها فى هدوء واستكانة . ووقع بصره على النيل المتألق حول طيبة ، ورأى الترعة التى حفرها والده لتجلب الماء إلى بحيرة الملكة « تى » الهاجعة قبالة القصر . وحدثته أفكاره بأنه إذا كان النيل العظيم إلها كما تعتبره العقائد المصرية فهل هـذه الترعة إله آخر ، أم المعقول أن تكون بعض آثار الإله العظيم ومظهراً من مظاهر سطوته ؟ إن النيل فى مقدوره أن يمنع عنها المياه فى أية لحظة ، فتصبح كالعود الجاف لا قدرة لها على الحياة . فهل يمكن أن يموت إله ؟ إن الشمس كذلك تضىء الأرض وتحرك الرياح وتنمى النبت ، فكيف يكون الضوء إلها والنبات إلها مع أنها جميعاً مسببة من أشعة الشمس ؟ والشمس هى الأخرى . . . إنها حقا أشرف الكائنات وأسمى مظاهر الطبيعة . إنها حقاً مصدر الحياة فى العالم ، ومبعث القدرة لمختلف المعبودات . ولكن أليس لها هى الأخرى مسبب يشرف عليها كما تشرف على غيرها ؟

وعلى حين غرة ، سطع فى ذهن الملك وهج أضاء له الحقيقة فأدركها فى طرفة عين ، كما فهم أيضاً مصدر الخطأ الكبير الذى وقع فيه المصريون منذ القدم ، وبنوا دياناتهم على أساسه . لقد خلط الكهنة بين معنيين متميزين هما الإله نفسه ومظاهر قدرته ، فحسبوهما معنى واحـداً ، ثم أقاموا دياناتهم على هذا الرأى القائل ، فراحوا يألهون النبت والريح والثور والهر ، ولم يستطع إدراكهم أن يسمو إلى معرفة المصدر الأول لهذه القوى الأرضية . وعلى مر الأيام ازدادوا إمعاناً فى الخطأ حتى أصبحت الديانة المصرية أعظم ديانات العالم تعقيداً ، وأخذت تتكاثر آلهتها كلما تمكن البشر من اكتشاف قوى جديدة ، حتى بلغت الحال هذه الفوضى التى يئس معها الناس من فهم دينهم — لأنه فى الواقع غير معقول — وأصبحوا يؤدون فرائضهم بطريقة تقليدية عمياء ، دون أن يعنوا باستكناه جوهرها .

أما الذى تجلى لفرعون فى تلك الليلة فهو أيسر شىء فى الوجود . إن الكون لا يحكمه سوى إله واحد لا شريك له ، وما جميع الآلهة المصرية سوى بعض مظاهر قوته . وهو إله قادر على كل شىء ، لأنه المبدع لكل القـوى التى أعجب بها المصريون فألهوها .

وكان من نتيجة إدراك الملك لهذه الحقيقة العلوية أن بدت له حقيقة أخرى هى نتيجة طبيعية للأولى . فقد خيل للملك أنه يرى على صفحة الليل البهيم عبارة كأنها مكتوبة بأحرف من نور : إن الإله ليس الكوكب الشمسى نفسه بل « آتون » هو اسم الإله والشمس هى رمزه الظاهرى . إن حراره الشمس المولدة للحياة هى الأثر الحى لقوة الله . أما « آتون » فهو سيد الشمس وسيد جميع الخلق إنه الدافع الحيوى الذى يسرى فى أوصال الكون ، إنه النشاط العبقرى المسيطر على جميع المخلوقات ، إنه روح المحبـــة والشفقة المنسابة فى الزمان والمكان ، إنه صاحب القدرة العليا التى يطيعها كل عظيم فى الكائنات وحقير . ليس قرص الشمس هو الإله . لأن الله لا هيئة له ولا جسد ، بل روح مجرد . قادر ، متناه فى الرفعة ، عظيم السلطان ، لا زمان له ولا حد لنبل طبيعته. إنه الخالق لكل شىء ولم يخلقه أحد ، لأنه المسبب الأول للعالم .

دخل الملك مهرولا إلى مخدع زوجته فأيقظها وأخذ يحدثها بما يفيض به قلبه واستمر يشرح لها ماخفى عليها من وحيه حتى إذا لمعت خيوط الفجر الأولى كانت الملكة أول من آمن بديانة زوجها الجديدة . ولم ينم الملك فى تلك الليلة فمضى فى الصباح الباكر إلى منزل صديقه «مرى رع» ، ثم أرسل فى طلب «سمنكرع» ، وبعد لحظة وافاهم بقية أصحاب الملك ومن بينهم « حور محب » قائد الجيش الأعلى . وظل الملك يبشرهم بديانته الجديدة بحماسة ووضوح وصدق يقين ، حتى استطاع أن ينفذ إلى قلوبهم فيلهبها بالإيمان . ولقد كانت مهمته مع خلانه أشق منها مع زوجته ، إذ لم يكن منهم من فكر من قبل فى احتمال أن يكون الإله واحداً وقد تشبعت أفكارهم بالاعتقاد بتعدد الآلهة . كانت الحقيقة التى يقولها الملك جد غريبة ، ومخالفة لما درجوا عليه منذ الصغر ، وما اعتقدته مصر والعالم منذ أقدم العصور . ولكن إيمانهم القديم بشخص فرعون ، وتلك الحرارة التى كانت تتفجر من كلماته فتنفذ إلى أفئدتهم كالسحر ، جعلتهم فى آخر الأمر لايقلون عنه تحمساً للدين الجديد . فلما تركهم عند منتصف النهار لم يكن بينهم من لم يؤمن بالعقيدة التى بشرهم بها سوى « حور محب » الذى تظاهر بالإيمان على حين كان قلبه قد أغلقته نوازع « الخبز والسمك » عن التأثر بأية حقيقة لاتتفق مع أطماعه .

غير أن تأثر الملك بالعقيدة التى أوحى إليه بها كان أشد مايكون قوة وعنفا .

أصبح لا يطيق أن يلفظ أمامه باسم أى معبود من المعبودات المصرية، وانصبت معظم نقمته على « آمون » إله الدولة الرسمى الذى يضم تحت لوائه كل المعبودات الأخرى ، فصار لذلك رمزاً للديانة القديمة بكل ماحوت من أضاليل.

لا عجب إذن أن كان أول عمل رسمى أتاه فرعون بعد اعتناقه لديانته الجديدة أن أصدر مرسوما يقضى بتغيير اسمه من « آمون حتب » إلى « أخناتون » أى روح آتون .

وكانت الخطوة التاليه التى انعقد عليها عزم « أخناتون » هى أن يأمر بإلغاء كل العبادات المصرية وأن يجعل عبادة « آتون » الديانة الرسمية للدولة . غير أن الملكة «تى» حين عرفت نية ابنها هرعت إليه مع الوزير «رع موس» وتوسلت إليه ألا يقدم على هذ الأمر الخطير الذى ستكون أهون آثاره إبعاد الأسرة المالكة من الحكم ، وقد يستتبعه نشوب ثورة داخلية عنيفة ، لا يبعد أن يترتب عليها سعى المستعمرات المصرية للانفصال فتخسر مصر ملكها وممتلكاتها . وكانت الملكة الوالدة تتكلم بحمية واندفاع وأخناتون هادىء منصت . فلما أتمت الملكة حديثها حدق فيها فترة ثم قال بصوت خفيض :

— إننى أعلم ياوالدتى أنك لا تؤمنين بديانة « آتون »

لم تتمالك الملكة الوالدة أن تخفى ابتسامة عبرت شفتيها . فقد كانت رأت فى ديانة ابنها رأيا اعتقدت أنه الأقرب إلى الحقيقة ، لأنها أعرف بابنها من أى شخص آخر . إن ماراح يبشر به ابنها فى طول البلاد وعرضها لم يكن ديانة حقه ، بل أوهام مريض منهوك الأعصاب . فلطالما جاءها فى الماضى عقب نوباته الصرعية يحدثها بما كان يتراءى له من رموز وأشباح . ولن تكون ديانته الجديدة إلا بعض هذه الرؤى. فإن من كان فى مثل حال ابنها من توتر الحس وإرهاف المشاعر تختلط لديه الحقيقة بالخيال ، فيحسب الحلم وحيا ، ويتهيأ له فى حفيف الأشجار نداء ومناجاة ، ويجعل من أتفه شئون الحياة رموزاً خفية لحقائق مجهولة ، ويتمثل فى سقوط فضلات عصفور على ظهر كفه رسالة إلهية أو مظهراً لرغبة علوية .

ولقد حدثها ابنها بما وقع له على حافة الغدير فعرفت مصدر وهمه ، وكادته

تمسكه من كتفيه فتهزه هزاً عنيفاً، وتطلب منه أن يهبط من آفاق تصوراته المريضة إلى بطاح الحقائق المادية الصلبة، فإن حكم الدول لا يعرف غير الحديد والنار.

ولكنها تهاب ابنها فعلا، ثم أنها وجدت فى اتجاهه الجديد ملهاة له عن أحزانه الماضية، فأظهرت اقتناعها بما حدثها به وشيعته بابتسامة أستاذ يرثى لمحاولات تلميذه الأولى. ولم يكن من بأس فى أن يتسلى الملك ببعض الصور والخيالات مادام مرجعها الأخير هو تأييد ديانة «رع». أما أن يبعد بها كل هذا البعد عن عبادة إله «منف» ثم يطلب بعد ذلك إلغاء العبادات المصرية العريقة التى أصبحت صلب المجتمع وعماده، فذلك خروج عن نطاق التلهى، ولن تتركه يقحم أوهامه فى تصريف أمور الدولة، بل عليها أن ترسم له الحد الذى يقف عنده.

غير أن الملكة الوالدة سرعان ماملكت مشاعرها فأسدلت حجاباً كثيفاً على أفكارها، وعادت تبسم لابنها فى حنان وتقول:

— من قال هذا يابنى العزيز؟

ولكنها شعرت بسهام نظرات الملك تنفذ إلى قلبها فتكشف عن خباياه، ولذا فقد اضطربت حين سمعته يقول:

— أنت تقولينه الآن ياأماه. إننى ألمح فى عينيك اتهاماً عريضا لى.

ثم التفت إلى وزيره قائلا:

— أنت أيضاً لا تؤمن «بسيد آتون» يا «رع موس».

ولم يكن الوزير المخلص يملك مهارة الملكة «تى» فى الادعاء، فقد اشتهر فى البلاط بأنه شديد الصراحة إلى حد العنف، حتى لم يكن يعبأ بتوجيه اللوم إلى فرعون إن ضاق صدره ببعض أعماله. لهذا قابل نظرات «أخناتون» فى هدوء قائلا:

— لقد صرت شيخاً أيبسته السنون ياصاحب الجلالة، ولم يعد قلبى من التفتح بحيث يملك أن يغير الدين الذى اعتنقه منذ صباه. إن دينى يامولاى هو مصر، وإيمانى الأول هو العرش، وهذان أضعهما تحت تصرف جلالتك.

سمع « أخناتون » حديث وزيره وهو مقطب ، ثم أطرق مرسلا نظراته الحالمة إلى غير شيء . وأخيراً فتح فاه قائلا :

ـــ ما أنا يا « رع موس » حتى تؤمن بعرشى ؟ إن أنا إلا أداة فى يد إرادة جبارة . ولو كنت تؤمن مثلى بسيد آتون ، لشعرت معى بأننى أقصر فى حق الإله بما أبديه من تردد فى تنفيذ رغباته .

غير أن الملكة الوالدة والوزير وفقا آخر الأمر إلى التغلب على إرادة « أخناتون » ، وخصوصاً بعد أن استشار « حور محب » فأخبره أنه لا يضمن إخلاص الجند إذا نشبت ثورة أهلية ، فاقتصر الملك على إصدار مرسوم يقضى بمصادرة أملاك سائر الكهنة الشخصية وبضمها إلى أملاك الدولة . وقد كان المقصود بهذا الإجراء هو « بتاح موس » كاهن آمون الذى كانت له ثروة واسعة . فقد تمكن الكاهن بعد أن جرد الملك عبادة « آمون » من معظم أوقافها من مواصلة نشاطه بفضل هذه الثروة . فكان لابد من حرمانه إياها حتى ينقطع كيده للدين الجديد ولو إلى حين .

والحق إن تدابير الملك كانت من الشدة والمباغتة بحيث أخذت « بتاح موس » على غرة ، فأفقدته ما عرف عنه من لطف الحيلة ودهاء السياسة . لم يعد ذلك المفكر الهادىء الذى يزن الأمور بحكمة قبل أن يخرجها إلى طور التنفيذ ، بل انقلب خلال فترة ما ، رجلا ثائراً محنقا لا قبل له بالصبر وتربص الفرص .

ما إن وصل خبر هذا القرار إلى « بتاح موس » حتى استدعى شريكه « حور محب » والأمير « تيتو » الذى تمكن الكاهن من ضمه إلى حزبه بوسائله البارعة . فقد كان الأمير « تيتو » كثير المطالب شديد الإسراف يبعثر المال بغير حساب . وكانت موارده معرضة دائماً للنضوب ، فكان يعمد إلى الاقتراض من أصدقائه ، فأوحى الكاهن إلى مساعده « حور محب » بأن يقرض الأمير ما يشاء وأن يزيد له فيما يطلب . واستراح الأمير إلى هذا المورد الكريم الذى لم يكن يضن عليه بمطلب ، فدرج على ألا يقترض من غير قائد الجيش . غير أن الدين مالبث أن تعاظم على مر الأيام حتى ثقل . وفجأة طالب « حور محب »

بدينه ، فأسقط فى يد الأمير ولم يدر ماذا يفعل . فقد كان فى إمكان دائنه أن يقاضيه أمام محكمة طيبة العليا فيجرده من سائر أملاكه . حينئذ ظهر كاهن آمون فى الميدان. ففى أول مرة قابل فيها الأمير « تيتو » أخبره بأنه قد وصل إلى علمه وقوعه فى أزمة مالية شديدة ، وأظهر له استعداده لمساعدته . ثم كانت مقابلات بين الأمير والكاهن التمع فيها وهج الذهب كما تجلت براعة « بتاح موس » فى التأثير والإقناع. ولم يكن « تيتو » بأقل أطماعا من « حور محب » ، فسرعان ماوجد فى ذهب الكاهن منفذه إلى الخلاص من ورطته ، وفى حديثه صدى أحلامه وأمانيه . وبعد وقت قصير كان « تيتو » ينافس « حور محب » فى التقرب إلى كاهن آمون والمسارعة إلى تنفيذ رغباته .

حين قدم «حور محب» و « تيتو » إلى الكاهن ألفياه على أشد ما يكون من الهياج . كان يذرع الحجرة جيئة وذهابا وهو يصيح شاتماً مهدداً . فلما هدأ حاله شيئاً جلس إليهما ، وأخبرهما بما انعقد عليه عزمه الحاسم ، وطلب منهما أن يساعداه فى تحقيقه . غير أنهما صعقا فى أول الأمر وتراجعا عن طاعته . فلم يكن مايطلبه الكاهن منهما سوى اغتيال فرعون مصر . غير أن ثورة الكاهن مالبثت أن حطمت كل اعتراضاتهما ، ثم لوح لهما بقرب تحقق أمانيهما ، فسرت عنهما خشيتهما على صوت نداء أطماعهما . وتدارس ثلاثتهم الأمر فلم ينصرفوا إلا بعد أن أتموا وضع خطة محكمة الأطراف مضمونة الأثر .

كان « حور محب » — إطاعة لنصح أستاذة الكاهن ورغبة فى تمهيد سبيل الوصول إلى أغراضه — قد عمد إلى التقرب من الأميرة « بزمت » أخت الملكة « نفرتيتى » والتى كانت تسكن معها فى القصر الملكى . وكان « حور محب » مليح الوجه ، فارع الجسم ، مفتول العضل ، فسهل عليه استمالة الأميرة التى مالبثت أن تدلهت بحبه وأصبحت لا تأبى عليه مأربا . ففى ذات يوم إذ مر بها فى إحدى ردهات القصر ، أسر إليها بأنه سيحضر لمقابلتها بعد منتصف الليل ، وطلب منها أن تعمل على ترك باب القصر الملكى مفتوحا حتى يستطيع الوصول إليها . وكان القزمان « بارا » و « رينو » يعرفان سر سيدتهما ، فطلبت منهما أن يشغل أحدهما

حارس الباب الملكى بحديثه ، على حين يفتح الآخر البوابة فى حذر حين يشعر باقتراب حبيبها .

وبعد منتصف الليل اقترب « حور محب » من القصر فوجد « بارا » ماثلا فى انتظاره ففتح له الباب وأدخله قائلا :

ـــ مرحباً بقائد الجيش الشجاع يتستر بالظلام ويعس فى الخفاء .

ضحك « حور محب » وأخرج من جيبه قطعة نقود ذهبية وضعها فى يد القزم وهو يقول :

ـــ إنه الحب يا بارا يجعل من الرجل امرأة ومن الشهم رعديدا .

وهم القزم بإغلاق الباب وهو يقول جريا على طريقته فى المزاح :

ـــ إذا كان الحب هو الجبن فإن الجبن هو الحب . ولا بد لذلك أن أكون غارقا فى الهوى إلى أذنى دون أن أدرى .

ولكنه قبل أن يقفل الباب دلف منه شبح طويل فانتهره بصوت خافت قائلا :

ـــ من تكون ؟

وهم بأن يصيح فى طلب معونة الحارس غير أن « حور محب » كم فمه بقبضته الحديدية وهو يقول له :

ـــ اصمت أيها الأحمق فإنه تابعى .

وبعد أن انقضت أكثر من ساعة عاد « حور محب » من مقابلة فتاته فوجد « بارا » ينتظره بالباب . وكان القمر قد غاب عن الأرض فتركها فى ظلام دامس. وقف القائد يتحدث إلى القزم برهة ثم نقده قطعة ذهبية أخرى . وحين هم بالخروج سأله « بارا » قائلا :

ـــ ولكن أين حارسك يا حارس البلاد ؟

فضحك حور محب وقال :

ـــ لقد خرج منذ لحظة أيها الأعمى ليعد لى مركبتى .

ولم يكن تابع « حور محب » قد خرج ، بل ظل مختبئاً فى حديقة القصر يترقب فرصته .

وفى الفجر هبط «أخناتون» درج القصر ثم وقف هنيهة يتأمل شروق الشمس. وتقدم فى مسالك الحديقة الملكية وهو يلمس بيديه الزهر فى حب وحنان كأنما يقرئها تحية الصبح . ورفع « أخناتون » بصره إلى السماء وتمتم قائلا :

ـــ يا الله . . .ما أكثر تنوع مخلوقاتك وما أجلها !

ثم انحدر صوب معبده القائم بطرف ناء من حديقة القصر . وكان تابع « بتاح موس » مختبئاً وراء دوحة ضخمة ، فلما رأى الملك يقترب منه ، رفع يده بخنجر مرهف تأهباً لطعنه. ووصل « أخناتون » إلى تلك الدوحة فوجدها تجيش بشتى الأطيار المزقزقة ، فضحك منتشياً وجلس تحتها ليستمع إلى صلاة العصافير.

ولم يكن تابع الكاهن يأمل فى فرصة أطيب من هذه . ومع ذلك فما أن هم بطعن « أخناتون» حتى شعر بأن قوى خفية تغل يده فامتلأ قلبه رعباً . وبينما يحاول التغلب على الجزع والاضطراب اللذين استوليا عليه ، إذا به يسمع الملك يقول فى صوت هادىء :

ـــ ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

صعق التابع وصاح من فرط خوفه ، ثم انطلق يعدو فى جنبات الحديقة . أما «أخناتون» الذى كان يخاطب كلبه المقبل عليه، فقد فزع من صيحة التابع ، وهم واقفا يستبين الأمر . وكان صوت التابع وعدوه قد نبها حراس القصر فجروا وراءه يلاحقونه ، حتى أمسكو به وأخذوا يشدون وثاقه .

وبينما كان رئيس الحرس يستجوب تابع كاهن آمون إذا به يسمع صوت الملك من ورائه يقول له :

ـــ فلتفك قيود هذا الأخ فإنها تؤلم يديه .

دهش الضابط وخيل إليه أن الملك غير مدرك لما يقول ، فراح يبسط له الأمر قائلا :

ـــ لقد رأينا هذا الرجل ياصاحب الجلالة يبرز من وراء الشجرة التى كنت تحتها . ولما قبضنا عليه وجدنا معه هذا الخنجر المسموم .

وقدم الضابط الخنجر إلى الملك فتأمله « أخناتون » لحظة ثم قال :

ــ أجل . . إنه مسموم

ثم التفت الى الرجل المقيد وقال له :

ــ أكنت تريد قتلى حقا أيها الرجل ؟

كان تابع «بتاحموس» يرتجف وجبينه يتقصد عرقا بارداً. وحاول أن يتكلم غير أن الخوف عقد لسانه ، فلم تصدر منه سوى تمتمة غامضة . ولما رأى «أخناتون» حال الرجل رثى له فتقدم منه ووضع يده على كتفه وهو يقول له :

ــ هون عليك أيها الرجل . فما من أحد هنا يريد بك شراً .

وأحس الرجل شيئا من الطمأنينة تهبط على قلبه ، فانحلت عقدة لسانه وانطلق يقول :

ــ أقسم لك ياصاحب الجلالة بأنى لم أرد قتلك . كيف أقتل فرعون ملك مصر وابن الإله ! أقسم بسيد آتون المقدس أنى مظلوم ياصاحب الجلالة .

وحين أتم الرجل توسله أخذ ينتحب ويبكى كالنساء . ثم انحنى يقبل قدمى أخناتون ويندبهما بدموعه ،أما الملك فقد التفت الى رئيس الحرس وقال له :

ــ حل وثاق الرجل ودعه ينطلق . لقد أقسم بسيد آتون فعلينا أن نصدقه .

واستدار « أخناتون » ومضى فى هدوء صوب المعبد . . .

الفصل الثانى عشر

كان لهذا التدبير الإجرامى الذى اتخذه « بتاح موس » أثر شديد فى نفوس أتباع فرعون. فإن مكائد الكاهن السلمية كانت تعتبر جزءاً من سياسة الدولة ، تستطيع أداة الحكم أن تدبر الوسائل اللازمة للقضاء عليها. غير أن التطور الذى انتهت إليه وسائل كاهن « آمون » الإجرامية جعلت الخطر يمتد إلى شخص الملك نفسه. فلم تكن الخناجر المرهفة إلا أهون أسلحة الكاهن رهبة، إذا قورنت بالسم الزعاف أو الأفاعى التى قد تضعها أيد خفية فى فراش الملك ، أو بنوع من الخفاش السام قيل أن الكاهن يقتنى عدداً منه ، وقد دربه تدريباً محكماً بحيث يستطيع أن يسلطه على فريسة معينة فلا يخطئها... أو بغير هذه من وسائل الاغتيال التى تناقلتها الأخبار وروجتها الاشاعات.

لا عجب إذن أن احتدمت ثورة رجال البلاط حين تطاير بينهم خبر محاولة الاعتداء على الملك ، فطالب بعضهم بإبطال عبادة «آمون» ، وأمر أتباع أخناتون على تقديم « بتاح موس » إلى المحاكمة توطئة لإعدامه. أما الملكة « تى » فقد عارضت كلا الرأيين سيراً على خطتها فى وجوب مراعاة الحذر الشديد فى كل إجراء يتخذ ضد كاهن « آمون » ، على حين اقترح الوزير «رع موس» إقالة « بتاح موس » من رياسة ديانة « آمون » وتعيين كاهن آخر مكانه.

وفى لجة هذه الثورة الفكرية العنيفة بقى « أخناتون » وحده مالكا لهدوئه وصفاء ذهنه ، حتى لقد رئى فى اليوم نفسه الذى وقع فيه الاعتداء راكباً العربة الملكية يخترق بها شوارع طيبة ، وإلى جواره زوجته الحبيبة « نفرتيتى » ، ألم يقل له أبوه إن المشكلات تحل نفسها بنفسها ، وإن أحكم الرجال هم أكثرهم صبراً...

وفى ذات مساء جلس فرعون خالياً فى إحدى حجرات القصر يراجع تقريرا ذا شأن. ومضى الهزيع الأول من الليل والملك لا يزال مكباً على أوراقه يدرس ويستخلص. فلم يشعر بشبح لطيف ينسل إلى الحجرة ، فما استوى وراءه حتى وضع

أصابعه الناعمة على عينيه وقال بصوت ملائكى :

ـــ أنا روح الإلهة « هاتور » .

ضحك الملك واحتوى اليدين الناعمتين فى كفه وأخذ يقبلهما بشغف ثم قال :

ـــ وماذا تريد روح هذه البقرة ؟

أجاب الصوت العذب قائلا :

ـــ تسألك هل هجرت زوجتك الجميلة وتزوجت أوراق البردى تقضى معها ليلك الأطول ؟

أزاحت صاحبة الصوت أوراق البردى من فوق المنضدة ، وجلست مكانها قبالة الملك وراحت تحدثه :

ـــ فيم كنت تبحث يا « أخناتون » ؟

ـــ إنه تقرير عن حال الفلاح رفعه إلى « سمنكرع » . أتعتقدين يا «نفرتيتى» أن هناك فرقاً عنصرياً بين الفلاحين وبين طبقةالسراة والأمراء ؟

تفكرت الملكة وقتاً فى سؤال زوجها ثم راحت تداعبه قائلة :

ـــ وهل تستوى أنت وسائر البشر يا « أخناتون » ؟

وضحك الملك ضحكة خافتة ثم أجاب !

ـــ لقد كنت أحدثك عن الأمراء يا « نفرتيتى » لا عن نفسى . إننى عنهم جد مختلف . . .

ـــ فأنت إذن لست ببشر ؟

أجاب الملك فى هدوء وثقة قائلا :

ـــ بل بشر يا عزيزتى .

ـــ عجباً . . . ألست ابن إله ؟ .

ابتسم الملك وأجاب قائلا :

ـــ وابن إله أيضاً يا « نفرتيتى » .

ـــ لم أعد أفهم يا « أخناتون ».

— إننى لست ابن إله لمجرد انحدارى من صلب فرعون ، ولـكن لأن روح الإله السامية قد تسمحت لحسرت لى اللثام عن حقيقة الوجود . فأنا أشعر بأنى متصل بهذه الروح صلة الابن بأبيه .

وأطرق الملك فترة طويلة ثم عاد يقول :

— لقد قلت لك إنى مختلف يا « نفرتيتى » . . مختلف عن البشر والفراعنة جميعاً . ولقد شعرت بهذا الاختلاف مذ كنت صبياً .

والواقع أن كل من خالط «أخناتون » كان يشعر بهذا الاختلاف شعوراً واضحاً. كان يوحى إلى الناس بالهيبة والاحترام ، لا فرق فى ذلك بين الصبى الأرعن والشيخ الذى يكبر فرعون بستين عاما . فهو دائما هذا الروح المتميز البعيد عن مباذل البشر ، تعرف بنفوس الناس فى حضرته أقدارها الحقة . فتخجل لقصورها ، وتتشوف إلى السمو بأرواحها . كان « أخناتون » كالمرآة الصافية التى تعكس للبشر صور زلاتهم وآثامهم .

ولم تكن « نفرتيتى » تشذ عن سائر الناس فى هذا الشعور . فكان حبها لزوجها يقترن دائماً باحترام بالغ يمنعها أن تسف معه فى عمل أو قول . ولـكنها مع ذلك كانت أقرب الناس إلى نفسه فكانت أجرأهم فى الطلب . ولذلك راحت تسأله .

— وكيف كنت تشعر بهذا الاختلاف فى صباك يا « أخناتون » ؟

وصمت الملك هنيهة حتى خيل اليها أنه لا يريد الجواب . ولـكنه ما لبث أن تكلم فى هدوء قائلا :

— كنت أحس بأنى فى واد والناس جميعاً فى واد آخر .

— ألم تكن تعرف سيد « آتون » فى هذا العهد ؟

ابتسم الملك ولم يجب . وطال به الصمت فانساقت أفكاره على عادتها إلى آفاق إلهه المقدس فبدا فى عينيه وميض غريب . . وميض يشعر المتأمل بأن عينى الملك قد غارتا فى أعماق بعيدة القاع ، تضطرب فيها عوالم غامضة لا يعلم كنهها سواه.

وحين يستغرق « أخناتون » هذه النشوة تهدأ كل حركات جسده ، حتى ليخيل للرائى أنه قد تحجر فصار كبعض تماثيل الفراعنة الأقدمين . أما عيناه فتتسعان ويثبت تحديقهما دون أن يطرف لهما جفن

صحا الملك من نشوته فجأة فأخذ يلهث مسرعا كأنما كان يصعد فى جبل وعر - ثم استراح إلى ظهر مقعده وأغمض عينيه وجد على هذا الجال . وكانت الملكة تشعر بالحيرة والخوف حين تحضر زوجها هذه الانفعالات النفسية . ولما طال جمود الملك تناولت يده فى كفيها وقالت فى صوت رقيق :

ــ مالك يا أخناتون !

ضغط الملك يد زوجه وقال وهو لا يزال مغمضاً عينيه :

ــ لقد هبط على خاطر فذ يا « نفرتيتى » .

ــ ما هو ياعزيزى ؟

نهض الملك من مقعده وأحاط خصر زوجته بذراعه وقال :

ــ سأحدثك به فى الغد . هيا بنا لننام ، فلم تبق سوى سويعات على شروق الشمس .

* * *

بقى « أخناتون » فى فراشه ساهداً مدة غير قصيرة وأخيراً هبط عليه نعاس خفيف لم يفقده شعوره بنفسه ، وبدأ يحلم . . .

رأى كأنما هو جالس قبالة نافذة صغيرة . ولم يكن يظهر من النافذة فى أول الأمر إلا رقعة سماء زرقاء ، ثم مالبث أن تميز فى وسطها عموداً قائماً لعله جذع نخلة شاهقة . وبعد قليل جاء صقر ملكى فحط على رأس النخلة وبين منقاريه عصفور أزرق جميل . ولم يبد العصفور مذعورا من الصقر بل كان يداعبه ويعابثه ، والصقر عاطف عليه . غير أن أفرع النخلة أخذت تجف رويدا حتى استحالت عصياً طويلة . وراحت هذه العصى تتمايل وتتلوى ، ثم رآها تتحول واحدة فى إثر أخرى حيات ضخمة مالبثت أن التفت حول جذع النخلة فأحاطت بالصقر من جميع جهاته . وكانت الواحدة منها تستطيل بجسمها فتهم على العصفور تريد التقامه . وخاف الصقر على كنزه فوضعه بين قدميه وراح ينقر رءوس الحيات

المتطاولة . واستمر على هذا الحال زمنا طويلا فما تقاربه حية حتى ينقر رأسها فيمتها . إلا أن الحيات تكاثرت عليه من كل جانب فأدرك أنه لن يستطيع محاربتها جميعاً ليدفع أذاها عن عصفوره الحبيب . أسقط فى يده . وأصبح فحيح الأفاعى يصم أذنيه وبريق أنيابها يزيغ بصره . ماذا يفعل ؟ وكأنما أدرك الصقر أنه ليس موثقاً إلى جذع النخلة فأخذ العصفور بين منقاريه برفق، وطار بعيدا عن النخلة وأفاعيها . .

ثم صحا الملك . أخذ يفكر فى هذا الحلم فترة ثم عاوده الكرى فرأى فى هذه المرة الصقر قد أصبح له جسد بشرى . وألفاه واقفاً على شاطىء نهر عظيم والعصفور ما انفك بين منقاريه . وبعد حين أتته سفينة منشورة القلاع فاستقلها هابطاً مع النهر صوب الشمال . وكانت السماء فى زرقة الزرع والنسيم الرطب يهب جميلا فيملأ بطون الشراع ويدفع السفينة فى رفق وأصرار . وظلت السفينة تنحدر مع النهر إلى أن صادفتها جزيرة خضراء أمامها منبسط من الأرض فى أعطاف تلال شامخة تحيط بها وتحرسها . هناك وقفت السفينه فقفز منها الصقر البشرى وأخذ يعما بمنقاره فى الأرض إلى أن أقام فيها معبداً فاتناً . فلما أتمه جاء بالعصفور ووضعه فيه ثم اختفى من ساعته . وعلا صوت العصفور مرتلا فجاوبته أهازيج الأطيار وأناشيد الرعاة من كل صوب .

* * *

وفى الصباح أخبر « أخناتون » زوجه بأنه سينتقل من طيبة إلى مكان مجهول فى شمال النيل ، إذ يشيد مدينة يخص بها الإله « آتون » .

وفى الضحى جمع أصدقاءه وأطلعهم بهذه النية ، فكان «مرى رع و «سمنكرع» من أكبر المحبذين لها ، على حين شذ « حور محب » والأمير « تيتو » عن إجماع صحبة الملك فعارضا هذا الإجراء بحرارة وشدة . وعجب « أخناتون » لمعارضتهما فقد كانت الهجرة بالديانة الجديدة إلى مكان مستقل بها ، هو الحل الوحيد الذى يقضى على كل المشكلات الحاضرة والمستقبلة دفعة واحدة . ولهذا التفت الملك إلى الأمير « تيتو » وخاطبه قائلا :

— لست أرى وجهاً لمعارضتك يا « تيتو » . أتظن أنك أحكم من سيد « آتون » الذى أوحى إلى بهذه الهجرة ؟

أجاب الأمير وهو يتلمس مادة لحواره :

— عفواً ياصاحب الجلالة . ولكن أليست عبادة سيد « آتون » ممكنة فى طيبة عاصمة الدولة على قدر إمكانها فى أى مكان آخر ؟

وبدأ الملك يحتد فتكلم فى شبه غضب قائلا :

— أنت تعلم جواب سؤالك يا « تيتو » . إن عبادة الله هنا لا يمكن أن تزدهر وسط سموم الأفاعى الملتفة حولها بالموصاد . ولذا أمرنى سيد « آتون » بأن أنجو بكنز الحق والجمال إلى بلد أمين لم تدنسه العبادات الزائفة من قبل . فالثمرة الجديدة لابد لها من منبت جديد يلائمها .

وتدخل « حور محب » ليدعم رأى شريكه فى الخيانة ، فراح يعدد للملك الأخطار والمصاعب التى تترتب على إقامة البلاط الملكى فى غير عاصمة البلاد، فإن مركز نشاط الدولة يجب أن يكون مقر الملك .

استمع « أخناتون » إلى حجج القائد والأمير فابتسم ولم يجب . ولكن ما كان أشد عجبه حين جاءاه فى اليوم التالى يعتذران عما صدر منهما بالأمس . وأخبراه بأنهما حين تدبرا الأمر على مهل ، أدركا خطأ رأيهما، واستبان لهما صواب رأى الملك . ولم يعرف « أخناتون » بطبيعة الحال أن السبب فى هذا التغيير الفجائى مرجعه ما لقيته معارضتها من غضب « بتاح موس » حين أبلغاه ما حدث . فقد أدرك الكاهن بصدق بصيرته أن انتقال البلاط الملكى من طيبة هو أعظم فرصة بها يجود الدهر . فهو يستطيع حينئذ أن يحيك دسائسه بعيداً عن عينى الملك الصارمتين ، ويصبح المجال أمامه خالياً لطعن « أخناتون » من الخلف دون أن يخاف أعين الرقباء .

أما الملكة « تى » والوزير « رع موس » اللذان كانا يفكران على نمط تفكير كاهن آمون ، فقد أدركا على التو مبلغ ما يترتب على مشروع الملك من أخطار . فعارضا بشدة وعارضا طويلا . وقالت الملكة « تى » لابنها إنه إذا أصر على هذه

الهجرة فستبقى هى فى طيبة . وقال الوزير إنه لا يستطيع أن يتحمل التبعة فى نقل عاصمة الملك ، وإنه إذا أصر فرعون على تنفيذ رأيه اضطر إلى تقديم استقالته . غير أن هذا جميعه لم يكن يثنى إرادة الملك عما اتجهت إليه . فلقد رأى الحقيقة واطمأن إليها ، ولن يمنعه من تنفيذ أمر الإله المقدس أب أ وأم أووزير.

وذات صباح من أيام الربيع استقل الملك السفينة الفرعونية ، وانحدر بها فى مجرى النيل صوب الشمال . وكان معه فى السفينة زوجه وبناته وصحبه وكبار موظفى الدولة . ولم يكن لأخناتون قصد معين يوجه إليه سفينته، فإن الوحى الذى نزل عليه لم يأمره بالانتقال إلى مدينة معروفة من مدن القطر ، بل صور له مكاناً بجانب النهر وبسط له سائر معالمه ، وكان على الملك أن يبحث عن هذا المكان .

ظلت السفينة تسير أربعة أيام متوالية . وفى المساء كانت ترسو على شاطئ النهر حيث يجتمع الملك بأصدقائه فيحدثهم عن إلهه سيد « آتون». وكان « سمنكرع » أصدق صحب الملك إيماناً ، وإن كانت طبيعته المنطقية التى تأبى التسليم قبل الاقتناع تدفعه فى كثير من الأحيان إلى محاجة « أخناتون » وكان موضوع المحاجة فى الغالب فكرة التوحيد التى يبشر بها الملك . كيف يكون الإله واحداً فى حين أن عبادة آتون مصرية صميمة تستمد أصولها من ديانة «رع» ! قال له الملك :

ـــ إذا كان الإله واحداً فكيف يكون خاصاً بالمصريين دون غيرهم من الشعوب ؟

أجاب « سمنكرع » الذى كان لايزال متأثراً بالمعتقدات المصرية القديمة :

ـــ إن كان الإله واحداً ياصاحب الجلالة فإن البشر متعدد . فنحن شعب متميز عن أهل آسيا وعن سكان الصومال . ولذا وجب أن يكون لكل واحد من هذه الشعوب آلهته الخاصة التى تلائم ملابساته وأرضه وطبيعة أفراده .

ـــ لا ياسمنكرع . إنما الإله واحد لأن البشر واحد . فسيد « آتون » هو الذى خلق الناس جميعاً وهو الذى فرقهم ألواناً وطبائع . فالإله الواحد هو الذى نوع البشر ، وليس لأنواع البشر المختلفة أن تعدد الآلهة .

وكان « بك » قد فكر كثيراً فى اختيار الصورة التى ينحت للإله تمثالا على هيئتها ، دون أن يوفق إلى ابتداع صورة يمكن أن تحوى مختلف معانى الديانة الجديدة . فلم يجد غير الملك يلتجىء إليه . وذات ليلة فاتحة فى الأمر فقطب « أخناتون » وقال

ــ أى تمثال « يابك » ؟

ــ ألسنا نتخذ لسيد « آتون » تمثالا يوضع فى معبده ليتقدم نحوه الناس بالصلاة والدعاء ؟

وكان ما يتكلم به « بك » هو التفكير الطبيعى لهذا العصر .

غير أن الملك ابتسم لصديقه وقال :

ــ إن سيد « آتون » المقدس واحد لاشريك له . وهو موجود فى كل مكان ولا يمكن أن يحوى عظمته وجلاله تمثال من صخر أصم . وليس الناس محتاجين إلى صنم يعبدون فيه الإله ، بل إنهم ليسوا فى حاجة إلى معبد يقيمون فيه صلواتهم . فالرجل يستطيع أن يؤدى صلاته فى الحقل أو فى المنزل أو فى الطريق ، مقتديا بما عداه من ضروب الخلق . فالطيور حين ترفرف ، والشياه حين تثغو ، والسمك حين يسبح فى الغدير ، والأزهار حين تفتح صدورها لأشعة الله القدسية ، والرمال حين تتهامس فى جوف الليل البهيم ــ كلها تصلى لخالقها وسيدها.

ــ وكيف يكون معبد سيد « آتون » إذن ياصاحب الجلالة ؟

ــ سأجعله فسيحاً مضيئاً يسبح فيه النور ، على عكس معابد « رع » و « آمون » .

وسيكون يسير البناء جميل النقوش كالزهرة ، ولن يحوى غير مذبح عال توضع عليه القرابين ، وتعزف فى أرجائه الموسيقى المقدسة حتى تكون تراتيل العباد جميلة فى أذن الله .

استمع « مرى رع » إلى كلام « أخناتون » وقد استغرقته نشوة قدسية . فقد كان أحب تلاميذ « أخناتون » إلى نفسه ، وأكثرهم تشبعا بتعاليمه . فما أن فرغ الملك من حديثه حتى ابتدره قائلا :

ـــ ولكن القوم ياصاحب الجلالة لابد لهم من رمز يعرفون به سيد « اتون » ليميزوه عن بقية المعبودات القديمة الزائفة .

أطرق الملك وراح يفكر . وبعد برهة طويلة رفع رأسه قائلا :

ـــ أنت محق يا « مرى رع » . لقد فكرت فى هذا الأمر من قبل ، واليوم حين كنت أتأمل الشمس المشرقة وهى تبعث الحياة فى أوصال الأرض الناعسة ، تجلت لى الصورة التى يجب أن تكون رمزاً للإله . فسيد « آتون » هو سيد الشمس ، والشمس هى مبدعة الحياة فى الكون ، ورسل الشمس إلى الأرض هى ينابيع أشعتها الحارة النابضة .

والتفت الملك إلى « بك » ووجه إليه الحديث قائلا :

ـــ فليكن رمز الإله يا « بك » هو قرص الشمس المتوهج ، تنبعث منه أشعة الحياة ، وتنتهى بأيد مبسوطة تغدق على الأرض الخير والحق والسعادة . . .

فى اليوم الخامس للرحلة شعر « أخناتون » بانقباض وضيق . فقد قطع بسفينته ثلثى الطريق بين طيبة وجنوب الدلتا ، دون أن يعثر بالمكان الذى صوره له الإله فى الوحى . أتراه كان واهما فتخيل من أضغاث الأحلام وحياً قدسياً ؟ واستولى على الملك شك قاتل فكاد يأمر الربان بالعودة ، لولا شعور خفى كان يحفزه على التقدم . لم ينم الملك فى تلك الليلة ، فغادر فراشه قبل مولد الفجر ، ووقف عند مقدم السفينة يتأمل أعلام الطبيعة الملتفة بظلال الليل . وعاودته شكوك الأمس فعض على أنيابه وأنشب أظفاره بكفيه . فلا شىء يسحق نفس النبى أكثر من تصوره أن إلهه قد تخلى عنه ، وأن ماحسبه وحياً لم يكن إلا بعض مكائد الأرواح الشريرة العابثة . وشعرت « نفرتيتى » بغياب زوجها فغادرت فراشها ولحقت به ، فوجدته مستنداً إلى سكان السفين وعيناه تدمعان . أخذت الملكة وجه زوجها بين كفيها وقبلت جبينه فى لهفة وهى تقول :

ـــ مالك يا « أخناتون » ؟

أدار الملك رأسه بعيداً وقال :

— إن نفسى حزينة يا « نفرتيتى » . يخيل إلى أننى أغضبت الله فلم أعد ابنه القديم الذى يحبه .

— ماهذا القول ياعزيزى . . . ألأننا لم نعثر بمدينة الإله بعد ؟

هز الملك رأسه وقال :

— لا أظننا سنعثر بها أبدا . . .

أحاطت « نفرتيتى » خصر زوجها بذراعها وضمته إليها قائلة :

— لا يا « أخناتون » . لا تيأس من رحمة « آتون » فهو لايتركنا إلا إذا وحنا نتشكك فى قدرته ولا نؤمن بصدق وحيه .

أحاط الملك خصر زوجه وهو يقول :

— نفرتيتى حبيبتى . . . لأنت شعلة من جمال الله . . . غنى ياعزيزتى تلك الأنشودة القديمة التى طالما أعادت إلى نفسى الأمل .

كان المعروف فى طيبة أن للملكة أعذب صوت يرتفع بالغناء ، وأجمل يدين تتحركان بالوتر . وانبعث صوت « نفرتيتى » فى جوف الظلام رقيقاً ، لطيفاً كالأحلام :

أيهـا الورد الجميـل
لا تبـح يوما بقـولى
اكتم السر الجليـل
فالظبـا تهتف حـولى
إنمـا القلب يميـل
نحـو معشوق مـدل

اهٔ لو يدرى الخليـل   منطق الورد الجليـل

كانت الملكة تغنى ورأسها مستند إلى كتف زوجها ، وهو يضغط معصمها كلما هاجه اللحن الساحر . ولكنها حين أتمت الغناء نظرت إلى زوجها فوجدته لاهياً عنها ، يحدق بإمعان فى شىء بعيد . وكان الضوء قد بدء ينشر ألويته تخلع على معالم

الأرض أردية منوعة الألوان ، وأخذت الأجسام تتضح وتتحدد . وظلت الملكة ساكنة ترقب زوجها ، فوجدته جامداً على حاله لا ينبض بحركة ما، سوى ماتشعر به من دبيب قلبه الملتصق بجسدها . ماذا دهاه ؟ وفيم يحدق على هـــذه الصورة الغريبة ! أيكون الوحى قد حضره وهو يستمع الآن إلى صوت سيده « آتون » ؟

ملأ الجزع قلب الملكة فتكلمت فى خفوت قائلة :

ـــ أخناتون . . .

ولكن الملك لم يجب ، وكأنه لم يسمع نداء زوجته . فوضعت نفرتيتى يدها على كفه فضغطته ثم قالت بصوت أكثر علواً :

ـــ أخناتون . . .

عرت الملك رعدة قوية كأنما أوقظ فجأة من نوم عميق . ثم تكلم دون أن يرفع بصره فقال :

ـــ انظرى إلى يمينك يانفرتيتى . انظرى . . .

قفزت الملكة وتعلقت بزوجها وهى تصيح :

ـــ هل وجدت المكان . . .

وضحك « أخناتون » بغير شعور منه ، وجعل يفرك كفيه ويقبلهما ثم يرفع بصره صوب السماء ويتمتم قائلا :

ـــ الله . . . الله . . . ما أشد شفقتك ورحمتك .

وأخيراً التفت إلى زوجته قائلا :

ـــ انظرى يانفرتيتى . . . هاهو ذا المكان المقدس ينبسط أمامى بسائر معالمه التى رأيتها فى الوحى . تأملى كيف تحيط التلال بالأرض المنبسطة من ثلاث جهات على حين يكمل النيل الدائرة التى ستبنى عليها مدينة الآلهة . سوف أسميها « أفق آتون » (آخت آتون) لأن فيها تلتقى الأرض بالسماء ، ويتصل البشر بجمال الله . . .

وعاد الملك يردد فى غير وعى قائلا :

ـ آخت آتون . . . آخت آتون . . . وجدتك أخيراً أيتها المدينة المقدسة . شكراً يا ألله . . . من كان يتصور أننا كنا نرسو طوال الليل قبالة المدينة ، فإذا لاح الصباح وجدناها منشورة أمامنا ترحب بنا . . .

وانطلق الملك يعدو فى أرجاء السفينة صائحاً :

« مرى رع » ، « حور محب » ، « سمنكرع » ، أقبلوا جميعاً . . .

الفصل الثالث عشر

أقام أخناتون أياماً قليلة بموقع المدينة الجديدة ثم كر راجعاً إلى طيبة . وكان أول ما أثار عجبه حين وصل إلى العاصمة أن رأى كاهن « آمون » ماثلا فى استقباله فوق المرسى الملكى المواجه للقصر ، فما أن نزل من السفينة حتى تقدم منه محييا ومهنئاً بسلامة الوصول. ولم يستطع الملك أن يفقه سر تغير مسلك الكاهن . فقد درج «بتاح موس» فى العهد الأخير على الامتناع عن حضور الحفلات الملكية إلا ما كان اشتراكه فى مراسمها ضرورة دينية ، أما « اخناتون » فقد مضت عليه أعوام طويلة لم يطأ فى خلالها أرض معبد « آمون » ، ولم يشترك فى الاحتفال بأية مناسبة دينية خاصة بهذا الإله . فقد كان المتعارف عملا بين الملك والكاهن أن يتجنب كل منهما صاحبه قدر المستطاع .

فما يكون سر هذا الود المفاجىء وقد كان الكاهن يغلى كالمرجل فى آخر مرة رآه فيها الملك ! أتراه عدل عن سياسة العداء فهو يسعى اليوم إلى التفاهم بغية ضم الصفوف ؟ أم أن فى الأمر خدعة يحيك أطرافها ليأخذ الملك على غرة ؟

مهما يكن الأمر فهذه فرصة كان ينتظرها الملك منذ زمن طويل . فكان أن اصطحبا إلى القصر ودعاه الملك إلى تناول الغداء . وبعد أن انفض شمل المدعوين استبقاه معه بالرغم من محاولته الهرب . ودار بينهما حديث طويل ، فحدثه الملك عن « آتون » إله الحب الذى تضحك الأرض بكل ما عليها جزلا لرؤيته ، فتتلألأ الأزهار بسنا التشوق إليه ، ويشب النبت لاستجلاء طلعته ، وترقص الخراف على حوافرها ، وتندفع الأطيار من أعشاشها فرحى ، فتفتح أجنحتها المغلقة ، وتوقع بحفيفها أناشيد الحب « لآتون » الحى الذى لا يموت (١) .

كان الكاهن يستمع إلى حديث الملك وهو يغالب نفسه حتى لا ينفجر ضاحكا. فقد بدا له فرعون فى هذه اللحظة غرأ ساذجاً لا علم له بنفوس الرجال . ومع ذلك

(١) كلمات « اخناتون » بتصرف .

فإن تلك المحاولة اليائسة قد أثارت في نفس الكاهن نوعا من الإعجاب بهذه النفس التي لاتهاب أحداً ، ولا تفرق بين عدو وصديق ، بل تعامل الجميع بصراحة وإخلاص . إن « أخناتون » قيثارة لاتحسن أن تعزف إلا كلمات الإله ، فهي لا تهبط بأنغامها إلى درك مجاملة الناس لتنمق لهم مايرضى أسماعهم المفتونة .

ابتسم « بتاح موس » وراح يحاور الملك قائلا :

— إن « آمون » ياصاحب الجلالة يعطف هو الآخر على من يعبده من البشر.

فاندفع الملك في ثورة قائلا:

— كلا يا « بتاح موس » . إن « آمون » إله حرب وقتل ودماء . إنه طاغية يتطلب من أتباعه أن يقترفوا شتى الجرائم مرضاة له ، أما هو فلا يرفع أصبعاً إلا بعد أن تقدم له الفديات والقرابين ، لقاء ما يطلب منه من خدمات . إنه إله أجير . . . إله جشع دموى ، عنيف الحقد إذا أغضبه البشر ، شديد الغيرة إذا ذكرت الألسنة إلها غيره .

تريث الملك لحظة ثم عاد يقول :

— أصدقني يا « بتاح موس » إن « آمون » لو تجسد بشراً لكان قاطع طريق ، ولحكمت عليه بالقتل .

وانصرف الكاهن من لدن الملك تاركا وراءه وعوداً ملتوية لا تنصرف إلى شيء . فلما دخلت الملكة « تي » على ابنها وجدته حزيناً مكتئباً ، فراحت تطيب خاطره قائلة :

— لا تلق بالا « لبتاح موس » يابني ، فسوف أبقى في طيبة بعد رحيلك لأراقبه عن كثب . وأظنني كفئاً له ، فلا يزال في وسعي أن أحطم كل حرابه اليوم كما حطمتها من قبل .

— أما تزالين عند رأيك ألا تصحبيني إلى « مدينة الأفق » يا أماه ؟

— هذا القصر وتلك البحيرة هما يابني مملكتي الصغيرة التي إن فارقتها اختنقت ومت.

— لك ما تريدين يا أماه . إنك لاتؤمنين بدياناتي لأنني ابنك الذي عرفته قبل أن تنبت أسنانه . فأنت تعتقدين أنني من صنع يديك ولذلك لا يمكنني أن آتي بشيء

جديد لا تعرفينه من قبل . إننى عندك ابنك « امنحتب » على الدوام . أليس هذا عجيباً يا أماه . . . أقرب الناس من صاحب الرسالة هم أبعدهم عن أن يعتقدوها . . . كأنما يخيل إليهم أنه ليس من حق قريبهم أن يبتكر فكرة فذة ، أو أن ينادى بمذهب جديد ، بل عليه أن يبقى دائماً « قريبهم » فحسب . فإن فعل غير ذلك اعتبروه خائناً أو مجنوناً : . . هذا عجيب يا أماه !

— إنك تسىء الظن بى يا « أخناتون » ، فأنا أؤمن بآتون بقدر ما يتسع إدراكى لفهمه .

— هونى عن نفسك يا أماه . فلست أجبر أحداً على اعتقاد شىء لا يقبله قلبه .

راح الملك يخطر فى الحجرة وهو مطرق ، فقد كان شديد الاحترام لوالدته ، وكان إيمانها بديانته مما يدخل على قلبه أعظم السرور . ولكنها هى وكاهن آمون والوزير « رع موس » قد استووا جميعاً فى عجزهم عن فهم عقيدة « آتون » ، وإن اختلفت دوافع كل منهم .

وقف الملك فجأة وخاطب أمه قائلا :

— لقد أخبرنى كبير الأمناء منذ لحظة بأن « رع موس » يريد مقابلتى ، فهل من جديد ؟

— إنه يريد أن يقدم استقالته من منصب الوزارة .

— لم ؟ هل صدر منى ما أغضبه .

— لا يا « أخناتون » فلن تجد من يحبك ويخلص لك أكثر من « رع موس » . ولكنه يقول إنه قد شاخ وهرم . ثم إنه يريد أن يفسح لك المجال لكى تختار للوزارة من عساه يكون أكثر معاونة لك منه . إنك تفهم الدافع له بالطبع .

— أجل ياأماه . وإنى لأقدر له هذه العاطفة ، إذ الواقع إننى أصبحت شديد الحاجة إلى رجل يعاوننى على قلب نظم المجتمع الظالمة بحماسة لا أظنها تتسنى « لرع موس » .

— وهل وقع اختيارك على من يخلفه ؟

— صديق الأمير « نخت » حاكم الإقليم الرابع عشر .

ـــ ولكن هل تقدر خطر هذا العمل يا « أخناتون » ؟ إن « رع موس » هو آخر حلقة تصلك بالعهد القديم ، فمن الحكمة الإبقاء عليه وإلا حدث انفصال تام بينك وبين المحافظين من النبلاء ورجال الدين ، فتنقسم الدولة معسكرين مختلفي المبادىء والأغراض . وهذا أكبر خطر يهدد الدولة .

لم يجب «أخناتون» على الأثر، بل انسرحت عيناه كأنما تتأملان المستقبل البعيد. ثم راح يقول :

ـــ لن يكون إلا معسكر واحد ياأماه ، لا في مصر وحدها ، بل في العالم أجمع : معسكر « آتون » الذى سيضم الأبيض والأحمر والأسود .

صمتت الملكة « تى » ، ولم تجب فقد علمتها محاوراتها لابنها ألا جدوى من هذه المناقشات ، فهو عنيد صلب الإرادة ، وهى حين تتحدث إليه فى أمور السياسة العملية . يشرد منها إلى آفاق التصوف والأفكار المجردة، فلا يفهم كل منهما صاحبه. وبعد أن طال بينهما السكوت لحظات تحدثت الملكة قائلة :

ـــ لقد جاش بخاطرى أمر أحببت أن أفضى به إليك منذ مدة طويلة ، ولكنى أردت نفسى على التريث لعل الأقدار تعمل على رفع دواعيه ، فتعفينى من مؤنة التدخل فى شئونك الخاصة .

قطب الملك برهة ، ثم قال :

ـــ أظننى أدرك ماترمين إليه يا أماه .

ـــ حسناً ؟

هز أخناتون رأسه ، ثم قال :

ـــ كلا يا أماه . لن أتزوج غير نفرتيتى فلست أحب سواها .

ـــ ولكن هل نسيت أنك قد أعقبت منها إلى الآن أربع بنات ، ولم تعقب ولداً واحداً يخلفك فى الحكم ؟ .

أطرق الملك مفكراً ، فلطالما عذبته هذه الحقيقة فى زمن ما ، إذ كان يخيل إليه أنه ليس من يستطيع إتمام رسالته ، والإبقاء على شعلة « آتون » موقدة

متوهجة،غير ابن ينحدر من صلبه ، ولـكنه بعد أن زرق ابنته الثانية «ميكتاتون» هبط عليه شعور واضح بأن الابن الممتاز لايمكن أن يتم رسالة أبيـه ، بل عليه أن يأتى برسالة أخرى مخالفة ، وهذا ما لا يريده هو . وحينئذ أدرك حكمة أبيه « آتون » إذ عمد عن قصد إلى أن يجعل كل ولده إناثاً .

رفع الملك رأسه وخاطب والدته مبتسما :

ـــ إننى لن يولدلى ذكر يا أماه ولو تزوجت نساء العالم أجمع، فهذه إرادةالله.

عقدت الملكة « تى » حاجبيها دهشة وقالت :

ـــ من قال هذا يابنى . . إن الرجل الذى يعقب البنات يعقب البنين أيضاً . أما المرأة فقد لاتستطيع ذلك .

هز الملك رأسه وقال :

ـــ إننى لست ككل الرجال يا أماه . لقد شاء أبى « آتون » أن يرفعنى إلى عليا درجات السمو ، بحيث لايمكن أن يأتى من صلبي من هو أشرف منى . إن إرادتى جبارة يا أماه ، وزوجى نفرتيتى أذكى النساء . فلو أننى أعقبت ذكراً يجمع بين إرادتى وذكاء أمه لمـا كان من البشر .

كذلك لم تفز الملكة بطائل من حوارها لابنها شأنها فى كل حديث معه .

* * *

حين غادر « أخناتون» أرض مدينة الأفق ، ترك بها أحسن مهندسيه ليقوموا بتخطيط طرقها،وتفصيل قصورها ومعابدها،وفقاً لإرشاداته التى بينها لهم.أما«بك» رئيس مهندسيه ومثاليه فقد اصطحبه إلى «طيبة» ، ثم أرسله بعد ذلك إلى منطقه الشلال الأول ليقتطع من محاجرها الجرانيت الأحمر لتزيين صروح معـابد المدينة الجديدة . وأتم « بك » مهمته ثم عادإلى «أخت آتون» فأنفق مع معاونيه عامين طويلين فى العمل المتواصل المحموم . فلما أتم عمله برزت المدينة على خد النيل تبهر الأنظار بآيات الجمال التى تتجلى فى كل مبنى وعلى كل صورة وتمثال أما ما كان يحير العقل حقاً فهو أن يتم بناء مدينة تضارع « طيبة » أبهة وجمالا فى هذا الزمن الوجيز ، الذى لم يكن يكفى لبناء صرح معبد واحد فى عهد الفراعنة

الغابرين . ولكن «أخناتون» رب معجزات . وليست « آخت آتون » إلا أروع معجزاته، حتى لقد وصفها أحد أتباعه بقوله : « إن من يقع بصره على روعة مدينة أفق آتون فكأنما أبصر السماء »

وأخيرا أزف موعد الارتحال النهائى من « طيبة ». فودع أخناتون والدته كما ودع وزيره السابق « رع موس » بعد أن أغدق له العطاء . ثم استقل السفينة الملكية ونزل فى النهر العظيم وفى إثره سفائن الأمراء ورجال الحاشية وكبار الموظفين. هكذا خلت « طيبة » دفعة واحدة من أشرافها وعظمائها، فلم يبق فيها غير الملكة الوالدة وكاهن « آمون ». حتى النبيل « آى » وزوجته « تاى» والدا الملكة نفرتيتى تركا قصرهما المنيف بطيبة وارتحلا مع الملك .

وكان الاحتفال بافتتاح مدينة « أفق آتون » يعز على الوصف، وتعجز عن أن تصوره الألفاظ . استقل الملك عربته الملكية المكسوة بالذهب والمحلاة بالأزهار وريش النعام وخرج فى إثره ... ياللعجب! الملكة « نفرتيتى » تقود عربتها بيدها، ومن ورائها الأميرات الصغيرات فى عربة ثالثة يقودها كبير أمناء القصر . عقدت الدهشة ألسنة الشعب المصطف على جانبى الطريق ، فقد كان يرى أول مرة فى تاريخه ملكته تتولى قيادة عربتها فى محفل عام . وتوالت على الأثر عربات النبلاء والأمراء فدوت الطرقات بوقع أقدام الخيل ، والتمعت ببريق العربات الزاهية وألوان الملابس المطرزة ، وضياء الشرائط المهفهفة، وريش النعام المتعدد الألوان.

وصل جنود « الملك » الذين يتقدمون الموكب إلى أبواب المعبد الأكبر فسجد كهنة المعبد وظلوا خاشعين حتى نزل « أخناتون » من عربته فتقدم أربعة من العبيد يحملون محفات من ريش النعام، فظللوا بها الملك والملكة إلى أن دخلا بهو المعبد الخارجى، الذى وقفت فيه عجول سمينة تحوط رقابها الضخمة أطواق من ورق الشجر، على حين عقدت حول قرونها باقات من زهر اللوتس المقدس . وفى البهو الداخلى للمعبد جلست جماعتان من القيان يرتدين حرائر هفافة ويعزفن على الأوتار ويقرعن الطبول .

دخل الملك وحاشيته إلى قاعة المعبد الكبرى، فتقدم « أخناتون » وزوجته من المذبح المرتفع، الذى كان محملا بشتى القرابين من طيور وخضر وفاكهة وأزهار .

تعلوها أوعية من الذهب حاوية الزيت المقدس . وكان الملك هو رئيس الكهنة أيضاً،فأخذ بيمينه البخور العطر ونثره فوق النار المشتعلة فى أسفل المذبح . ولما امتلأ المعبد بدخان الأبخرة العطرة، شرع ثمانية من الموسيقيين العميان فى العزف على الأوتار،فبدأ الكهنة والقيان فى ترتيل الأناشيد . واستمر الإنشاد إلى أن رفع الملك يمناه فسكت المرتلون وبدأ أخناتون يصلى قائلا :

— يا سيد آتون يا خالق الكون ؛ أيها الإله الواحد الذى لاشريك له .تقبل صلاة ابنك الذى يحرق نفسه فى شعلة حبك .

إنك تخلق الجنين فى بطن أمه ثم تحنو عليه حين يكبر ، فتتعهده بعطفك حتى لاتدمع عيناه ، وتحبوه برعايتك لكيلا يتألم جسده .

إن حبك ليجعل اليد ترتجف من النشوة والفؤاد يغشى عليه .

فما أعظم سرور الذى يدين بدينك ، فهو فرح كلما حظى بمشاهدتك الى الأبد.

مادمت راعى يا الله فلن أحتاج . لأنك أنت ثروة الفقير، والرجل الذى يملك فى قلبه غنى . مثل هذا الرجل لن يقول : آه لو أملك هذا ولو أملك ذاك . . .

انك ينبوع الخصب يا الله ، فمنك طعام مصر العزيزة .

أنت هو عماد الخليقة يا « آتون » فمن اتكل عليك فكأنما اعتمد على صرح من النحاس يزن ألف ألف مثقال .

أنت إله الحظوظ والأقدار ، عالم الغيب ، وينبوع المستقبل المجهول .

أنت ذكرى الأزل لكل من ضعف إيمانه وزاغ قلبه .

ما أعظمك يا سيد « آتون » فأنت الدافع الحيوى الكامن فى كل ذرة على الأرض والسر العظيم الذى يخفق به صدر كل عصفور .

ما أجلك يا سيد آتون . حين يفيض حسنك على قلوب الرجال تنبض فيها الحياة الحقة فترى أفئدتهم النور . . .

وحين أتم « أخناتون » صلاته ركع على ركبتيه ثابتاً فترة طويلة وأخيراً رفع بصره صوب السماء وقال :

— يا سيدى « آتون » ، إننى أقف هذا المعبد ، وكل ما بنيت من معابد على

خدمتك وعلى عبادتك وحدك أيها الإله الذى لاشريك له . ولتسمح لى يا الله بأن أعين خادمك المؤمن « مرى رع » رئيساً لكهنتك .

لم يكن الملك قد فاتح صديقه فى أمر تعيينه فى هذا المنصب السامى . ولذا فوجىء « مرى رع » حين سمع كلمات الملك حتى كاد يكذب أذنيه . فقد كان المفهوم أن « أخناتون » سيظل رئيساً لكهنة « آتون » ، فهو المعلم الأول الذى نزل عليه وحى الدين الجديد . إلا أن الملك شعر حين انتقل إلى مدينته الجديدة بأن أعباء الحكم المتكاثرة لن تترك له الوقت الكافى لخدمة إلهه على الوجه الكامل. ثم أن أخناتون وجد أنه إذ يعود أتباعه على أن يباشروا أمور ديانة «آتون » بأنفسهم يضمن بذلك استمرار توهج شعلة الدين بعد وفاته .

غير أن موضع الدهشة فى أمر هذا التعيين أنه انصب على القائد « مرى رع » على حين كان المظنون أن « سمنكرع » أجدر منه بهذا المنصب . فقد كان «سمنكرع» أقدم أصدقاء الملك وأول مريديه . ثم أنه كان فى ذلك الوقت مخطوبا لابنة أخناتون الكبرى الأميرة « مريت آتون ». وكان المفهوم من أمر هذه الخطبة أنها الخطوة الأولى لتمكين «سمنكرع» من أن يخلف « أخناتون فى الحكم بعد مماته فإن زواجه من ابنة الملك يجعل له حقا شرعياً فى اعتلاء العرش . ولكن « أخناتون» كان أعرف الناس بنفوس أصدقائه . فسمنكرع أنبل رجال مصر دون شك . كما أن حرارة إيمانه لايمكن أن تكون موضع جدال . إلا أن عقله كان أكبر من قلبه. فهو لايؤمن بشىء إلا بعد أن يقتله تفكيراً وبحثاً ، أما «مرى رع » فقد كان يؤمن أولا ويفكر بعد ذلك . ولهذا لم يكن يخالج قلبه غمامة من شك أو تردد . ولقد آمن بسيد آتون فاستغرقه هذا الإيمان ونفذ إلى أدق ذرة فى جسده . ولم تكن معانى الديانة الجديدة لتحتمل نقاشاً فى نظره بل هى الحقيقة الكاملة لانزاع ولادفاع .

تقدم «مرى رع» بين الصفوف، ووقف وراء الملك، فشخصت الأبصار إلى رجل الساعة ، الذى ارتقى فجأة إلى أسمى منصب فى الدولة فأصبح الزعيم الثانى بعد فرعون

وارتقى فرعون درجات المذبح المقدس، ثم أشار إلى «مرى رع» بالتقدم ، فلما صار فى مواجهة الملك ، سجد تحت قدميه وظل خاشعا . ومد أخناتون يده فوضعها على رأس صديقه ثم خاطبه قائلا :

ــ استمع إلى يا «مرى رع» لقد عينتك بدلا منى رئيساً لكهنة آتون بمدينة «آخت آتون» . لقد أنعمت عليك بهذا المنصب فمنذ اليوم تعيش من خيرات سيدك فرعون فى هذا المعبد.

ولما أتم الملك خطبته نزل من المذبح وأشار إلى رئيس كهنته بأن يرتقى مكانه فصعد « مرى رع» إلى المذبح وبدأ يؤم المصلين بدلا من الملك .

حين انتهى رئيس الكهنة من تلاوة الدعوات والصلوات ، ساد المعبد سكون قصير، ثم فوجىء القوم حينئذ برؤيتهم الملكة « نفرتيتى » تتقدم من المذبح وفى إثرها ابنتها الكبرى «مريت آتون» . ولم يكن من الغريب أن تتولى امرأة فرائض الصلاة ، فقد اعتادت المصريات من قديم الأزل القيام بمراسيم العبادة فى معبد إلههم «هاتور» فيرتلن لها ويرقصن . ولكن موضع العجب هو أن تشترك الملكة فى فروض الصلاة فى معبد الدولة عينه وفى محفل رسمى جرت العادة بألا يظهر فية غير فرعون وحده .

جلست الملكة على درج المذبح وتناولت المعزف من ابنتها، ثم بدأت توقع عليه بيديها الجميلتين لحن آتون . وفى وسط الأنغام العذبة التى ملأت المعبد الصامت ، ارتفع صوت الملكة الرخيم بالأغنية الخالدة التى وضعها أخناتون لترتل فى الحفلات الرسمية بدلا من الصلوات القديمة . فاستمع أهل مدينة الأفق أول مره مدحة سيد آتون ترددها زوج الملك . ولم يكن ماطرق آذانهم فى ذلك اليوم مما سبق أن سمعوا بمثله طوال العمر . فلقد راعهم فرعون على لسان قرينته بلغة ساحرة تعبر عن معان جديدة فاتنة .

انطلقت الملكة تنشد قائلة :

آتون . . . . (۱)

(۱) فقرات من أنشودة آتون التى وضعها أخناتون منقولة بتصرف قليل

ما أجمل شروقك فى أفق السماء .
آتون . . .
يامبدع الحياة .
حين تنهض من المشرق تمتلئ الأرض بحسنك .
وتخلع على المرئيات جمال نفسك .
إن أشعتك تحتضن البقاع ، وكل ماسويت من خلق .
فيتحدث الجميع بمحبتك .
إنك بعيد ، ولكن أشعتك فى الأرض .
إنك سام ، ولكن النهار أثر قدميك .

* * *

آتون . . .
حين تشرق تهرب الظلمات .
فتضج أرض مصر بأعياد النهار .
ويقف البشر على أقدامهم ، بعد أن أيقظتهم من سباتهم .
فيستحمون ويلبسون ، ويمدون أكفهم يعبدون شروقك .
وحينئذ يهبون إلى عملهم فى سائر جنبات الأرض .

* * *

آتون . . .
هاهى ذى الماشية ترعى العشب .
وأفنان الشجر تأتلق بالزهر .
هاهى ذى الطيور ترفرف فى أرجاء السماء .
وبأجنحة مبسوطة تتعبد لك .
هاهى ذى الدواب ترقص على حوافرها .
وكل من له جناحان يبادر بالطيران .
هاهو ذا السمك يقفز أمام جلالك .

والشراع يهبط ويصعد على أمواج النهر .
آتون . . .
إنما تحيا المخلوقات جميعاً ، حين تطلع عليهم بنورك الوهاج .

* * *

حين أتمت الملكة ترتيلها العلوى بقى المصلون فى سكونهم وطال هذا السكون . كانوا كأنما نزلت بهم صاعقة يبست لها أعضاؤهم وثبتت نظراتهم ، فأصبحوا فى حاجة إلى هزة عنيفة ترفع عن نفوسهم طلاسم السحر ، وتعيدهم إلى رشادهم المسلوب . ولكن أنى لهم ذلك . فلما أن طال توتر أعصابهم سمعت صيحات انبعثت من أفواه بعض المصلين . ورئى الملك ورئيس كهنته يبكيان . كان القوم يشعرون بسعادة قدسية لم تحسها أفئدتهم من قبل . وفى هذا اليوم أصبح « آتون » لدى معظم أتباع الملك ورجال الدولة حقيقة ملموسة تدركها قلوبهم ، لا مجرد دين جديد ينادى به فرعون .

كفكف أخناتون دمعه وسجد . وظل على سجوده برهة إلى أن هدأت نفوس المصلين وخفتت أصواتهم . وعندئذ مد يمناه صوب المذبح ورفع صوته قائلا :

ــ هذا معبدك يا « آتون » ، وهذه مدينتك . . وسيأتى إلى هذا المكان عامة البشر من مختلف الأنحاء فتصبح « آخت آتون » عاصمة أقابل فيها كل الرسل والأقوام الوافدين من الشمال والجنوب والشرق والغرب .

ما إن أتم الملك كلامه حتى ارتفعت همهمة من جمهور المصلين ، فإن ما قاله كان مفاجأة لهم جميعا . فقد كان المعروف إلى ذلك اليوم أن « آخت آتون » ستكون مجرد مقر للديانة الجديدة ، كما أن « منف » مقر عبادة « رع » ، وطيبة موطن لآمون . وكانوا فى ذلك يفكرون بعقليتهم القديمة التى لم تكن لتتصور وجود الله دون أن يكون له مقر من بعض مدن مصر . ولكن هاهم أولاء يسمعون أن « مدينة الأفق » لن تكون مقر آتون فحسب ، بل ستصير عاصمة الدولة .
وطيبة . . ؟ طيبة القديمة الخالدة !

انتظر « أختاتون » حتى ذهبت همهمة القوم وتابع مناجاته قائلا :

ــ لقد شيدت « آخت آتون » لتكون مسكناً لك ياوالدى الإله . وأظهرت حدودها من جميع الجهات ، وهذا هو قسمى الأبدى أذكره أمامك : لن أتعدى طوال حياتى حدود « آخت آتون » الجنوبيـة متجهاً نحو الجنوب ، كما أننى لن أتعدى حدودها الشمالية سائراً نحو الشمال . . . لقد صنع الإله دائرته هذه لنفسه وجعل فى وسطها مذبحه الذى أقدم عليه القرابين لأجله ... فلتكن إرادة الله(١) .

انتهت الحفلة الرسمية بانتهاء هـذا القسم ، فعاد الملك وزوجه إلى القصر ، وانصرف الناس حيـارى ، لايعرفون كيف يبتون برأى فيما سمعوا وشاهدوا . ولقد كان الشطر الآخر من القسم أكثر إدهاشاً لهم من شطره الأول ، فماذا يعنى الملك بقوله إنه لن يفارق «آخت آتون» مدى حياته ؟.

لاشك فى أنه قسم غامض علمه عند فرعون وحده . غير أن الأحداث لم تلبث أن أطلعت شعب مصر على حقيقة مقصد « أختاتون » .

* * *

ترامت أنباء حفلة افتتاح المدينة الجديدة إلى طيبة ، فبهتت الملكة « تى » ، أما « بتاح موس » فقد ضحك وفرك يديه فرحا . إن كان الملك قد أقسم أنه لن يغادر مدينته الجديدة فقد ضمن الكاهن بأن « طيبة » ستظل خاضعة لتأثيره وحده .

وكان الكاهن فى هذا الحين قد اكتنه شخصـية الملك ، وعرف أنه لايؤخذ بالوعيد ، بل إنه إذا هدد تمـادى ويطغى . فأراد الكاهن استغلال عناد الملك حتى يطمئن إلى عدم عودته إلى «طيبة» ، فجمع بعض أعيان العاصمة القديمة وطلب إمضاءهم لقرار أرسله إلى « أختاتون » .

كان عمل الكاهن متناهياً فى الجرأة . فالقرارات التى أرسلها للـملك عنوانها « رأى حزب الإله آمون فى التطورات السياسـية الأخيرة » . وتلا ذلك كلام

---

(١) كلمات أختاتون

كثير عن وجهة نظر هـذا الحزب فى ظهور الملكة فى حفـل رسمى واشـترا كها فى مراسيمه ، وكيف أن هذا ينافى التقاليد المصرية الثابتة منذ الأزل ، فضلا عن خروجه على قواعد الأخلاق . ثم أعقب ذلك اعتراض شـــديد على جعـل « آخت آتون » عاصمة الامبراطورية المصرية ، واعتراض أشد على قسم الملك بأنه لن يبرح المدينة الجديدة ، وانتهت الرسالة بقرار أخير فحواه أن حزب الإله آمون ، إذ يعبر عن معارضـته لكل هذه التصرفات ، لايزال يعتبر طيبة عاصمة الدولة الرسمية .

كانت هذه هى المرة الأولى التى رفع فيها الكاهن القناع ، فأظهر مناوأته للملك فى صورة علنية ، ولم يتحرج من أن يذكر إسم حزبه صراحة على أنه حزب مستقل لايخضع فى سياسته لسلطة الملك . أما الدافع إلى هذه الخطوة الجريئة ، فهو إحساس الكاهن بأن الوقت قد حان لكى يظهر علنا فى ميـدان السياسـة ليوطد سلطته فى طيبة ، وليجمع حوله كل الفئات المتبرمة من التطورات التى أجراها الملك . فإن المعارضة لاتتخذ شكلا خطيراً مؤثراً إلا إذا ظهرت فى صورة مجسمة، تجذب إليها كل غاضب ساخط . وكانت هذه هى خطوة الكاهن الأولى .

وقد أدرك من ساعته أنها خطوه موفقة .

حين قرئت الرسالة أمام الملك ضحك فى خفوت ، والتفت إلى قائده « حور محب » قائلا :

« ماهو حزب « آمون » هذا يا « حور محب ؟ » .

فضحك القائد ساخراً ، وقال :

— لاتلق إلية بالا ياصاحب الجلالة ، فما هو إلا خرافة فى رأس كاهن معتوه .

عض الملك على أسنانه ، ثم قال :

— إنها خرافة حقا . ولـكنى عقـدت العزم على استئصال كل الخرافات ، وآمون أكبرها وأكثرها خطراً .

وعاد الملك يتأمل رسالة الكاهن ثم قال :

— أرى أنهم ينتقدون مسلك زوجتنا الملكية ، هؤلاء الكذبة المنافقون . . .

لقد انقضى عهدهم المظلم إلى غير رجعة ، ويجب أن يكون للمرأة كل حقوق الرجل.
أرخى «حور محب» بصره، ثم قال فى تردد :
ـــ أنت تعلم ياصاحب الجلالة أن فرعون فى القديم كان يركب عجلته منفرداً فيبدو عظيما فذا ساطعا . ولكنك يامولاى تستقل العربة الملكية مع صاحبة الجلالة، ومن حولكما صاحبات السمو الأميرات . ألا يخشى مولاى أن يخيل للشعب . . .
قاطع أخناتون قائده فى ثورة قائلا :
ـــ الشعب ... إننا نفعل ذلك لأجل الشعب . إن فرعون القديم لم يعد . أما فرعون الجديد فهو زوج يحب زوجته ، وأب يعطف على أطفاله . هذا مايجب أن يعرفه كل مصرى حتى يترسموا خطانا فيه . فلقد آن الأوان لكى يفهم الناس أن الزوجة ليست أمة وأن الأطفال هم هدية الله . إن الرجل المخلص لوطنه يجب أن يكون مخلصا لأسرته أولا .
صمت فرعون لحظة وهو مقطب، ثم قال :
ـــ لست أدرى لماذا لايريد الناس أن يحب بعضهم بعضا ، ولماذا يتحرجون من إظهار هذا الحب ، على حين أن الرجل إذا كره أخاه أعلن ذلك على الملأ ، وجعل من مظاهر حقده وتدابير انتقامه رموزا للنبل والشرف . . . إن الإنسان ليس بشرير ، فهل تراه قد جن ؟ .
وعاد «حور محب» يقول :
ـــ إن أهل طيبة يامولاى حين يرون جلوس الملكة إلى جوارك فى الحفلات الرسمية ، وإحاطتك خصرها بيديك ، أو إمساكها بكفك وهى مستندة برأسها إلى كتفك ، يعدون ذلك كله خروجا على التقاليد الفرعونية ، بل إنهم يقولون إن فيه مايمس الأخلاق .
قهقهة الملك ضاحكاً وقال :
ـــ حقاً ياحور محب ؟ غداً حين أستقل العربة الملكية لأتلقى جزية المستعمرات سأقبل زوجتنا العزيزة على مسمع ومرأى من شعب مصر وسفراء آسيا ، ليعلم العالم بأسره أن فرعون لايخاف إظهار حبه لقرينته . ولعل فى هذا مايطيب خاطر صديقنا كاهن «آمون» .

وسرعان ماهوى الملك بيده على المنضدة صائحاً :

ـ آمون ... كيف سمحت لنفسى بأن ألفظ هذا الاسم البغيض.. بل كيف أسمح لغيرى أن ينطق به، وكيف أحتمل وجوده محفوراً على معابد أجدادى وفى مقبرة أبى...

وفى الغد أصدر « أخناتون » أخطر مرسوم وقعه فى حياته ، فأتم بذلك الحلقة الأخيرة فى محاربته لديانة « آمون » . قضى هذا المرسوم بإغلاق معابد هذا الإله فى سائر أنحاء القطر ابتداء من طيبة وبمنع عبادته منعاً باتا ، وقضى كذلك بمحو اسم آمون من جميع المعابد والمقابر وسائر الآثار الفرعونية على وجه عام . أما الأهالى فعليهم أن يقدموا كل ممتلكاتهم التى تحمل اسم آمون لتقوم السلطات بمحوه منها . كما كلف كل من يحمل اسمه لفظ آمون بأن يغيره خلال عشرة أيام على أن يختار لنفسه اسماً مشتقاً من لفظ « آتون » الإله الواحد الذى لا شريك له .

ولقد نفذ الملك هذا المرسوم بدقة عجيبة . فقد أنفذ رسله فى سائر أنحاء المملكة يمحون اسم آمون وكل اسم ملكى يحتويه من كل حائط أو حجر أو مسلة . ولقد كان من مبالغته فى إنجاز ذلك أن فتح قبر والده فأجرى فيه هذا التغيير ، وصار يكتب كلمة آتون باللون الأحمر فوق لفظ آمون الممحو . أما اسم والده نفسه « آمون حتب » فقد محاه أيضاً واستعاض عنه باسمه الملكى الثانى « نبمارا » . وحتى اسم أخناتون القديم (أمنحتب الرابع) قد محى بدوره ووضع بدلا منه اسمه الجديد . . .

يقيناً لو أن الملكة « تى » كانت بجوار ابنها فى هذا الحين لما صدر هذا المرسوم الذى جلب الشؤم فى ركابه .

الفصل الرابع عشر

كانت السنون الأولى التى قضاها أخناتون فى مدينة الأفق أسعد سنى حياته . غير أنه كان يضنى نفسه فى العمل المتواصل إلى درجة لايتصورها عقل . فكل قانون يسن ، وكل حجر يقام ، وكل تمثال ينحت ، لابد أن يشرف عليه بنفسه . وكان الملك يعتمد فى هذا النشاط على عزيمته وحدها . أما صحته المضعضعة فلم تكن لتحتمل شيئاً من هذا الجهد . ولكن للطاقة البشرية حداً تقف عنده، فما أن مضت أربع عشرة سنة على توليه الحكم، حتى قهره المرض وانتابته الآلام ، فساءت صحته وضعف جسمه ، مع أنه كان لم يزل فى أوائل العقد الرابع من العمر . وكثيراً ما اضطر إلى تصريف شئون الدولة وهو على فراش مرضه .

وبلغ الملكة « تى » نبأ مرض ابنها ، فغادرت قصرها بطيبة وهرعت إليه ، ونزلت بقصرها الجميل الذى أعده لها منذ بنى مدينته الجديدة . ولقد اشتركت « آخت آتون » بأسرها فى استقبال الملكة الوالدة فأقيمت لها المآدب ، ونظمت من أجلها المهارج ، ولم يدخر الملك وسعاً فى اظهار مبلغ حبه واحترامه لوالدته . غيرأن مرض الملك لم يكن السبب الوحيد لزيارة والدته له . فقد كان وجود الملكة « تى » فى طيبة سبيلا إلى أن تكون على مقربة من مختلف تيارات السياسة الخفية التى انقطع خبرها عن بلاط الملك .

كانت طيبة فى هذا الحين موقداً يتأجج بعناصر الثورة المستترة ، التى تجمعت تدريجاً حول « بتاح موس » . فلقــد شغف شعب مصر فى أول الأمر بديانة أخناتون الجديدة، ودفعهم إيمانهم الفتى وجمال تعاليم الملك إلى الترحيب بديانة «آتون». ولكنهم حين فترت سورة إعجابهم بملكهم الفتى ، نظروا إلى مامنحهم إياه ، فإذا بهم قد استعاضوا عن إلههم الصنم المجسم السهل الإدراك ، بمعان مجردة لايفهمون لها معنى ، ولا يعرفون كيف يعبدونها .

إن الملك يقول إن تأمل الطبيعة هو أجمل صلاة . فهل هذه عبادة يمكن أن

يستعينوا بها على زيادة محصول أرضهم أوالكيد لأعدائهم ؟ وأين هذه الأساطير المقدسة عن صراع الآلهة التى كانت تملأ حياتهم الفكرية ؟ إن الإله الواحد الذى ينادى به أخناتون معبود ممل غامض، لا ينتظر أن تتم على يديه مخاطر شائقة كتلك التى قام بها الآلهة القدماء . . . وكانت هذه الفئة من المتبرمين بالديانة الجديدة هى أخطر الفئات جميعاً ، فهى تنذر بانضواء سواد الشعب تحت لوائها ، ولا سيما أن « بتاح موس » قائم وراءها ، يلهب صدور أفرادها ، ويغرس فى نفوسهم بذور الثورة .

وما إن حدثت الملكة « تى » أبنها فى هذا الأمر ، حتى نظر إليها ملياً ثم قال بصوت حزين :

ــ أجل يا أماه . لقد شعرت منذ حين بما تحدثينني به .

ــ وماذا فعلت ؟

ــ لاشيء . إننى لا أضطر أحداً إلى الدخول فى ديانة « آتون » بالقوة ، بل تنحصر مهمتى فى أن أظهر لهم بالحجة والبينة ماتحويه هذه الديانة من جمال . ولكن يخيل إلى أن البشر يكره الجمال يا أماه ، ويستهويه القبح والظلم . فأنت اليوم تحدثينني عن الشعب . وقد تكون للشعب أعذاره . ولكن مابالك بخاصتى واصدقائى . . .

وأطرق الملك وطال إطراقه ، فاقتربت منه أمه ووضعت يدها على رأسه . ثم قالت :

ــ مالك ياولدى العزيز ؟

ــ يداخلنى شعور خفى يا أماه أن أيام سعدى قد تزايلت . ويخيل إلى على مضى الأيام أن أحداً من الناس لم يستطع فهم حقيقة ديانتى ، وأننى وحدى من يدرك معنى الله . الآن بدأت أدرك معنى كلمات أبى « آتون » حين أوحى إلى أن أقول : (أنت فى قلبى يا الله . ولا يعرف سرك إلا ابنك أخناتون الذى جعلته عاقلا بآرائك وقوتك) . أما الآخرون ـ فمهما يبلغ من إخلاصهم لى ـ فهم لايزالون فى الواقع أميل إلى آلهتهم القديمة العاتية .

وصمت أخناتون حينا ثم استأنف يقول :

ـــ ومع ذلك فقد أكون مخطئاً . إن الحقيقة لا يمكن أن يخفى أمرها على البشر .

أقامت الملكة « تى » إلى جوار ابنها تشدد من عزيمته وتجود بنصحها . غير أنها كانت قد شارفت على الستين وأخذت صحتها تتدهور بسرعة مخيفة .

وذات صباح وجدت فى فراشها وقد شل نصفها الأيسر ، فأصبحت لا تقوى على النطق . ولم يمهلها المرض إلا أياماً معدودات لم يفارق فيها أخناتون وسادها .

وأخيراً فاضت روحها بين ذراعى ابنها المنتحب، فانتهت بموتها حياة أعظم امرأة فى تاريخ الامبراطورية الفرعونية بعد حتشبسوت .

وكاد حزن الملك على وفاة والدته يودى بالبقية الباقية من صحته . غير أن عزيمته الماضية هبت من جديد تشد أزره، فاستطاع أن يغالب مرضه حقبة أخرى. ومع ذلك لم يكن فى مقدوره تحمل عب الحكم بمثل نشاطه القديم ، وإلى جانب ذلك وجد نفسه عاجزا عن القيام ببعض مهام الدولة التى تحتاج إلى مجهود جسمى. وفى هذه الأثناء كان صديقه « سمنكرع » قد أتم زواجه بابنته الكبرى « مريت آتون » وعرف شعب مصر أنه خليفة فرعون على العرش . فلم لا يشاركه « سمنكرع » فى الحكم من الآن فيقوم بالمهام التى لا يقدر عليها بنفسه ؟ وقد كان...

وكان « حورمحب» يطمع فى المنصب الذى تولاه «سمنكرع» غير أن الأقدار لم تسمح بتحقيق أمانيه فى هذا الحين ، بل عملت على معاكسته وتحطيم خططه. فقد كان ماعرف عن تعلقه بالأميرة « نزمت » شقيقة الملكة مانعاً لأخناتون من أن يعرض عليه الزواج بإحدى بناته . ولكن الأميرة المتقلبة بعد أن ضيعت عليه هذه الفرصة الفذة، ما لبثت أن أظهرت له صداً مفاجئا فانقطعت عن تحميل قزمها الرسائل إليه . ثم كان أن غير القزمان وجهتهما فأصبحا يقصدان منزل « بك » كبير مثالى الملك . ولم تلبث هذه العلاقة الجديدة أن انتهت بزواج « نزمت » من المثال ، وبقى القائد يحرق الأرم .

وثار كاهن آمون لما انتهت إليه هذه الأخبار . فقد كان زواج «حورمحب» بشقيقة الملكة يجعل له بعض الحق فى اعتلاء العرش بعد أخناتون . فانقلب الكاهن

إلى شريكه الآخر الأمير « تيتو » الذى كان عنـد حسن ظنه به . فبعد زواج « سمنكرع » ببضعة أشهر أعلنت خطبته للأميره « نفرو نفرو آتون » رابعة بنات فرعون . وانطلق « بتاح موس » يرقص طربا . ولم ينل من طربه اضطرار شريكه إلى تغيير اسمه بهذه المناسبة إلى « توت عنخ آتون » أى النائب الحى لآتون. فالغاية دائماً تبرر الواسطة .

* * *

لم تكن هذه الأحزان التى انتابت حياة أخناتون إلا مقدمة للمحن . فقد كان للحيثيين ملك يدعى « سيبليل » تقع مملكته على الحدود الشمالية للمستعمرات المصرية فى آسيا . وكان هذا الملك إذ يلقى ببصره جنوبا صوب أراضى سوريا وفلسطين؛ يسيل لعابه طمعاً ويومض الجشع فى عينيه . ولكنه سرعان ما يذكر أنه فى الجنوب من هذه البلاد يقوم وادى النيل الخالد ، وعلى رأسه أمنحتب الثالث المرهوب الجانب ، فينكمش فى دثاره وتنبعث من صدره أنة طويلة . ثم مات أمنحتب واعتلى أخناتون العرش ، فأسرع « سيبليل » يهنئه ويطنب فى إظهار مودته وولائه لعرش مصر سيد العروش . وحين انتقل أخناتون إلى مدينة الأفق بادر ملك الحيثيين الماكر بإرسال القوافل الضخمة المحملة بأنفس الهدايا مع رجائه أن يقبل فرعون هذه المشاركة المتواضعة فى تزيين عاصمته الجديدة .

أما أخناتون فلم يجد فى وقته متسعاً يقضيه فى التلهى بهذه الخزعبلات الآسيوية وكان كلما تأمل ضخامة رسالته الدينية التى عليه أن يؤديها نحى عن عقله كل شاغل آخر وانكب يعمل بجهد الجبابرة . ماذا يهمه الآن من أمر هذه المجاملات الآسيوية وهو يرى أن بلده قد صار إلى حال من البوار الخلقى والدينى ، يحتاج فى إصلاحه إلى جهد يفوق طاقة البشر . كان عليه أن يرتب منزله أولا ثم يلتفت من بعد ذلك إلى شئون جاره . ولعل عمق عواطف الملك ، واندفاعه الشديد إلى تحقيق مايريد، كانا يمنعانه من الاشتغال بمشكلتين فى وقت واحد . فالنفوس القوية تستغرقها مهمتها السامية فتملأ حياة صاحبها بحيث يعجز - أولا يعنى - بالالتفات إلى أمر خارج عن نطاق رسالته .

وكثيراً مابعث « سيبليل » إلى الملكة « تى » بالرسالة تلو الرسالة يسألها السبب

إهمال فرعون فى مراسلته، وقد كان أبوه الراحل لا يتأخر عن جواب ولا يقصر فى طلب . وتملك الغضب ملك الحيثيين فى أول الأمر ، وخيل إليه أن فرعون الجديد يمتنع عن مراسلته ازدراء واحتقارا لشأنه . فقد عرف عن المصريين أنهم يشمخون بأنوفهم على سكان آسيا ، ويصفونهم بالبرابرة أو الرعاة .

غير أن «سيبليل» ، سرعان ماأدرك حقيقة الأمر . فإن ماترامى إليه من أنباء الثورة الدينية فى مصر ، وانهماك أخناتون فى شئون الإصلاحات الداخلية ، دله على أن فرعون أصبح لا يهتم بالمراسلات الآسيوية لأنه لم يعد يهتم بآسيا نفسها. عندئذ بدأ لعاب ملك الحيثيين يسيل ثانية، وعادالجشع يومض فى عينيه. وأدرك أن فرصته التى انصرف يعد جيشه لها قد سنحت . فلديه الآن جنود قد يفوقون جنود فرعون العاطلين تدريبا وشجاعة . ولقد أدخل إصلاحات بعيدة الأثر فى جيشه ، فابتكر له نوعا جديدا من العجلات الحربية تتميز عن العجلات المصرية فى متانتها ، وفى أنها تضم سائقاً ومحارباً بالقوس ومدافعاً بالدرع ، على حين أن العجلات الفرعونية لاتضم إلا سائقا ومحاربا .

ومع ذلك فإن « سيبليل » لم يجازف بمجاهرة فرعون بالعداء ، بل فضل أن يقوم بدوره من وراء ستار . فإن أحداً لا يجهل قوة مصر الجبارة وسعة مواردها كما أن ذكرى حراب تحتمس ما برحت ماثلة فى الأذهان . فمن الحكمة إذن أن يبدأ بغمز جانب فرعون ، فيثير عليه بعض ولاته بعد أن يمدهم بالعون المادى من جيوش وعتاد . وقلب ملك الحيثيين بصره فى ولاة سوريا فوقع اختياره على « أزيرو » حاكم مقاطعة « أمورية » المتاخمة لحدود الحيثيين . وكان «أزيرو» فتى بعيد الأطماع وضيع النفس، حتى لقدأشيع عنه أنه قتل والده ليصل إلى منصة الحكم ، فسرعان مااستهوته وعود ملك الحيثيين وبخاصة لأن مقاطعة « أمورية » على قربها من تخوم الحيثيين ، قصية عن مصر . فهو لا يرجو عونا سريعاً من مصر إن هو رأى مناهضة «سيبليل» ، كما أنه لا يخشى خطراً مباشراً من فرعون إن شق عليه عصا الطاعة .

قبل «أزيرو» المهمة فبادر بإلقاء بذور الفتنة فى نفوس حكام الولايات المصرية

المجاورة لمقاطعته ، والذين بدأ شعورهم بخضوعهم لعرش مصر يضعف تدريجا ، إلى أن أصبحوا يعتبرون أنفسهم حكاما مستقلين على ولاياتهم ، لا يربطهم بمصر سوى جزية معينة يرسلونها إليها كل عام .

وبينما أخناتون غارق فى نشوته ينشد التراتيل لربه الرحيم ، كان «أزيرو» يلعب بذنبه فى هذه الأنحاء القصية ، التى لم يهتم فرعون بأمرها يوما من الأيام . بدأت جيوش «أزيرو» المدعمة بجنود من الحيثيين تزحف نحو الجنوب ، دون أن تجد مقاومة تذكر من الحكام الذين أخذوا على غرة . وكان «أزيرو» كلما استولى على مدينة قتل حاكمها إن كان مخلصاً لعرش مصر ونصب بدله والياً من قبله . حينئذ بدأ الحكام المصريون يستشعرون جسامة الخطر المحدق بهم ، فأرسلوا يستنجدون بفرعون . وقرأ أخناتون هذه الرسائل فعجب من أمر مرسليها . كيف يصدق مزاعمهم وما يروون عن وقوع الفتن ، وقد انتهى إليه من المستعمرات فى هذا العام أكبر جزية عرفتها خزائن مصر ! إن هؤلاء الولاة إنما يطلبون منه جندا ليتفاخروا بهم ، وليرضوا غرورهم الأثيم حين يتصفحونهم فى الحفلات العامه . أف لهؤلاء الأسيويين ! إنهم لا يبرعون إلا فى كتابة الرسائل ، ويخيل اليهم أن ليس لفرعون من عمل سوى التفرغ لهذا اللهو السمج . وكذلك لم تجد هذه الصرخات الأولى أذنا صاغية لدى الملك .

على أن «أزيرو» كان يخاف أخناتون فى قرارة نفسه ، لمجرد أنه فرعون مصر . فكان كلما يزداد قرباً من حدود تلك الأمبراطورية العظمى كلما تزداد هواجسه وتقوى خشيته . فهو لا يعدو فى الواقع أن يكون ذبابة ضئيلة تحاول النيل من فيل ضخم . وقد لا يشعر بها الفيل فى أول الأمر ، ولكنه إذا انتبه إليها فسيقضى عليها فى طرفة عين . ولهذا رأى أن يتدبر أمراً يحتاط به لنفسه . وليس ما يجلب لقلبه الطمأنينة أكثر من أن يكون لديه جاسوس أريب فى بلاط فرعون ، يطلعه على أثر انشقاقه فى نفس الملك ، ويكاشفه بما قد يتخذه أخناتون من قرار فيستعد له . وتذكر «أزيرو» فجأة أن له أخا ، كان والده قد أرسله ليلتحق ببلاط فرعون ، ليتلقى العلم فى معاهد مصر . وكان هذا الأخ قد طلب يد الأميرة « انخسنباتون »

ابنة أخناتون الثالثة فلم يعارض الملك فى ذلك طوعا للسياسة التى أوصاه بها أبوه فأنفذ «أزيرو» إلى أخيـــه رسولا وطلب منه التعجيل بالزواج بمخطوبته حتى يطمئن إليه فرعون، وكذلك أطلعه على رغبته فى أن يتخيرله عينا فى بلاط الملك. وكان هـذا الأمير يعرف الكثير عن شئون مصر الداخليـة لطول إقامته بهـا، ويعرف مابين الملك وكاهن آمون من عداء مستحكم. فرأى أن يتوجه إليه عله يجد عنده العون.

ارتحل الأمير الأسيوى سراً إلى طيبة، ودخل على «بتاح موس» فأطلعه على مقصده. وما أن أتم حديثه حتى كاد الكاهن أن يطير فرحا، فقد أدرك من فوره أنها فرصة العمر. فهو إن نجح بالتعاون مع «أزيرو» على إثارة المستعمرات المصرية، فإنه يقحم بذلك أخناتون فى أضيق مأزق. فأهل مصر لن يسكتوا على ضياع مستعمراتهم. أما الملك فضعيف لا يقوى على القتال. وفى غمار الأزمة الحـادة التى لا بد أن تنشب حينئذ يجد أنجع الوسائل لقهر خصمه.

وسرعان ما تلقى شريكا «بتـاح موس» أوامره بمساعدة أزيرو فيما يريد. وأظهر توت عنخ آتون استعداده لتنفيذ أوامر زعيمه. أما «حورمحب» فقد نكل عن تلبية مطلب الكاهن، ثم مالبث أن أرسل يعتذر عن عدم الاشتراك فى هذه المؤامرة. فقد كان «حورمحب» جندياً قبل كل شىء، ويعز عليه وهو قائد لجيش مصر أن يعين على ضياع مستعمرات بلاده. وعبثاً حاول الكاهن إقناعه بأن هذا الضياع عارض، وأنهم حين يتولون زمام الحكم يكون فى استطاعتهم أن يقضوا على فتن المستعمرات بأقل جهد.

واضطر توت عنخ آتون أن يعمـــل بمفرده، فأرسل إلى «أزيرو» يطمئنه ويشجعه على مواصلة زحفه. وسرعان ما انحدرت جيوش الخـائن جنوباً حتى وصلت إلى أبواب «صميره»، فأصبحت تهدد معقلا من أمنع معاقل المصريين فى آسيا إذكان سقوط «صميره» معنـاه أن تصبح «تونب» (بعلبك) و«صيدون» و «بيلوس» تحت رحمة أزيرو يستولى عليها من أيسر سبيل.

لهذا أسرع حكام المدن الثلاث المهددة يطلبون النجدة من فرعون. وبكر

كاتب البلاط ذات صباح إلى « أخناتون » برسائل الولاة فسأله عما تحويه فأجاب الكاتب :

ــ لا شيء يا مولاى غير الفتن والثورات .

ــ حدق «أخناتون» فى كاتبه برهه وفكره ملتطم بخواطر متباينة ثم قال :

ــ أى ثورات ؟ حدثنى هل أرسل « بك » ما ينبىء بإتمام معبد الفيوم ؟

وهكذا حفظت رسائل الولاة إلى جانب أخواتها السابقة ، فضاقت بها المكتبات ، حتى صار كتبة البلاط يتنادرون فيما بينهم فيقولون :

ــ يجب على الملك أن يستغنى عن أحد معابده فيحوله دارا لحفظ الرسائل الآسيوية .

وما انقطع سيل الرسائل بل ازداد . ودخل « نخت » الوزير يوما على فرعون مهرولا ، وبيده ورقة يلوح بها ، فبادره أخناتون قائلا :

ــ رسالة أخرى يا «نخت» . أليس كذلك ؟

ــ مولاى إن الأمر جلل . ولم يبق مناص من إعلان الحرب .

ــ الحرب . . . لاتذكر هذا اللفظ أمامى . اقرأ على ماتحوى الرسالة .

ــ مولاى . إن « رب أدى » حاكم « ببلوس » وأخلص ولاتنا فى سوريا قد عاد يصرخ طالباً النجدة .

ــ أجل لقد زارنى «ربادى» منذ عامين وأعرف أنه مخلص حقاً .

ــ ولكن ليس هذا كل مافى الأمر ياصاحب الجلالة . فتلك رسالة أخرى تدمع العين . إن حاكم «تونب» قد يئس من إجابة جلالتك على توسلاته المتوالية ، فبادر أهل هذه المدينة المخلصة أنفسهم فكتبوا هذا الكتاب ، وبعثوه مع رسول خاص على جناح السرعة .

تنهد « أخناتون » وتناول عنقوداً من العنب فراح يلتقط حباته بشفتيه ثم قال :

ــ اقرأ يا «نخت» .

أمسك الوزير بالرسالة وأخذ يتلوها على مسامع الملك الهادىء :

«إلى سيدنا ملك مصر ، من خدمك أهالى «تونب» ،علك ترفل فى صحة وعافية.»
«نحن جميعاً نسجد تحت قدميك. سيدى . إن مدينة « تونب» تتساءل الآن قائلة :»
«لم يجرؤ أحد على سلب «تونب» فى عهد «تحتمس الثالث» إلا وسلبه ذلك الملك .»
«ألا فليعلم سيدنا فرعون أن إله مصر لا يزال يعبد بتونب ويسع جلالتك أن»
«تتأكد صدق ذلك من كبار قومك. لقد أوشكنا أن تنفصل من مملكة مصر. وإذا»
«ما تأخر وصول الجنود والعجلات من مصر. فإن «أزيرو» سيعاملنا كما عامل المدن»
«التى استولى عليها. وحينئذ يعمنا الكدر، كما يصيب الأسى جلالة ملك مصر، حيث»
«تقترب منه قوات «أزيرو» الذى لن يتأخر حينئذ عن رفع يده لمقاتلة قوات سيدنا»
«صاحب الجلالة .

« إن تونب تبكى بكاء مراً ولا مغيث لها . ولقد ثابرنا على بعث الرسائل إلى
« سيدنا ملك مصر عشرين سنة فلم تصل إلينا منه كلمة واحدة » . (١)

ما أن أتم « نخت » قراءة الرسالة حتى دخل « توت عنخ آتون » وفى إثره «سمنكرع» فرفع إليهما الملك بصره وقال :

ـــ أتراك تحمل استغاثة أخرى يا توت عنخ آتون ؟ على بها فيبدو أننى مخصص هذا الصباح لسماع الاستغاثات ، يالضيعة الوقت . . .

ضحك الأمير الوسيم وقال :

ـــ ممن الاستغاثة ياصاحب الجلالة ؟

ـــ من صديقنا الخائن « أزيرو » . من غيره ؟

فأجاب « توت عنخ آتون » علائم الدهشة وقال :

ـــ « أزيرو » خائن . . . من قال هذا ؟

ـــ يخيل إلى أن حصا الأرض يستغيث منه اليوم .

ـــ أو يصدق مولاى هذه الأراجيف؟ إن «أزيرو» أخلص ولاتنا بلاشك .

---

(١) منقولة بتصرف عن إحدى الرسائل المعروفة بخطابات تل العمارنة

ولقد أثبت خضوعه للعرش حين بعث إلينا بتلك الجزية العميمة فى العام المنصرم.

والتفت « توت عنخ آمون » إلى الوزير فسأله :

— عن أتتك هذه الأنباء يا « نخت » ؟

فأجاب الوزير قائلا :

— « رب أدى » والى « بيلوس » .

— من « رب أدى » . . . هذا يفسر المشكلة .

فسأل الملك قائلا :

— ماذا تعنى يا توت عنخ آتون ؟

— إن لهؤلاء الأسيويين يامولاى عقلية غريبة لانفهمها ، ومنهم من لا يستطيع العيش إذا أعوزة الدس والإيقاع ، فتراهم يشون بغيرهم ليرتفع قدرهم عند فرعون . ولطالما توجست خيفة من « رب أدى » هذا يا مولاى . فلما زار « آخت آتون» منذ عامين قويت شكوكى فيه .

قطب الملك جبينه وقال :

— من أين لك هذه الأفكار يا « توت عنخ آتون » ؟ إننى حين رأيت « رب أدى » أوحت إلى طلعته بالثقة والاخلاص .

هز الأمير رأسه وقال :

— لا يامولاى . فلقد أخفيت عنك أمرهذا الوالى حتى لا أعكر عليك صفو حياتك . « فرب أدى » لم يحضر إلى مصر إلا ليتصل بكاهن آتون . إن رب أدى هو الخائن.

نهض الملك مغضباً وصاح فى الأمير :

— من حدثك بهذه الأراجيف « ياتوت » ؟

فأجاب « توت عنخ آتون » فى هدوء قائلا :

— لقد طلب منى ذلك بنفسه . ولو أنك ذهبت إلى « بيلوس » يا صاحب الجلالة ، لما وجدت فيها من المعابد المصرية غير معبد واحد . هذا المعبد هو

للإله « آمون » .

ــ أما يزال لآمون معابد ؟

ــ إنك حين أغلقتها فى مصر يامولاى ، عمد « بتاح موس » إلى نقلها إلى المستعمرات وألحق بها معظم كهنته .

وساد الصمت فى حجرة العرش . وبعد فترة تنحنح الوزير وقال مخاطباً « توت عنخ آتون » :

ــ إن « رب أدى » لايمكن أن يكون الخائن أيها الأمير . فليس وحده المتهم لأزيرو ، بل يشاركه فى هذا كل حكام سوريا الشمالية

التفت الأمير إلى الوزير ثم قال فى سخرية :

ــ أتستبعد « يانخت » أن يكونوا جميعاً عصبة من الخونه يعملون على ستر دسائسهم بالوشاية بغيرهم ؟

لم تكد أصداء كلمات الأمير تتزايل حتى دخل «حور محب» مندفعاً وفى إثر جندى مصرى معفر الثياب ، فما إن توسط حجرة العرش حتى صاح قائلا:

ــ ياصاحب الجلالة . . .

غير أن أخناتون رفع يده يأمره بالسكوت وقال :

ــ أعرف ماستقول يا« حور محب » . إنكم جميعاً فقدتم رشدكم.

ولكن القائد أستأنف كلامه مندفعاً :

ــ كلا ياصاحب الجلالة . فلا يتأتى لخيال مولاى مهما ترامى أن يتكهن بما حدث . إن مصر يامولاى قد أهينت أعظم إهانة لحقتها فى التاريخ .

تأمل أخناتون قائده لحظة ثم قال :

ــ إن مصر لا يمكن أن تهان يا « حور محب» ، لأنها لاتضع شرفها فى أيدى الرجال .

ــ استمع إلى ياصاحب الجلالة واحكم بنفسك . لقد جاءنى هذا الرسول منذ قليل ، فأخبرنى أن أزيرو قد اقتحم حصون « ضمـــيرة » فسواها بالأرض دكا وإحراقا ، ثم حاصر قصر الولاية فهدمه وقتل حاكمنا المصرى .

ما إن أتم «حور محب» حديثه حتى اندفع الوزير يقول :

ــ إن «أزيرو» هو أكبر خائن للعرش ياصاحب الجلالة . لم يعد فى ذلك ريب

وصاح « حور محب » فى إثره قائلا :

ــ إننى أستطيع أن أجهز حملة قوية فى ثلاثة أيام، إن أصدرت إلى الأمر ياصاحب الجلالة .

هوى أخناتون بقبضته على المنضدة وصرخ فى رجاله قائلا :

ــ صمتاً أيها السادة. هل مسكم خبل! لن أسمح لك بتجهيز حملة يا «حورمحب» ولكنى سأعد لجنة أرسلها عن قريب إلى « ضميرة » لتتبين ماحدث ، وتجرى تحقيقها فيه . فإن ظهر أن « أزيرو » هو الذى دك حصونها وهدم منازلها، فسآمره بأن يعيد بناء المدينة من ماله الخاص .

لم يسمع «حور محب» فى حياته بمثل هذا . إنه يكاد يكذب أذنيه .

ــ ياصاحب الجلالة . . من قال إن خطر الحرب يدفع بلجان تحقيق . . .

أجاب الملك فى تمالك وهدوء :

ــ أنا أقوله .

ــ ولكن ياصاحب الجلالة . . .

ضاق صدر الملك فنهض من مجلسه وقاطع قائده بصوت ضازم قائلا :

ــ كفى ياحور محب . واستمعوا إلى أيها السادة . إن شفتى لن تنطقا ماحييت بإعلان حرب على شعب ما ، ولن أسمح لنفسى مادمت فرعون مصر بأن أهدر دماً بشرياً . لهذا أقسمت بألا أغادر مدينة « آخت آتون » ، وسوف أحافظ على قسمى .

إذن فقد كان هذا هو المعنى الخفى لقسم الملك . . . الملك لن يحارب ماعاش

وساد صمت محرج لم يجسر أحد على إنهائه بكلمة . وأخيراً التفت الملك إلى « سمنكرع » فقال له فى هدوء عميق لاينبىء عن تلك الأزمة الحادة التى لا تزال مستولية على أفئدة معاونى الملك .

ــ لقد فكرت صباح اليوم فيما كنا نتحدث فيه بالأمس يا « سمنكرع » .

وفتح « سمنكرع » فاه ، فتكلم أول مرة منذ دخل على الملك .

ـــ أى موضوع تعنى ياصاحب الجلالة ؟

ـــ عن الروح بعد الموت . فى اعتقادى أنه لن يكون هناك حساب للميت كالذى تقول الأديان القــديمة إنه يتم على أيدى «أوزوريس». فليس الله كالبشر يؤاخذ الناس على هفواتهم ، بل إن «آتون» يغفر كل شىء .

ـــ إذن لن يكون فى الآخرة جحيم ؟

ـــ لا يا«سمنكرع» فالآخرة جنة فقط .

ـــ كيف يامولاى ... وهل تحوى الجنة شرار الناس وخيارهم جميعاً ؟

ـــ لم أقصد هذا يا«سمنكرع». فإن الرجل إذا كان شريرا لا أمل فى صلاحه، أصبح غير جدير بأن تكون له حياة أخرى ، فينتهى وجوده بموته ، شأنه فى ذلك شأن الحيوان. أما إن كان فساد نفسه عارضا، فإن شفقة آتون تسعه فيضمه الله إلى عداد الخالدين . وهناك وسط الجمال والنور لا بد أن يهتدى قلبه .

* * *

عادت اللجنة التى قصدت سوريا لتحقق فى تخريب «صميرة» ، فأخبر رئيسها الملك بأن إدانة «أزيرو» لا شك فيها . واجتمع رأى البلاط على أن أقل جزاء يستحقه هذا الخائن هو إهدار دمه، على حين أصر «توت عنخ آتون» على أنه برىء. أما الملك فلم يستمع إلى نصيحة أحد من مستشاريه، بل أنفذ إلى «أزيرو» رسولا يكلفه بإعادة بناء المدينة خلال عام ، وإن يرد كل ماسلبه إلى أصحابه .

وانقضى العام دون أن ينفذ «أزيرو» أمر الملك، إذ كان مشغولا بسلب وتحطيم مدن أخرى . ورأى «توت عنخ آتون» أن شريكه الخائن يزداد موقفه حرجا على ترادف الأيام . وخشى أن يؤثر أعوان الملك فيه، فيحملوه على أن يجرد عليه حملة قد تقضى عليه قبل أن يتم الاستيلاء على بقية الولايات المصرية . ولهذا أرسل إليه يطلب منه الحضور بشخصه للقاء فرعون .

وكانت هذه الخطة بالغة فى الجرأة، تنتابها المخاطر من كل جانب . ومع ذلك صادفت هوى فى قلب «أزيرو» المستهتر فأسرع بالحضور إلى مصر . وانعقد لسان أهل «آخت آتون» وهم يرون الخائن الذى أصبح اسمه على كل شفة ، يسير أمامهم فى شوارع العاصمة بلحيته الكثة وطلعته المعفرة .

ودخل أزيرو على الملك، فحدثه حديثاً طويلا عن سوء الحالة فى سوريا، وتهديد الحيثيين لمدنها وموانيها، وكيف أنهم حشدوا أسطولا قويا لمنع أى مدد يرد من مصر . واختتم حديثه قائلا :

ــ فكيف كنت تريدنى أن أصلح « صميرة » يا صاحب الجلالة ، فى حين أن محاربة الحيثيين لا تترك لى فرصة للنوم . إننى يامولاى الحاكم الوحيد فى سوريا الذى يكافح هؤلاء البرابرة . ومع ذلك فقد روى لك القوم عنى أحاديث مكذوبة ليشوا بى عند مولاى . أما الحقيقة فهى أنى لم أخرب « صميرة » ولا غيرها من المدن، إلا لكى أمنع وقوعها فى أيدى الحيثيين . والشاهد على صدق قولى يامولاى هو أننى أوالى إرسال الجزية السنوية فى موعدها المضروب .

وصمت (أزيرو) ساعة ثم عاد يقول :

ــ لقد جئت إلى مصر لكى أضع نفسى تحت تصرف مولاى . فإن شئت قطعت رأسى ، وإن شئت أطلقتنى لأكافح الحيثيين ، ولأدافع عن مستعمرات سيدى فرعون ، الذى أعفر رأسى تحت قدميه .

حدج الملك المخلوق الآسيوى القائم أمامه دون أن يتكلم ، وبعد فترة طويلة نهض من مقعده وقال :

ــ إننى أيها الحاكم لا أكذب أحداً فيما يقول ، فقد يكون صادقا حقاً . وإن كان كاذباً فلست أنا الذى يحكم عليه . انطلق ...

* * *

وانطلق «أزيرو» فلم يمض شهران حتى وردت الأخبار بأنه يحاصر «بيلوس» ورأى قصر « رب أدى» مخاً كثيرة ، فطالما توسلت إليه زوجه وبناته بأن ينشق على فرعون ، ويعلن ولاءه لأزيرو حتى ينجو بنفسه وبهن ، فكان الحاكم المخلص يرفض بإصرار . وأخيراً تمكن « أزيرو» من دخول المدينة، فأخرج « رب أدى» من قصره ، ومثل به أشنع تمثيل ، ثم قتله على مرأى من زوجه وأولاده ، الذين لم يتأخر عن الفتك بهم حتى يمحو كل أثر لألد أعدائه بأساً .

هكذا فقدت مصر أخلص حاكم لها فى سوريا ، دون أن يمد فرعون يده لإنقاذه . . .

الفصل الخامس عشر

العـاصفة

اجتمع مجلس البلاط ساعات الصباح، وحمى النقاش بين أعضائه والملك منصت لاينبس . وكان قدمضى على سقوط «ببلوس»وقتل «رب أدى»عام استولى «أزيرو» فى خلاله على سوريا بأكملها. وخشى « سيبليل » ملك الحيثيين إن هو ترك « أزيرو» واصل الهجوم على فلسطين أيضاً ، أن تعظم شوكته فيصبح مصدر خطر بعد أن كان أداة فى يده . لهذا فقد أحجم عن مساعدته ، وأولى عنايته قبائل « الخابيرى » المرابطة فى صحراء الأردن . وبدأ هؤلاء البدو مهمتهم فاستولوا على أكثر من نصف فلسطين . وضج الولاة المصريون بالشكوى والاستغاثة كما فعل حكام سوريا من قبل ، فما تزحزح أخناتون عن موقفه منهم ، وظل يرفض فى إصرار إرسال أية نجدة عسكرية لمساعدتهم . واشتد عجب المصريين حين سمعوا أن ملكهم قد نظم طرق هجرة الولاة المهددين ، وعين لذلك ضابطاً ومعاونين للإشراف على سلامة من يريد الارتحال إلى مصر هرباً من خطر الغزو.

ماذا يقصد الملك ؟ كان هذا السؤال يتردد على كل شفة ، حتى أصبح الشعب فى حيرة من أمره ، لايدرى إلى أى المصائر هو مسوق . ولكن سرعان ما أجاب «بتاح موس» على تساؤل الشعب المتلهف، فانتشر أعوانه يوسوسون فى الصدور بأن فرعون الخامل الجبان ينوى التخلى عن المستعمرات المصرية التى اكتسبت بأرواح الأبطال ورويت بدمائهم . وراحوا يصورون للناس المستقبل الحالك حين تجرد مصر من أعظم مصادر ثروتها، فينقطع ورود الجزية الأسيوية العميمة، وتصبح الدولة والناس فى فقر مدقع . ولن تمر أعوام قليلة حتى يعود عهد الرعاة المتوحشين ، فترزح مصر تحت نير استعباد المحتلين كما كانت من قبل . أما السبب فى هذه المحن جميعاً فجلى لايحتاج إلى تذكير . فقد تركت مصر آلهتها الأقدمين ، الذين قادوها فى طرق النصر والرخاء وجعلوا منها زعيمة الكون ، والمرء إذا ترك آلهته فليس

له إلا أن ينتظر الرزايا والمصائب ، فإن انتقام الآلهة سريع جبار . أما طريق الخلاص من هذه البلايا فواضح أيضاً . إنه « آمون » على رأس جيش باسل ، يقوده ملك مؤمن مقدام .

ولم تجد هذه الكلمات المعسولة عسرا فى النفوذ إلى قلوب شعب مصر . فقد بادروا الى عهد قريب للغزو والفتح ، فكيف يحتملون اليوم تلك الإهانات المتكررة يوجهها اليهم برابرة متوحشون، أو يسكتون على سلب مستعمراتهم واحدة بعد واحدة . . لم يكن الأمر فى اعتبارهم رزقا يحاولون الاحتفاظ به ، ولكنه شرف مثلوم يهبون للذود عنه .

هذا الذى يعج به الشعب فى الطرقات ، هو ماكان يردده رجال البلاط على مسمع فرعون . ولقد انتظم هذا النغم كل معاونى الملك ماعدا «توت عنخ آتون» و «حور محب» ، اللذين دأبا على مؤازرة الملك فى سياسته السلمية ، إطاعة لأمر زعيمهما . ولقد اضطر «حور محب» أخيراً إلى النزول عند إرادة الكاهن . فقد كان يعتقد أولا أنه يستطيع حمل الملك على بعثه على رأس جيش قوى يقوده إلى النصر ، فإذا رجع الى مصر وجد إسمه ذائعاً فى ربوعها ، وقد يستطيع حينئذ أن يحقق أطماعه دون معونة «بتاح موس» . غير أن مسلك الملك أفسد كل خططه ، فلم يجد بدأ من الرجوع إلى حظيرة الكاهن وإلا أفلتت منه الفرصة الى غير رجعة .

وباستثناء هذين اللذين كانا يتكلمان بوحى من سياسة « الخبز والسمك » ، كان أخناتون وحيداً فى موقفه لا يعضده فيه غير زوجته «نفرتيتى» . وحتى «سمنكرع» — مع شدة إخلاصه للملك — عارض سياسته فى صمت ، فكان يحضر الاجتماعات المتكررة دون أن يبدى رأياً . فقد بدت مصر فى هذه الحقبة الحرجة أعز لدى الجميع من كل شىء — حتى ديانتهم الجديدة . لم تكن تحوى صدورهم غير صيحة واحدة : «مصر أولا . . .» .

أما أخناتون فقد عرف يقيناً أن اليوم تجربته الالهية . لقد بذل له سيد « آتون » طوال الأعوام الذاهبة كل عون وإرشاد . لقد كشف له عن سر الوجود وحباه بعطفه وشفقته ، فمن حق الإله اليوم أن يجرب عبده . وكما

كانت رحمة «آتون» عميمة ، فلا بد أن تكون تجربته جبارة . إنها قد تقتضى من عبده التفدية بعرشه وحياته وعائلته . فهل هو مستعد لذلك ؟ .

إلا أن الشعب — حتى أصدقاء الملك ومعاونيه — لم يكونوا يفهمون ذلك ، ولم يكونوا قادرين على فهمه . قد تكون هذه المحنة تجربة للملك حقاً . ولكن ماذنب مصر بأسرها فى أن تتحمل وزرها ، فتدفع ثمنها من شرفها ، ومن قوت بنيها ، ومستقبل عهودها . . .

لاعجب إن كانت جلسة البلاط فى هذا اليوم حادة صاخبة . إنها الجلسة الثانية عشرة من سلسلة الجلسات التى عينت لدراسة المشكلة الأسيوية . وفى كل اجتماع تبح أصوات معاونى الملك فى النصح والاستعطاف ، وهو لا يتحول عن موقفه . أفلم يكن من مصلحة الجميع أن يوجه الملك هذه العزيمة الجبارة التى يناهضهم بها إلى القضاء على الخطر الأسيوى ؟ .

وفى هذا اليوم كان الشعب قد عيل صبره لطول تردد الملك، فاحتشدت جموعه حول القصر تنتظر نتيجة الاجتماع . ولم تكن هذه الجموع سوى ثورة صامتة ، تنقلب عاتية مدمرة طوع أول إشارة تصدر من «بتاح موس» . وكان الوزير «نخت» حين يقع بصره على هذه الجموع فى غدوه إلى القصر ورواحه منه ، يشعر بالخوف يملأ قلبه ، إذ يخيل إليه أنهم قد يهجمون عليه فى أية لحظة، فيقطعونه إرباً إرباً . وشمل هذا الجزع كل أصدقاء الملك ، فلازموا دورهم وامتنعوا عن الظهور فى شوارع العاصمة . أما أخناتون فقد كان مريضاً يلزم الفراش أغلب يومه ، ويحملونه إلى حجرة العرش فى سرير تتكاثر عليه الوسائد . ولكنه إذا ماخفت عنه وطأة المرض ، ينزل كعادته للتنزه فى الحدائق المحيطة بالقصر، فيقابله الشعب بالوجوم والصمت ، وحينئذ شعر بأن هذا الشعب الذى كان دائماً قريباً من نفسه، أصبحت تفصله عنه اليوم هوة سحيقة أبعدته عنه . ولم يكن هذا الشعور جديداً لدى الملك ، فقد كان فى الأيام الأخيرة كلما ازداد تفهماً لتعاليم «آتون» وأمعن فى تطبيقها . أحس بأن البون بينه وبين شعبه يزداد اتساعاً ، فأدرك فى حزن ممض

أن شعبه لم يكن قد نضج بعد لقبول الدين الجديد ، وعرف أنه قد هبط إلى الأرض قبل زمنه الملائم بأعصر طوال .

حين افتتح الاجتماع فى هذا اليوم، فاجأ الوزير « نخت » أعضاء المجلس بقوله إنه يقدم استقالته من منصب الوزارة .

فالتفت إليه أخناتون وسأله فى سكون :

— لم يانخت ؟

— لأننى لا أستطيع تحمل تبعة الموقف الذى يتخذه مولاى .

— ولكنك لا تتحمل تبعة ما يا «نخت»، فأنا فرعون المسئول الوحيد فى الدولة .

وهنا وقف «نخت»، وبدا عليه إنه يتأهب للإفاضة فى الكلام ، فقال :

— هناك تبعة شخصية يامولاى بجانب التبعة الوزارية ، تبعتى قبل نفسى وقبل ضميرى . . . تبعتى قبل الأجيال المقبلة حين تشير إلى ساخرة وتقول : هذا هو «نخت» التعس الذى أذعن لرأى مليكه على الرغم من أنه لايعتقد صوابه .

— ومن أين أتاك أن العهود المقبلة ستدينك بدلا من أن تمتدح مسلكك ؟ إننى شخصياً مطمئن إلى حكم هذه العهود ، وهى عزائى الوحيد فى تجربتى الراهنة .

وهنا صاح الوزير كأنما يخطب حشداً من الجيوش :

— أيمتدح التاريخ مسلكى يامولاى إذ يعرف أننى كنت أرى أملاك بلادى تنسلخ واحداً إثر واحد ، فما رفعت أصبعاً لإنقاذها . . . أيمتدح التاريخ مسلكى حين يذكر حفدتى أننى كنت أعلم الناس باقتراب خطر الغزو من حدود مصر ، ومع ذلك وقفت مكتوف اليدين ... هل نسيت يامولاى أن جموع الغزاة تقترب الآن من بيت المقدس، فإذا بلغوه أصبحوا على مسيرة يوم واحد من حدود مصر؟ يوم واحد هو الذى يفصلنا عن خطر القتل والتدمير ياصاحب الجلالة ، ومع ذلك فنحن لم نعد للكفاح جندياً واحداً . . .

نظر الملك الى وزيره ملياً ، ثم قال :

— هدئ من ثورتك يا « نخت » ، ولا تفتن نفسك بهذه الألفاظ الضخمة .

أتحسب انني لم أكن أعرف كل ما ذكرت ؟ ومع ذلك فإن بيت المقدس لم يسقط بعد .

أجاب الوزير قائلا :

ـــ ولكنه سيسقط ياصاحب الجلالة .

ـــ من الذى سيسقطه ؟

ـــ حكام فلسطين الخونة الذين استنجدوا بقبائل «الخابيرى» .

وحينئذ صاح الملك صيحة مرعدة :

ـــ فليسقط إذن ... إن كان أهل هذه الأقاليم لا يرتضون حكمى فلم أجبرهم عليه ؟ أليس من حقهم المشروع أن يستقلوا بأمر أنفسهم ؟ .

استغرق الوزير تعجب شديد ، فقال وهو مشدوه :

ـــ أيكون هذا حقاً مشروعا ياصاحب الجلالة ... إن الحق المشروع هو أن يحتفظ الغازى بما كسب .

أجاب أختاتون فى هدوء قائلا :

ـــ كما يحتفظ اللص بما سرق ؟

سكت الوزير فلم يجب . وساد الصمت حيناً إلى أن قطعه صوت « سمنكرع » وهو يقول للملك :

ـــ ولكننا ياصاحب الجلالة قد نصبح بعض مايسرقه اللص إذا نحن تركنا الثوار يسعون إلى حدودنا .

ـــ ولكنهم يا « سمنكرع » لم يستولوا إلى الآن إلا على أرضهم وديارهم . فكيف تريدنى أن أمنعهم من ذلك وهم لم يمسوا وطنى بسوء ؟

ـــ فإن فعلوا ياصاحب الجلالة ؟

صمت الملك وأطرق ، فثبت القوم عيونهم فى وجهه . وأحس بهذه الأبصار المتطلعة إليه كما يحدج القضاة جانياً ، فاكتأبت نفسه ، وجاشت التعاسة بصدره تعتصره بأيد من حراب . وكاد يبكى على مرأى من وزرائه وقواده . فقد شعر

بأنه بات وحيداً ، شريداً ، لايعضده فى محنته صديق .

وحيد . . . أجل . بل منبوذ طريد . إنه كأسد مثخن بالجراح ، تنهال عليه رماح قناصيه من بعيد ومن قريب ، ثم يتركونه ملقى فى جوف البرارى الموحشة بغير رفيق ، إلى أن ينزف دمه فيموت بين الصخور ، وتصبح جثته نهباً للذئاب والغربان . أعدل هذا . . . أتكون تلك النهاية التعسة جزاء لمن لم يقصر حبه على البشر بل شمل به كل بهيمة ونبت ... أبعد أن أفنى حياته وصحته فى أسو جراح قوم وإسعاد نفوسهم ، يكون هؤلاء القوم أول من يهدر دمه . . .

أجل . إنه كذلك . كان عليه أن يعلم قبل فوات الأوان أن الناس يكرهون من يحبهم ويحبون من يظلمهم . فهو لو قام فيهم اليوم قومة عات جبار ، لدانت له الرقاب ، وتطلعت إليه الأعين بالإعجاب . ولو أنه أمر الساعة بدق عنق الوزير ، لكان أول المبهورين بعمله . وإن هو ألزم سكان كل قرية بأن يقدموا عشرة من أهلهم قرابين للآلهة ، لعبده الناس ولتفانوا فى إظهار طاعتهم وإخلاصهم . هذا هو الذى اهتدى إليه بعد جهاده الطويل . إن البشر لا يقدس إلا القسوة ، ولا يدين لغير الظلم . إن جلال النور يؤذى بصره ، فهو يعيش فى الظلمات . وكأنما البشر نوع من الخفاش أو البوم ، دائماً يألف الحلك .

الظلام والقسوة والظلم هى الأعمدة الثلاثة التى تبنى عليها الإنسانية هيكلها . فإذا وجد من يقول هذا خطأ ، أو اكتشف من يحاول هدم هذه الأسس الثلاثة أو بعضها ، ارتاعت الإنسانية أشد ارتياع ، وانقلبت عليه بأسرها لتطرده قبل أن يطرد قبحها ، ولتشرده قبل أن يشرد زيفها ، ولتحطمه قبل أن يحطم أصنامها . حينئذ تتنفس الإنسانية الصعداء ، فقد أزيح عن عاتقها أكبر خطر يهدد حياتها المعتمة : المصلح أو النبى . فإذا اطمأنت إلى أنها سدت كل منفذ يمكن أن يمرق منه بصيص من الحب أو العدل ، استأنفت عجلاتها الدوران ، لتنشر الحقد والجهل فى النفوس ، فتحصنها من كل خطر مستقبل يأتى به نبى جديد .

طافت هذه الخواطر فى رأس « أخناتون » وهو مطرق يفكر فى سؤال « سمنكرع » له : « وإن فعلوا ؟ » . ولم يكن ما التزمه من صمت حينئذ مرده تردد

أو فقد ثقة ، فقد كان يدرى يقينا جواب هذا السؤال بل يؤمن بصحته . ولكن ماشعر به من انقباض قلبه جعله يهز كتفيه قائلا لنفسه « ما الفائدة . . » فالرجل لا يقتنع إلا إن أراد الاقتناع . فإذا لم تواته هذه الرغبة فلن ترضيه أسطع الحجج ، ولن يستهويه أفصح البيان . أما الرجال الملتفون حوله فلا يريدون الاقتناع الا بعكس رأيه . فالكلام معهم نفخ فى طبل مثقوب ، وهو مريض منسرق القوى . .

وقطع الملك حبل الصمت فرفع رأسه وقال :

ـــ أيها السادة . إننى أشعر بتعب . فسأنسحب الآن لأستريح على أن نستأنف اجتماعنا بعد الظهر .

ونهض الملك فنهض الجميع . وتقدم « سمنكرع » ليأخذ بذراعه فأبعده بإشارة صامتة . ثم أخذ يشق طريقه فى ضعف وتعثر بين وجوه أعوانه العابسة .

لم يكد يستقر بالملك المقام بجوار زوجته الحادبة عليه تطببه ، حتى أتاه رسول يخبره بأن المجلس قد عاد إلى الاجتماع ، إذ وردت أنباء خطيرة من فلسطين تتطلب تدبيراً عاجلا . وشاء الملك أن يرسل إلى معاونيه يخبرهم بإنه لن يتمكن من حضور الاجتماع . فقد كان المرض يمزق صدره ، وسهر الليالى الماضية يوشك أن يدفع بفكره المحموم إلى الجنون . ها هو ذا يستلقى على فراشه يتلوى كألسنة النار ، وقد انبهر تنفسه فصار يلهث فى عنف ، وإلى جواره جلست « نفرتيتى » أثمن درر الأرض ، تبسم له وتعابثه على الرغم مما يصهر قلبها من الألم . إن أيامه على الأرض معدودة ، وجدير به أن يقضى ساعاته الأخيرة إلى جوار هذا النبع الجميل من الحب ، بدلا من أن يصرفها فى الاستماع إلى جعجعة الأغبياء والجهلاء من وزرائه وقواده . فهم لا يريدون غير المتاجرة بما يصورونه لأنفسهم وطنية نبيلة ، ولا يلذهم سوى أن يسمعوا أنفسهم يتكلمون الساعات الطوال عن الشرف والشجاعة والتاريخ . فليتركهم يتكلمون ما قويت ألسنتهم . . فماهم إلا ببغاوات ثرثارة ، لاتحوى نفوسهم قطرة من عاطفة صادقة .

غير أن « نفرتيتى » الباسلة كانت فى هذه اللحظة أصلب عوداً من الملك ، فانحنت على زوجها وقبلته قائلة :

ـــ لا يا أخناتون . . إن واجب فرعون يقتضيه أن يرأس مجلس البلاط . فهو مكانك . .

ثم أنها دلكت فوديه وجبينه بالعطر ، وأعدت له شراباً ساخناً وظلت تسامره إلى أن شربه ، فاصطحبته بنفسها إلى باب حجرة العرش ، فضغطت يده ثم قبلته وانصرفت .

كان القوم يتصايحون ويشتدون فى المجادلة ، فما إن أقبل عليهم الملك حتى عنت الجباه وخيم الصمت . حيا أخناتون رجاله وجلس على العرش وهم لايزلون على صمتهم . لقد قر قرارهم قبل مجيئه على أن يبادروه بثورة مرعدة، يحطمون بها إرادته ويغلبونه على رأيه . وها هو ذا قد بدا بينهم . . فماذا دهاهم ومن ألجم ألسنتهم ؟ حقاً إن هذا الملك ليس ببشر ! فهو مملوء بالقوى الخفية ، والرهبة النافذة. وإن له إرادة صامتة جبارة تسحق إرادتهم المجتمعة دون أن ينبس بلفظ .

تنهد الملك فى استطالة ثم أسند جبينه إلى كفه وقال :

ـــ هات ماعندك يا « نخت » .

اعتصر الوزير ذاكرته لتوافيه بخطبته المنمقة، فلم يجد فى رأسه كلمة منها . وبحث عن سبيل حججه التى أزمع سردها على مسمع الملك ، فلم يصادف غير اللعثمة تعقد لسانه . وأخيراً قال :

ـــ ياصاحب الجلالة . . لقد . . أتانا اللحظة جندى مهلهل الثياب . .

ابتسم الملك فى حزن وقال :

ـــ إنهم جميعاً يأتوننا مهلهلى الثياب، فهذا من مستلزمات دورهم . وإن من نظر منهم إلى ثيابه فوجدها غير مهلهلة ، أسرع فى تمزيقها بيديه قبل أن يمثل أمامك . لابأس يا « نخت » ، أكمل . .

زاد اضطراب الوزير فعاد يتمتم قائلا :

— أخبرنى هذا الجندى أنه الوحيد الذى استطاع الفرار من بين جند جلالتك المرافقين لقافلة الجزية السنوية التى كنا ننتظر ورودها بعد أيام .

— شىء محزن حقا . وإن بدو الخابيرى قد سطوا على القافلة فنهبوا كل دابة فيها وأجهزوا على كل جندى . أليس كذلك يا «نخت» ؟

أومأ الوزير قائلا :

— الأمر كذلك يامولاى

فأجاب الملك فى هدوء قائلا :

— حسنا . . وبعد ؟

رفع الوزير حاجبيه دهشة وقال:

— ماذا بعد هذا يامولاى ؟

— لقد تلوت على الخبر وحده «يانخت» ، ولكنك لم تسمعنى بعد نواحك وعويلك اللذين عودتنى انتظار نغماتهما المحزنة عقب كل خبر أسيوى . قل ماأعظمها إهانة تلحق بفرعون مصر ! وإنها لأول وصمة من نوعها تلطخ جبين تاريخنا المجيد أن يستخف بكرامة فرعون ذاته فتسلب أمواله بعد أن انتزعت أملاكه . . قل هذا وغير هذا من الهواء الفارغ الذى تملأ به رئتيك .

أساء الوزير أن يعرض به الملك على هذا الوجه أول مرة فى حياته، فحرق أنيابه وقطب قائلا :

— لعل الملك يسيئه نصحى ؟

— لا يا «نخت» ولكنك كغيرك من الناس فدية مسكينة من صرعى الكلام . يرن فى الجو لفظ «الشجاعة» فتعمى الأبصار ، ويتلوه « الشرف » فتصم الآذان ، ويعقبه « الوطن » فتلغى العقول . وإذا الشعب بأكمله قطيع من جرذان عمى صم لا يفقهون، لأن بعض الكلمات الفارغة قد قرعت الآذان . هكذا كان كل من سبقنى من الفراعنة يوجهون سياستهم بالكلام للكلام ، دون أن يعنى أحدهم بالمعنى واللب فلم يسأل فرعون منهم نفسه مرة : ماهى الشجاعة وما الشرف وما الوطن ؟ بل كانت جميعها عندهم مترادفات لكلمة واحدة هى الحرب . فالشجاعة هى الحرب

والشرف هو الحرب والوطن هو الحرب . ثم لم يسأل واحد منهم نفسه عن معنى الحرب ، فهى عندهم الشجاعة والشرف والوطن بلا سؤال . وهكذا تتم حلقات تلك الدائرة المشئومة التى طالما نكبت العالم فى الماضى ، وستظل تنكبه فى المستقبل. ولن تستطيع البشرية خلاصاً من ويلاتها مافتئت بجهلها صريعة الألفاظ الرنانة الخاوية

استراح الملك هنيهة ثم عاد يقول :

ــ لعلكم أيها السادة كنتم تتحسرون فى غيبتى على ماسيجره عليكم ضعف ملك مريض متواكل . ولكننى سأطمئن قلوبكم . فأنا إن امتنعت عن شن الحرب فما هذا لأننى جبان بل لأننى أشجعكم جميعاً ، ولا لأننى خامل بل لأننى أكثركم نشاطاً، وماهو بضعف منى فليس فيكم من يدانينى قوة بأس . ولتعلموا جميعاً أيها المتذمرون أنى لو أردت الحرب لغزوت من البلدان ثلاثة أضعاف ما فتحه جدى تحتمس ، فكفكف بقمع بعض الولاة الثائرين . ولكنى أفضل أن أفقد النطق حتى لاتنبس شفتاى بإعلان الحرب، وأن تقطع يدى قبل أن أسمح لها بأهدار دم بشرى. فالحرب أيها السادة ليست الشجاعة، بل هى جبن الخائف المذعور يهم بالقتل والتحطيم خشية أن يقتل أو يحطم. إنها ليست تهاونا بالموت، بل هى الخوف أشد الخوف من الموت. وليست الحرب هى الشرف، بل هى الغدر والاغتيال والخديعة . أما الوطن فإن من أحبه حقاً كره الحرب. فمن يحب وطنه يسيئه أن يسلب وطن غيره، كما أن من يحب زوجته لايرنو إلى زوجة جاره . أظنكم تستطيعون الآن أيها السادة أن تلمسوا بأنفسكم معنى الحرب . ولعلى أعبر عن شعوركم إن قلت إنها أقبح شىء فى الوجود . ولكنها ليست كذلك وحسب، بل هى أيضاً أكبر خطر يهدد مدنية البشر، لأنها تجعل من جرائم القتل والسرقة والخداع والخيانة أعمالا مجيدة تشرف مقترفيها . . فهل هناك أشنع من نظام لايقتصر على إثارة أحط الغرائز الإنسانية وحدها ، بل يشجع الخلق ويحثهم على ارتكاب هذه الموبقات ، ثم يفخر بهم ويشرفهم إن هم بزوا غيرهم فى التلطخ بأدرانها !

صمت الملك لحظة ثم التفت إلى « توت عنخ آتون » وسأله قائلا :

ــ هل تريد الحرب يا « توت » ؟

ــ كلا وحق آتون ياصاحب الجلالة .

ــ حسنا . . وأنت يا «نخت» ؟

ــ الحرب يامولاى .

ــ عظيم . لو تعهدت لك بأن أعلن الحرب غداً إن قمت الآن فقتلت «توت عنخ آتون» . هل تفعل ؟

هز الوزير رأسه وقال :

ــ كلا يامولاى

ــ ولم يا «نخت» . . . أليس الحرب قتلا ؟

ــ إن الأمر يختلف ياصاحب الجلالة .

ــ أجل . إنه يختلف حقا . يختلف فى أنك فى الحرب ستقتل بدل الواحد ألفا . وفى أنك إذ تقتل «توت» مثلا لأنه يخالفك فى الرأى ، فإنك فى الحرب ستذبح عشرات من الناس بلا جريرة على الإطلاق ، لأنك لاتعرفهم ولا هم يعرفونك . فمن منا أشنع جرما من صاحبه . . . أنا إذ أعلن الحرب ، أم أنت إذ تقتل توت ؟

قبل أن يجيب «نخت» سمع طرق على الباب ، ثم دخل على الأثر كبير أمناء الملك ، فانحنى بين يديه ثم استوى قائلا :

ــ لقد حضر القصر الساعة يامولاى رسول من آسيا يزعم أنه يحمل أنباء ذات بال .

نهد الملك وألقى برأسه إلى ظهر مقعده وقال :

ــ ها قد عدنا لمهلهلى الثياب . . . لا بأس . هات رسالته .

ــ إنها معى يا صاحب الجلالة .

وأخرج كبير الأمناء لفافة بردية من دثاره ، فألقاها إلى الوزير وانصرف . وكان «نخت» يعلم مبلغ ضيق صدر الملك بهذه الرسائل، فأبقى الكتاب مطوياً فى يده ، دون أن يجسر على فضه وتلاوته . وسرعان مابدا على وجه «أخناتون» ما كان يخشى الوزير حدوثه ، فقد قطب حاجبيه وصر بأضراسه حتى سمع صريفها

فى الحجرة كصليل الأسلحة ، ثم هوى بيده على . المنضدة وصاح ثائراً :

ـــ هيا اقرأ . . اقرأ . . ماذا تنتظر ؟

بدأ الوزير يقرأ الرسالة بصوت مرتجف :

«من والى بيت المقدس خادمك وعبدك . سيدى . لقد سقطت بيت المقدس»
« أخيراً وسوف تضيع جميع أرض جلالتك التى ثارت على . لقد كانت سفن »
« جلالتك الساعد القوى فى بسط سلطتك على بلاد النهرين وكدش . أما الآن »
«فقد احتل بدو الخابيرى بلاد فرعون ، ولم يبق لسيدى والمطيع فالكل عصاه .»
« فليخش الملك على قطائعه وبلاده وليرسل المدد سريعاً . لأنه إذا لم تصل الجنود»
« فى أقرب وقت ذهبت ممتلكات جلالة فرعون سدى ، وأصبحت مصر نفسها »
« تحت رحمة العدو . فإذا ما تعسر إرسال الجنود تواً فليبعث جلالة فرعون ضابطاً»
« يلازمنى للحضور أنا وإخوتى كى نموت مع سيدنا الملك . حاشية . . . »(١)

ولكن الملك لم يترك وزيره يسترسل فى القراءة ، بل نهض بعنف وصرخ قائلا وهو يضغط فوديه بكلتا يديه :

ـــ كفى . كفى...

ظل الملك على وقفته ساعة، ثم أرخى يديه فى بطء واتكأ بهما على المنضدة . ولكن قدميه ما لبثتا أن خانتاه ، فتهالك على مقعده واحتوى وجهه فى يديه . وأخيراً رفع رأسه فتجلت فى عينيه أفجع مأساة عركت صدر بشر . وكان فكه الأسفل يرتعد، ورأسه يتمايل لشدة ما يلهث . وأخيراً فتح فمه وقال بصوت خافت:

ـــ أيها السادة . . سأطلعكم على رأيى الأخير صباح الغد من شرفة القصر .

* * *

علا اللغط فى حجرة العرش بعد انصراف الملك . فقد وضح لدى معاونيه أنه يزمع الاتصال بالشعب مباشرة ، بخطبه من الشرفة كعادته فى كثير من المناسبات . وكان المفهوم لديهم أن الملك لن يتحول عن رأيه ، وأنه إن كلم شعبه فليحاول إقناعه بحرية سياسة السلام . ولذلك توجس « سمنكرع » خيفة من

(١) عن إحدى الرسائل المعروفة « بخطابات تل العمارنة»

نتائج هذه الخطوة الجريئة . فهو يعلم يقينا أن الشعب الثائر لن يقبل إلا إعلان الحرب ، وأن الملك مهما يفتن فى الإغراء والاستمالة ، فمن المقطوع به أن حججه الفلسفية لن تجد أذناً صاغية لدى الجمهور الأعمى المتعصب . أما «توت عنخ آتون» فقد راح يؤكد أن عزم الملك يعتبر أبرع حركة سياسية قام بها فى حياته ، وأنه ينتظر لها نجاحاً يفوق كل المتوقع لما يكنه له الشعب من حب يسمو إلى حد العبادة

وفيما هم يتحاورون أتاهم رسول من قبل الملك فأبلغ « حور محب » أن يسرع إلى لقاء جلالته . فلما غادر « حور محب » الحجرة ساد الجميع شعور بالاستبشار فقال « نخت » :

— إن استدعاء الملك لقائد الجيش دليل على أنه صار أميل إلى إعلان الحرب.

أما « سمنكرع » فقد ازدادت خشيته ، إذ أصبح يساوره فى الأيام الأخيرة شك غامض من جانب « حور محب » . ولقد قوى هذا الشك حين وجد القائد يتحول دفعة واحدة — لغير سبب ملحوظ — إلى النصح بوجوب اتباع سياسة السلم ، بعد أن كان أول المنادين بالنهوض إلى الحرب . فلما عرف « سمنكرع » بعد ذلك بالمهمة التى أوكلها الملك إلى « حور محب » ازداد تشاؤمه ، وحدثه قلبه بأن الليلة ستتمخض عن أمر جلل .

حين دخل « حور محب » على الملك وجده مستلقياً على فراشه، وزوجه قائمة إلى جواره . فلما اقترب منه محاولا التحدث إليه، أشارت إليه «نفرتيتى» بالصمت، فقد كان « أخناتون » فى حال من الإعياء الشديد أسلمه الى غيبوبة متقطعة . وكان الدم يسيل من فمه دون انقطاع ، فتمسحه الملكة بمنشفة وتجفف دموعها بأخرى .

تأمل «حور محب» مليكه المضنى، فأحس بالألم يعصر قلبه، وأوشك أن يسجد إلى جانب فراشه ، ليعترف له بخيانته وليسأله الصفح . اشد ما تجسمت له شناعة جريمته فى هذه اللحظة . . .

غير أن الملك مالبث أن استفاق ثم فتح عينيه فبدتا كأنهما من زجاج ، وقد خبا بصيصهما حتى أشبهتا أعين الموتى . وأخيراً خاطب زوجه بصوت ضعيف قائلا:

— هل أتى « حور محب » ؟

مسحت « نفرتيتى » جبين الملك بماء بارد وقالت :
ـــ إنه بجوارك يا عزيزى .
ثم رفعت كتفيه من فوق الوسادة وأسندتهما إلى صدرها، وقربت من شفتيه كوبا من الماء رشف منه جرعتين ثم أزاحه عن فمه ، وبدأ يخاطب قائده بكلمات خافتة ، إلى أن أعلمه بالمهمة التى يطلب منه أداءها . وأخيراً قال له :
ـــ إن الشعب يعلم أنك من أشجع رجال مصر يا « حور محب » . فلو أنك خطبت فيه اليوم لوثق أن حديثك لم يكن صادراً عن جبن ، بل عن حكمة وبعد نظر .
ـــ حسناً يا صاحب الجلالة . .
ـــ فلتنطلق الآن فى رعاية « آتون » ، عالماً أن نجاحك اليوم فى هذه المهمة ، أحسن تمهيد يعد الشعب لتقبل ما سأصارحه به فى الغد .

* * *

كان فى الجانب الشرقى لمدينة الأفق حديقة متطرفة ، مغروسة فى أسفل القبر الذى حفره « أخناتون » لنفسه فى صخور الجبل . وقبل مغرب الشمس بساعة رئيت جموع الأهلين تتجه وحدانا زرافات نحو هذه الحديقة ، حيث كان المنادون قد جاسوا خلال المدينة يعلنون القوم بأن القائد « حور محب » سيخطب هناك .
سمع «سمنكرع» هذا النداء فتعجب له . إن مدينة الأفق مدينة حدائق ، تكتنفها الساحات المنبسطة فى كل مكان . فلم اختار القائد هذه الحديقة النائية ميدانا لخطبته ! وعاد لذاكرته أنه لمح منذ يومين شخصاً يمرق فى الظلام بصورة تثير الريبة ، فلما اقترب منه وتعرفه ، كاد يجزم بأنه أحد أعوان «بتاح موس » كان يعرفه فى طيبة . فما الذى أتى به إلى « آخت آتون » ؟ إن من أيسر الأمور اليوم إثارة شعب العاصمة المهتاج . فهل تكون هذه العلائم جميعاً مظاهر لتدبير خفى يدبجه كاهن آمون ؟ وكان أن اندس «سمنكرع» فى جموع الشعب ليرقب ماسيكون من شأن هذا الاجتماع.
كان الحشد طامياً ، فوجد « سمنكرع» مشقة شديدة فى الاقتراب من المنصة التى أعدت لكى يلقى منها القائد خطبته . ولحظ وهو يشق لنفسه طريقاً وسط كتل الشعب المتراصة ، أن من بينهم كثيرين ممن لم يقع عليهم بصره فى مدينة الأفق من قبل. من أين جاء هؤلاء الأجانب عن العاصمة ومن أتى بهم ؟ إن من يتفرس فى وجوههم

السمر وشعرهم المجعد وأعينهم الحادة، لا يتردد فى القسم بأنهم من أهل طيبة. يالرحمة اتون ! إن الأمر يفوق فى خطره كل حسبان ، فليس هذا الاجتماع مجرد مصادفة بل هو مؤامرة واسعة النطاق .

ظل الناس يتصايحون ويصخبون إلى أن سمع صوت عجلة مسرعة ، ما لبثت أن وقفت بجوار المنصة فصمتت الأفواه وتطلعت الأعين . قفز من العجلة « حورمحب » بقوامه الممشوق ومن بعده . . . من يكون هذا ؟ « توت عنخ آتون » . . . ولكن شخصاً ثالثاً هم هو الآخر بالنزول فلما واجه الجموع رآه « سمنكرع » فإذا به . . . باللدهشة « مرى رع » رئيس كهنة آتون وأكثر أصدقاء الملك قربا إلى قلبه. . . ووقف ثلاثتهم قليلا يتهامسون، ثم صعد « حورمحب » إلى المنصة ودلف زميلاه وراءها .

استقبل الشعب القائد بوجوم أول الأمر . ثم سمعت صيحات متفرقة كأنها مدبرة ، تتعالى من هنا وهناك فانتشرت العدوى بنوى المكان بالهتاف . وانتظر «حورمحب » إلى أن خفتت الأصوات ، ثم انتظر إلى أن سكنت ، ثم انتظر أيضاً ساعة طويلة كان الصمت فيه مخيما على رءوس القوم ، وبدأ التشوق يلعب بهم كل ملعب . ومع ذلك لم يتكلم القائد بل وقف ثابتاً يجول بعينيه فى الجموع . وأخيراً ضاق صدر الناس، فسمعت بينهم همهمة خفيفة ما إن وصلت إلى أذنى «حورمحب » حتى فتح فاه وبدأ يتكلم . فهذه هى اللحظة التى يحسن به أن يبدأ عندها خطابه حتى تجد كلماته الطريق معبدا إلى قلوب السامعين . وليس عجيباً أن يعرف عنه أنه أفصح خطباء عصره فقد كان ذا معرفة تامة بشتى أنواع الحيل الخطابية التى تخلب أفئدة الجموع . بدأ « حورمحب » خطبته فقال:

« أيها السادة . ياشعب « آخت آتون » . تعلمون جميعاً أننى صديق للملك من قبل أن يتولى العرش . وتعلمون أيضاً أن الملك صديق للشعب (أصوات تقول: لا . لا . لم يعد صديقا) بل هو كذلك . ولهذا فأنا أيضا صديق لكم . يا شعب « آخت آتون » . يعرف جميعكم أننى لم أخن فى حياتى صديقا لى . فما خنت الملك ولن أخونه . فهل بلغ أحدكم أننى خنت الشعب أو أنوى خيانته ؟ (أصوات : لا . لا . أنت صديق الشعب .)

إذن فلتضعوا ثقتكم فى أيها المواطنون ، ولتلقوا إلى بأسماعكم . إن رحمة الملك وحكمته قدشاءتا أن تطرح آلهتنا القديمة،وأن نعتنق ديانة «آتون» السامية(أصوات: ليته مافعل . لقد جاء النحس فى ركاب آتون .) . كلا أيها السادة . فآتون هو إله الحب والسلام . ثم إن الملك رأى بحكمته أن ينبذ « طيبة » عاصمة الدولة القديمة ، وأن ينتقل ببلاطه إلى هذه المدينة الجميلة ! « آخت آتون » . فأطعنا الملك وتركنا طيبة بمغانيها وبحيراتها ، وتركنا الكرنك بمعابده ومقابره حيث يرقد تحتمى بطلنا الأول إلى جوار جدوده الفراعنة العظام (أصوات أشدقوة : نريدالرجوع إلى طيبة ـ العودة إلى العاصمة المجيدة)

أيها السادة . ماكان يحسن بكم التلفظ بهذا الهتاف . فالملك أبعدنا نظرا وهو أعلم بما فيه خير شعبه ووطنه . فإذا كنا قد أطعنا الملك ستة عشر عاما متوالية، فلم تريدون أن نعصيه اليوم إذ يأمرنا بألا ندفع عن أنفسنا أذى الغزاة الأسيويين؟! (أصوات : هذا لن يكون)

إنكم تسيئون إلى بهذه الصيحات أيها المواطنون. فإنه مما يحرجنى ـ وأنا صديق للملك ـ أن أسمعكم تنتقدون سياسته . فهل تودون لى هذا الحرج ؟ (أصوات : إنما أنت صديق الشعب ياحورمحب)

هدئوا من ثورتكم أيها السادة، واستمعوا معى إلى حجج الملك.لقد بلغنا اليوم أن بيت المقدس قد سقطت فى أيدى الغزاة ، فانهار بسقوطها آخر معقل لنا فى آسيا (أصوات مختلطه) . صمتا أيها المواطنون وأصغوا . وهكذا ضاعت كل مستعمراتنا فى فلسطين ، وكل مستعمراتنا فى بلاد النهرين . ولكن الملك يقول ـ وهو محق فيما يقول ـ إن المستعمرات جميعها تعتبر قانونا ملكا لشخصه . فمن حقه أن يتصرف فيها بما يحلو له . له أن يحتفظ بها إن رأى ، وله أن يتخلى عنها إن شاء، وله أن يهبها من يريد . فإن ابتغى اليوم أن يخلعها على أعدائنا الأسيويين فليس لأحد منكم أن يشكو ، لأن الملك إنما يتصرف فى ملكه . والملك لا يخضع لإرادة غير إرادته (أصوات : المستعمرات شريناها بدمائنا . المستعمرات ملك لنا) .

هذا غير صحيح أيها السادة ، واليوم ترامى إلينا خبر شديد الخطر ، ذلك أن قافلة الجزية المؤلفة من عشرة آلاف دابة ـ وهى التى كنا فى أشد حاجة إلى ورودها سالمة ـ قد سطا عليها البدو فاستلبوها جميعاً ، وقتلوا الجنود المصريين المرافقين لها (أصوات) صمتاً أيها المواطنون وأصغوا . فلست بمخف عنكم شيئاً مادمتم قد وثقتم بى . لقد كنا ننتظر هذه الجزية بلهفة بالغة وتشوق عظيم ، إذ أن خزانة الدولة ــ لاختلال ورود الجزية فى السنين السالفة ــ أصبحت اليوم خاوية ليس فيها قطعة ذهب واحدة تنفق فى مصالح الشعب . ولقد رفض الملك أن يأمرنا بمتابعة اللصوص لأنه يقول ــ وهو محق فيما يقول ــ إن الجزية قانوناً ملك له وحده ، إن رأى أن يصرفها فى شئون الشعب فهذا شأنه ، وأن فضل أن يحبسها على خدمة آتون فله ما فضل ، فإن حلا له أن يدعها نهبا للصوص فليس لأحد أن يعترض ، لأن الملك يتصرف فى ملكه ، والملك لايخضع لإرادة غير إرادته (أصوات : لقد آن له أن يخضع . جزية مصر جزية الشعب . شعب مصر لايهان) .

أيها السادة : لو عرفتم كم أنتم تعملون على أن تكون مهمتى عسيرة، لما صرختم بهذه الهتافات التى تحرك كامن أشجانى . إنى صديق للملك . ولكننى أيضا صديقكم ، يثيرنى مايثيركم ويحزننى ما يحزنكم ، فقد حارب جدى فى صفوف تحتمس بطلنا العظيم ، كما حارب ألوف من جدودكم . ولقد قتل جدى فى موقعة «مجدو» عشرين من الأسيويين الأنذال . وبينما يدفع بصدره سهام العدو عن مليكه فى موقعة «قادش» أصابته طعنة صرعته عند قدمى فرعون . ولقد روى الألوف من جدودكم بدمائهم أيضاً تلك التربة الغالية الثمن . يا للآلهة . . . أما لو بعث جدى وجدودكم اليوم، فشاهدوا ما فعل حفدتهم بالتراث المجيد الذى شروه بأرواحهم، لتبرأوا منا ولعنونا إلى الأبد (أصوات مدوية : يا للعار . . . ياللشنار . . .) ترى ماذا تقول روح تحتمس المقدسة المشرقة علينا الآن من خدر الآلهة ؟ ! لكأنى أسمع صوته المدوى يصرخ عالياً : «أين قادش ومجدو ؟ لقد جعلت منهما أبهى درتين فى تاج مصر فصيرتموها . . .» (أصوات : وصمة فى جبين الوطن) .

لا . . لا . أيها السادة ، فهـذا القول يغضب الملك ، وأنا صديق له . فعلينا أنكم أفواهنا ، وأن نخشع بأبصارنا ، فإننا لم نعد جديرين بالتلفظ بهذين الإسمين المقدسين . . . كيف تذكر «قادش» «ومجدو» والعدو على حدودنا ، وعن قريب يغزونا فى عقر دارنا ، فينهب ثروتنا ، ويهدم معابدنا ، ويسبى نساءنا ، ويذبح أطفالنا ، ويأسر رجالنا . . . حينئذ يصبح سادة العالم عبيـداً للبرابرة المتوحشين ، وتصبح أرض الفراعنة المقدسة موطئاً لنعال الكفرة . . كيف نذكر هاتين الموقعتين المجيدتين ، وكيف نذكر تحتمس الخالد ، وعن قريب يجعل العدو من «طيبة» «وآخت آتون» «قادش» «ومجدو» أخريين . . فينقلب النصر عاراً ، والعزة ذلة ، والشرف ضعة ومهانة . . . (أصوات . هذا لن يكون . شعب مصر لن يهان) .

خففوا أصواتكم أيها المواطنون، فما نحن إلا شعب فرعون وعبيده . هو يحكم ونحن نطيع ، والملك أبعدنا نظراً . حقيقة قد سمعنا فى طيبة لحناً جديداً يقول بأن الملك هو صوت الشعب وصدى أمانيه ، فالإرادة للشعب والملك هو المنفذ . وقد يكون هـذا صحيحا أيها المواطنون ، فالدولة أنشئت للشعب وأنتم الحكام الحقيقيون . أنتم ذخر الأمة ومصـدر قوتها . . أنتم العنصر الفعال فى سياسة الدولة . ولكن . . ولكننا أيها السادة لسنا فى طيبة ، بل فى آخت آتون ، والملك هنا لايقر هذا النوع من التفكير . وهو أحكمنا جميعا (أصوات مرعدة : ليسقط الملك).

معاذ الله أيها المواطنون ! فالملك يحكم ولو أنه . . . لايريد الحرب (هتافات صاخبة لن نرضى بغير الحرب ؛ إرادة الشعب فوق الجميع ، الحرب ، الحرب ...) رفقاً بى أيها المواطنون الأعزاء . لاتحرجونى فأنا صديق للملك ، وهو سيخطبكم غداً فكيف تلقونه بهذه الروح ؟ ! عليكم أيها السادة أن تكبحوا جماحكم وتذعنوا لإرادة الملك (أصوات . . . ليذهب الملك إلى الجحيم) .

أيها المواطنون . ...»

ولكن صوت القائد غرق فى لجج الهتافات المدوية . وحين نزل عن المنصة ، كان الفضاء يرتج بصيحات الشعب الثائر : « ليحي حور محب زعيم الشعب ، ملك الشعب . . . ليسقط فرعون ولتحي الحرب . . .

واستقل الخونة الثلاثة عربتهم ، وانقلبوا عائدين إلى منزل « حور محب » حيث اجتمعوا « ببتاح موس » ، الذى كان قد حضر مستخفياً إلى « آخت آتون » ونزل فى بيت القائد . وهناك أعدوا العدة للغد .

الغد . . . فصل الخطاب ونقطة التحول .

يا للغد التاريخى المرهوب . . .

الفصل السادس عشر

— حتى أنت «يا مرى رع»...

كان الملك يحدق فى وجوم وهو يستمع إلى رواية «سمنكرع»، وحين حدثه عن اشتراك «مرى رع» الكاهن الأعظم لآتون مع المتآمرين، انهمرت الدموع من عينيه، ومضى يبكى كالطفل.

«مرى رع» الزهرة النقية التى حسبها تحتفظ بطهرها وإن نبتت فى الدمن ومرامى القمامة . . «مرى رع» حبيبه وأليف قلبه . . يالقسوة الاقدار ! إنه ليهون عليه أن يفقد ملكه وحياته وكل عزيز لديه، إذا خلص له رفيق صباه الذى وضع ثقته فيه .إنه يشعر الآن كأنه هو الخائن. فإن «مرى رع» قطعة من نفسه وقبس من روحه، فإذا أخطأ فقد أخطأ هو معه .

شعر «أخناتون» بأن الحياة فقدت كل قيمة لدية، وبأن الظلمات تكتنفه من كل جانب . ماجدوى الكفاح الآن ؟ وما جدوى التمسك بأهداب الحياة ؟

كل شىء قد انهار حتى كيانه نفسه. كل معنى نبيل فى الكون قد شحب وفقد لونه. كل مثل عال على الأرض لم يعد يستحق الجهاد، مادام تحققه لا يتضمن غير الغدر والخيانة . فالأفكار الجميلة التى تشوق المرء من بعد وتستهويه إلى النضال ، فيقضى حياته فى الصراع المر المضنى من أجلها، ويكدح ويشق ليقترب منها، ثم إذا به مشرف عليها يمنى النفس بالثمر الشهى، فيجمع عزمه ويتقدم إليها، فيبلغها سائل الدم مقطع النياط، ثم يمد يده ليجنى الثمر. فماذا يجد . . . لاشىء غير الجيف والنتن . هذه هى خاتمة المطاف . فياالسخرية الأقدار، وياحسرتا على الإنسان الغبى الأبله!

كانت «نفرتيتى» حاضرة اجتماع الملك بسمنكرع، فلم يخف عليها ما طرأ على زوجها من بوادى الهم، فقامت إليه وجلست بجواره ممسكة بيده كعادتها . ونظر إليها يتأمل ذخره الوحيد فى الأرض ثم ابتسم ساخراً وقال :

— مافائدة الجهاد الآن يانفرتيتى . . إن الله بدلا من أن يرسل إلى بصيصا من

النور أستعين به على كشف مايتكاثف حولى من الظلمات ، أراه يعمل على فت عضدى وتمزيق أوصالى ، وكأنما قد انضم إلى زمرة أعدائى ...

وتنهد الملك فى استطالة ثم قال !

ـــ إيه يانفرتيتى . . لقد آن لى أن أضع السلاح ، فلم يعد لى جهد للمقاومة .

فضغطت الملكة يده وقالت :

ـــ أتتخلى عن مصرنا العزيزة فى هذا المأزق الضيق ؟

ـــ لتنحدر إلى حيث تشاء لها المقادير،فلم أعد أهتم بشىء . ولوأنى رأيت اليوم كل مابنيته فى حياتى يتحطم أمام ناظرى صرحاً بعد صرح ، لما حركت أصبعاً أو نبست بلفظ . لم أعد أهتم بشىء . إن الأمر الوحيد الذى يؤسفنى الآن هو أننى لم أدرك هذه الحقيقة فى مطلع حياتى . إذن لطرحت عن عاتق كل مشغلة ولعشت وادعاً خاملا لاأنشط لشىء .

ـــ لاياعزيزى . . إنك لاتكون « أخناتون » حينئذ .

ـــ بل أكون « أخناتون » أضعاف ما أنا الآن يا نفرتيتى . فقد عشت طول حياتى منصرفا إلى شئون غيرى، آخذ من نفسى وأعطى سواى، حتى صرت إناء فارغا استنزفت كل قطرة فيه ، وأصبح « أخناتون » إذا نظر لنفسه لم يجدها . . فلو أننى عشت لشخصى ولم أهتم بغيرى، لأخذت من الناس وأعطيت نفسى، ولصرت أضعاف ما أنا الآن .

هزت الملكة رأسها وقالت مبتسمة :

ـــ لا يا أخناتون . هذا غير صحيح .فأنت اليوم أضخم رجل على الأرض.

ـــ أنا ! أشكر لك هذه المحاسنة ياعزيزتى . ولكنها تعزية لاغير . انظرى إلى الآن . . إننى إذ بذلت إلى الشعب جحدنى ، وإذ أخلصت إلى الأصدقاء أسرعوا إلى خيانتى . وإذ وهبت حياتى لآتون خذلنى وتخلى عنى . فلم أصبح ملكا ولا صديقاً ولا نبياً . ولولا أن شفقتك بى تفوق الوصف لما قبلتنى زوجا . فإذا لم تفد حياتى أحداً ، فلم لم أكن حكيما أفيد نفسى من حياتى ، فأطعم وأكتسى وألهو، ثم أجهز الجيوش وأفتح البلدان، لاتوج اسمى بالفخار، لاسلمه إلى التاريخ

محوطا بمجد براق يتناقله الخلف عن السلف ؟ أما الآن .. فلست أدرى ماسيقوله الناس عنى حين أموت !

كان « سمنكرع » ينصت إلى حديث الملك وهو صامت ، فلما لحظ عليه هذا التردد الذى يناقض إصراره وعناده فيما مضى هب لانتهاز الفرصة فقال :

ـــ ولكن الفرصة يامولاى لا تزال سانحه . فنى وسعك اليوم أو غداً أن تعلن الحرب .

هز « أخناتون » كتفيه وقال :

ـــ ما الفائدة الآن ... قلت لك إننى لم أعد أعبأ بأى مصير تتمخض عنه الحوادث .

ـــ بحق آتون فكر فيما نحن فيه ياصاحب الجلالة . إن إعلان الحرب فيه خلاصنا من مشكلاتنا جميعاً ، وفيه القضاء المبرم على سائر الدسائس التى تنبض بها العاصمة الآن . فأعداؤنا لايستندون فى مؤامراتهم وفى إثارتهم للشعب ، إلا على يقينهم بأنك لن تعلن الحرب . فهم يقولون إن فرعون مقصر لأنه لايريد الحرب . على رسلهم . فلتعلن جلالتك الحرب غداً فى خطبتك، فتنهار صروح كيدهم بضربة واحدة ، ويرضى عنك كل المتذمرين . ولايغرنك موقف « حور محب » الخائن، فالواقع أن جميع رجال الجيش ثائرون صاخبون يريدون الحرب ، والقائد نفسه يشجعهم على ذلك خفية . وإن مولاى يعلم حقاً أن رجال الجيش هم أقوى عنصر فى توجيه سياسة الدولة . إنها كلمة واحدة يامولاى . ليس عليك سوى النطق بها فننتصر على أعدائنا فى طرفة عين ، الحرب ...

أطرق « أخناتون » برهة ثم رفع رأسه وقال :

ـــ ما أظننى سأنطق بها يا « سمنكرع » .

ـــ إننى أضرع إليك يامولاى . هأنذا أجثو أمامك على ركبتى باكياً ملتمساً أن تحيد عن رأيك ، إن لم يكن من أجلك فمن أجل مصر .

ـــ ليس فى الحرب مايصلح أمر مصر ياسمنكرع .

ـــ مولاى . إننا مهددون بالغزو بين حين وحين.

— هذا لا يسوغ الحرب . لاشىء على الأرض يمكن أن يسوغ القتل والاغتصاب والتدمير .

— ليكن هذا صحيحاً يامولاى . ولكن مصلحة مصر تقتضى أن تظل أنت الجالس على عرشها .

— أنت ستخلفنى على العرش يا سمنكرع .

— إننى لن أفيد بغيرك شيئاً . فمن أجلى أنا يامولاى — أنا صديقك الذى يفديك بعينه وبقلبه — ومن أجل زوجتك المقدسة ، ومن أجل بناتك الأميرات السبع ، ومن أجل عرش مصر ، ومن أجل نفسك ، بل من أجل رفعة الإله « آتون » ... بالله ! أما تتدبر كل هذه المصائر المعلقة بلفظ منك ... فلتعلن الحرب يا مولاى ولا تحارب بعد ذلك . أعلنها لفظاً إلى أن تتدبر أمراً نستطيع به أن نقبض على زمام الحال ، ولك حينئذ أن تحارب أو لاتحارب فالأمر بيدك . مولاى . هذا أول مطلب أتوجه به إليك طوال حياتى ، وأعدك أن يكون الأخير . فهل تردنى خائباً ؟

صمت الملك فترة طويلة وعاد يعض على أضراسه ، وقد أسرع تنفسه واتسعت خياشيمه . وأخيراً قال :

— حسناً يا « سمنكرع » . أنظرنى إلى غد .

* * *

امتلأت الساحة الفسيحة المواجهة لشرفة القصر بالأحمر والأسود من الناس ، فبدت رءوسهم المتمايلة كأمواج بحر زاخر . طالما رأت هذه الساحة أعياداً مرحة ومواكب صاخبة . . . طالما وقف فيها كبار الموظفين يتقبلون العطايا يلقيها عليهم فرعون وزوجه ... طالما دقت فيها الطبول وعزفت الأوتار ورقصت القيان . . . طالما لعب فيها الأطفال الأبرياء وخطرت عليها النسوة الفاتنات . . . طالما أمها الرسل والسفراء من مشرق الأرض ومغربها للتنزه فى المدينة الساحرة ، أو للمثول بين يدى فرعون الذى تحدثت بشهرته الركبان . . .

إما اليوم ، فبالرغم من ضيقها بألوف الناس ، لم يكن يسمع فيها صوت سوى

همهمة خافتة كهمس الريح خلال الأغصان . فقد كان جلال الموقف ورهبة الساعة يلجمان الألسن ويعصفان بالقلوب . أما شرفة القصر فلما تزل خالية مسدولة الستر . وعلا فى الفضاء صياح طفل يبكى فانتهرته الأصوات من كل جانب، وغشى الصمت المكان من جديد . وبعد حين شوهد خدم القصر يزيحون الستر عن جنبات الشرفة ، فتطلعت الأعين وتعلقت الأنفاس . غير أن الملك لم يظهر فعاد الهمس والهمهمة . ومل الناس الانتظار فسمع من يقول :

— لاتنتظروا الملك فهو ينظم أنشودة جديدة لآتون .

غير أن القوم لم يكونوا مهيئين لهذا النوع من المزاح فزجروا المتكلم، وتعالت بعض صيحات من هنا ومن هناك . وبينما هم فى همسهم ونقاشهم ، إذ دوى من الشرفة صوت كبير الأمناء صائحاً :

— صاحب الجلالة فرعون .

ساد الصمت فجأة واشرأبت الأعناق . وراحت الأنظار تحدق فى الشرفة انتظاراً لظهور الملك الذى طال احتجابه فى الأيام الأخيرة ، وما هى إلا أن لاح « أخناتون » ومن ورائه « سمنكرع » شريكه فى الحكم . كان الملك يسير فى بطء شديد ، وفى يده عصا يتكىء عليها . وحين وصـــل إلى حافة الشرفة غمره ضوء الصباح ، فإذا بوجهه عنوان للهزال والشحوب . غير أن نظرته كانت لاتزال صارمة حديدة ، يشع منها ذلك العزم النافذ الذى شق به الملك طريقه طوال حياته .

جال « أخناتون » بعينيه فى الجموع التى جاءت اليوم لتتهمه ، فسنحت على شفتيه بسمة حزينة . وجال فى رأسه فى تلك اللحظة خواطر غريبة لاتمت إلى ملابسات الحال بسبب . فقد تذكر حادثاً وقع له فى عهد طفولته ، إذ كان يقفز من فوق شجرة فجرحت ساقه وسال دمه ، فجاءوه بطبيب كهل أسلمه لحيته فكان يشدها أثناء تطبيبه إياه ، ولايفتأ يفعل ذلك بالطبيب كلما عاده . وذكر أن الطبيب قال لوالدته مرة :

— إذا جرح ولى العهد مرة أخرى فسأصير حليقاً بدون ذقن .

إنه ليشتهى الآن أن يعود طفلا غير مسئول، يهتم به الناس بدلا من أن يهتم بهم .

لن يكون حينئذ فى حاجة إلى مواجهة هذه الأوجه المقطبة وتلك الأعين المتجهمة .
وسلته تلك الأفكار إلى شعور عجيب بالخفة والنزق ، فزين إليه أن يرفع عقيرته بالغناء ، أو يلوح بيديه راقصاً ضاحكا . إن القوم حينئذ سيعطفون عليه، ولا يبدون له هذا التحدى الغليظ الذى لا يقدر على مواجهته ، وهو الذى يحيا بالحب والحنان .
ألا ما أقبح الكراهية . . .

وبدأ الملك يخطب قائلا :

«أيها الرفقاء ، ياشعب مصر . حياكم الله وأبقاكم وشملكم برعايته وحبه .

إنها فرصة سعيدة تلك التى مكنتنى من رؤية جموعكم العزيزة ، بعد أن حجبنى المرض عنكم حقبة طويلة . ولكننى أتبين بينكم وجوهاً لم أشاهد أصحابها فى عاصمتنا الجميلة من قبل . فأهلا بهم وسهلا .

أيها الرفقاء . إننى ألحكم اليوم على غير ماعهدتكم عليه من طمأنينة ورضا . فما الذى أحال وجوهكم وقطب جباهكم وأثار أفئدتكم ؟ ما الذى جمعنى بكم اليوم فى غير عيد ولا حفل ؟ إنه لابد أمر خطير . . ولكننى لن أسألكم عنه فأنا الذى طلب لقياكم اليوم . ولست بجاهل مايشغل نفوسكم الأبية، ويحرك قلوبكم المحبة للسلام .

ولكنى ياشعبى المحبوب أختلف معكم فى تقدير خطر هذا الأمر ، وإن كنت أعتقد أننا لن نختلف فى وجهة النظر إليه والحكم عليه ، بعد ما أبسطه إليكم من بيان . فمسألة اليوم قضية كآلاف القضايا التى تطرح على محاكمنا المختلفة . وهى لذلك يسيرة فى جوهرها واضحة فى مدلولها . ولقد نظرت إليها على هذا الوجه ، فحكمت فيها . وهأنذا أعرض عليكم ما استقر عليه قضائى . بيد أننى أرجو منكم قبل ذلك أن تنتزعوا من رءوسكم تلك الصورة المموهة التى أوحت بها إليكم بعض الجهات ، وأن تتناسوا ما أثاروه فيكم من جسامة الأمر وسوء العاقبة . فمشكلة اليوم هينة عادية . وعليكم أن تبحثوها على هذا الوجه، فلا تخافوا من الحكم عليها بمثل الحكم الذى تقضون به فيما يماثلها من مشكلات .

ياشعب مصر . لو أن أحدكم جاءنى يتظلم من باغ سلبه ملكا له ، أفكنت أرد

عليه ملكه ، أم آمر به فيجلد وأقر الغاصب على ماغصب ؟ (أصوات : بل يرد عليه ملكه .)

حسناً . ولو أن أهل قرية من القرى استشعروا فى أنفسهم السطوة ، فأغاروا على أرض قرية مجاور ، فطردوا سكانها وراحوا يزرعون أرضها ويستغلونها لأنفسهم ، فأتانى أهل القرية المسلوبة يطلبون إلى أن أعيد إليهم أرضهم التى منها يقتاتون ، وفى دورها نساؤهم وأطفالهم يسكنون . أفكنت آمر بتشريدهم فى الصحارى والقفار ، أم أعيدهم إلى بيوتهم وزرعهم ؟ (أصوات : بل يعادون إلى بيوتهم .)

حقاً حكمتم أيها الشعب العادل . فلتنظروا معى فى أمر أمة قوية غلبت أمة ضعيفة على أمرها ، فاستعمرت بلادها وأسرت سكانها . أفتقتضينا العدالة أن نقر الأمة الغاصبة على غصبها، لمجرد دعواها أنها قد ذرفت دم أبنائها وهى تغتصب ، أم ننصر الأمة المسكينة التى تطلب رد أرضها إليها ؟ (همهمة .)

أراكم صمتم أيها السادة . فهل كنتم غير محقين إذن حين طردتم الرعاة من أرضكم ووطنكم ؟ (أصوات : بل كنا محقين .)

إذن أنتم تسلمون معى بأن من حق المستعمرات التى غزاها جدودنا أن تطالب اليوم بحريتها . فلم تريدون اليوم إعلان الحرب عليها ؟ (أصوات ؟ الوطن نفسه فى خطر .)

ولكن الوطن حتى الآن لم يهدد . وأغلب الظن أنه لم يهدد . ومع ذلك فقد سألنى بالأمس أعز صديق لى قائلا : « فإن هدد . . . » إذن دعونى أجبكم عن هذا السؤال ، فلعلكم لم تجتمعوا اليوم إلا لسماع هذه الإجابة .

ياشعب مصر . إذا أسرى أحدكم فى الصحراء ليلة فلقيه ذئب ، فكيف يضمن لنفسه النجاة منه ؟ أبالهجوم عليه أم بالهرب ؟ لا بهذا ولا بذاك . بل باتباع نصيحة جدودنا الحكماء ، إذ يشيرون عليه بأن يمضى فى طريقه هادئاً غير عابىء . والحق إن هذا المسلك يقتضى منه كل شجاعته . أما الهرب فجبن . وكذلك الهجوم جبن ، لأنه هرب معكوس ينبىء عن الخوف .

أيها السادة . إننى إذ أطلب منكم اليوم أن تلتزموا الهدوء وألا تمضوا إلى الحرب ، فليس هذا جبنا منى ولا منكم ، بل هو إظهار لمنتهى الشجاعة البشرية التى تضمن وحدها السلام لوطننا . فالرجل الذى يبادر بالهجوم على الذئب ، يهجم عليه الذئب وقد يفتك به . وأنتم إذا مضيتم فى التسلح أو خرجتم إلى الحرب ، فكأنما تدعون إخواننا الأسيويين لغزو بلادكم . فمن جبن قلبه وخشى الغزو ، ثم أبان تلك الخشية ، بادر من يخشاه بغزوه . أما إذا سرنا فى طريقنا بهدوء ينم عن شجاعة وعزم ، فلن يقربنا أحد . فإن المعتدى والسارق لا يقربان الناسك المتعبد . (أصوات متفرقة : أهذا كلام . .)

ما أظن هذه الهتافات صادرة من شعب « مدينة الأفق » . أجل إنه كلام أيها الضيوف الأعزاء . وهو أصدق كلام (أصوات : فإن غزونا بالرغم من ذلك ؟)

إن غزونا بالرغم من ذلك ... لابد أن يكونوا حينئذ جياعا مساكين ، فى حاجة إلى عوننا وشفقتنا ، كالسائل المحتاج يقرع بيوتكم أيها المصريون الكرماء (أصوات : أو كاللص الفاجر ينهب البيوت .)

أو كاللص . ولكن اللص ليس بفاجر أيها الرفقاء ، بل هو محتاج أيضاً . فإذا ماأشبعتم حاجته أصبح صالحاً مثلكم وعاش معكم فى وئام . فالنفس البشرية ليست شريرة فى جوهرها ، إنما تقسو عليها الملابسات فتحيد عن الطريق . وقد يحيد إخواننا الأسيويون عن الطريق فينزلون بأرضنا . فهل نقابلهم بالفؤوس والحراب؟ بل بالأعياد والأفراح . وسنرحب بهم أينما حلوا فهم ضيوفنا ، علينا إكرامهم ماطاب لهم المقام . حينئذ تناديهم أوطانهم فينزحون عن أرضنا ولن يغزو مصر بعد ذلك غاز . (أصوات . بالقصص الأطفال ...)

أشكر لكم مزاحكم اللطيف أيها الضيوف الأعزاء . ولكن يؤسفنى أن أقول لكم إنها ليست قصص أطفال ، بل هى تبدو لكم على هذا الوجه ، لخطأ صغير تقعون فيه . فنحن جميعاً نعرف ما يجب أن تكون عليه أخلاقنا الشخصية ، ونعرف كذلك موضع العدل فى قضايا أهلينا . ولكن إذا أصبحت محل التطبيق أخلاق الدولة لا أخلاق الشخص ، وإذا صار موضع البحث قضية الدولة لا قضية الفرد ، وجدتكم

تقلبون الأوضاع وتغيرون المقاييس ، مع أن الخلق الفاضل للفرد يكون خلقاً فاضلا للدولة ، وعدالة الفرد يجب أن تكون عدالة الدولة ، إذ الدولة لها ضمير مستمد من ضمائركم ، لأنها مجموع عاداتكم وأسس عدالتكم . وأنتم أيها الرفقاء مسئولون عن ضمائركم وحدها . أما أنا فمسئول عن ضمير الدولة ، ومسئول عن حسن خلقها وعن عدالتها .

لقد سمعت بالأمس أنه قام فيكم خطيب يقول: «إن الملك صدى لأماني الشعب». وهذا حق . وأنا أزيد عليه : إن قلب الملك بيد الله ، فالملك أصدق معبر عن الرغبات العادلة . فماهي رغبتكم أيها الشعب ؟ أهي الحرب ؟ إذا قلتم ذلك فأنتم لاتعرفون ما بأنفسكم ، بل ترددون ما ألقاه المغرضون في آذانكم . أما أنا ... أنا من قلبه بيد الله — فإنني أعرف بإرادتكم منكم .

أيها القوم ، إنني في حيرة من أمركم . لقد كنت أتصور أن أطلب منكم الحرب ، وأن أدفع بكم إلى التهلكة ، فتخرجون على وتمتنعون عن طاعتي محافظة على نفوسكم وبيوتكم . وإنني أتخيل أنه في العصور المقبلة — حين تصبح الشعوب أكثر معرفة بنفسها وبما فيه خلاصها — سينقلب الحال الذي ترونه الآن ، فيقول الشعب ماأنا قائل ويصيح مطالباً بالسلام ، ويقول الحكام ما تقولون فيدفعون بشعوبهم إلى الحرب والهلاك .

أيها الرفقاء ، حقاً إنني صدى لأمانيكم ومعبر عن رغباتكم . وليست أمانيكم الحقة ورغباتكم العادلة إلا السلام . السلام لا الحرب هو الذي يجب أن يكفل لجميع الشعوب لأنه حقهم الشرعي . فكيف تتخلون عن حقكم وأنا أبذله لكم ! أنسيتم ماهي الحرب ؟ ألم يحدثكم جدودكم بحقيقة غزوات تحتمس ؟ أما تعرفون ماهي «قادش» وما «مجدو» ؟ إنها أيها الشعب السريع النسيان ، أشلاء تملأ الساحات . ودماء غزيرة ارتوت بها الأرض وصيحات معذبة صادرة من أحب الناس إلينا . إنها العمى والعرج والبتر والكساح . إنها الأرملة فقدت زوجها والأم ثكلت ولدها والأخت تبكي أخاها والفتاة تندب حبيبها . إنها المناحة العظمى تعم أرجاء الوطن ، والشقاء والحزن يخيمان على كل منزل . إنها المجاعة والذلة والمرض ، حين

تخلو الحقول من حارثها ، والبيوت من عائليها ، وتنتشر المقاذر والخبائث فى كل مكان . حينئذ تضربون الأرض برءوسكم وتقولون : « ماكان أغنانا عن الجرى وراء مفاتن المغرضين ! وماكان أحمقنا إذ سحرتنا الألفاظ الفارغة ! »

وقد تكسبون الحرب . فحدثونى عن الفائدة التى تعود عليكم بعد كل مابذلتم وجاهدتم . ما كان أسهل على أن أندفع مع غرة الملك ، فأعدلكم العدة وأستكثر من السلاح ، ثم ألقى بكم إلى حيث يتخرم الدهر حياتكم بموت زعاف ، فتحرمون كل ماتشره إليـه النفس من لذة الدنيا ، على حين أقبع فى وسادى المبطن بالحرير . وقد تعودون وقد لاتعودون . فإن عدتم فماذا تفيدون أنتم ونساؤكم وأبناؤكم من كل ماتحملتم ؟ لاشىء وحق آتون غيرالوكس . أنا وحدى الذى أستفيد دون أن أخسر شيئاً . أنا وحدى من ستتوج هامتـه بأكاليل المجـد الزائف . أنا وحدى من سيملأ خزائنه بأموال الجزية أنفقها فى أهوائى وما أريد . أنا وحدى أغنى بالحرب وأنتم جميعاً تفتقرون . فوالله لن تغنموا من الحرب حبة بر واحدة أكثر عمـا كانت تغله أرضكم .

ولـكنكم مع ذلك لاتدركون أن الحرب ليست إلا استغلال الحكام لـكم . وهم فى سبيل فتنتكم إلى هذه الغاية يملأون مسامعكم برنين أجوف لألفاظ زائفة ، فيحدثونـكم عن الشجاعة والشرف والوطن ، وهى جميعاً براء ممـا إليه يقصدون . فالشجاعة والشرف والوطن تقتضى تحقيق السلام للشعوب ، لاإغراءها على هلاك أسود .

أيها الشعب . أنا الملك لا أريد الحرب ، ولن أعلنها ماحييت . أفما زلتم فيها راغبين »

حين وصـل « أخناتون » فى خطبته إلى هذا الحـد ، كان قد امتلك أفئدة سامعيه ، وأصبح فى مكنته أن يوجههم إلى حيث يريد . وكان يخيل إلى جموع الشعب وهم ينصتون إلى هذا البيان الفذ ، أنه صادر من ثائر يحضهم على معصية الملك لا من فرعون نفسه . ولقد ظل سحر ألفاظ الملك مخيما على رءوسهم مستبداً بقلوبهم ، فمـا إن سكت عن الكلام حتى انطلقت حناجرهم تدوى بصياح مرعد .

الأمر لك أيها الملك ، ليحي فرعون العادل ، ليحي ملكنا الرحيم . . . » .

كان النجاح منقطع النظير ، ولكن إلى حين .

كان مندمنا بين الجموع « بتاح موس » الرئيس السابق لكهنة آمون ، ومن حوله أعوان له . فقد رأى الكاهن أن يشرف بنفسه على تنفيذ تدبيره فى هذه الساعة الحاسمة، التى تمثلها حبلا مشدوداً تترجح عليه صروح أمانيه وأقدار مااقتن فى حبكه طوال الليالى والسنين . وكان الكاهن يعرف أن الملك محبوب من شعبه، وعلى الاخص من أهل « آخت آتون » . ولم يغب عنه أنه سريع النفوذ إلى قلوب سامعيه إذا تكلم أوخطب . ولذا استقدم الكاهن معه جمعاً غفيراً من أهل طيبة ، دسهم فى صفوف الشعب ، وكلفهم بتسفيه كلمات الملك بتلك الهتافات العدائية التى سمعت فى أول الخطبة . غير أنه لم يكن يحسب أن الملك قادر على صهر عقول شعبه إلى هذا الحد ، ليتخذ منها سبيكة طيعة يصوغها كيفما يشاء . فلما طرق أذنيه صياح الشعب يهتف بحياة مليكه تمتم فى سخط وثورة قائلا :

يالهؤلاء الآختيين الضعفاء المحلين... ما أهونهم شعبا تطوح به الألفاظ .

كانت هذه اللحظة أخطر ما مر به الكاهن فى حياته من أزمات . وخيل إليه فى لحظة أنه فقد كل شىء . غير أن شيئاً واحداً لم يفقده الكاهن ، ذلك هو رشاده . وسرعان ما أعمل فكره فى تدبير مخرج قريب .

كان الكاهن الخبير بنفوس البشر ، يعلم أن الرجل إذا اندفع وراء عاطفته مدة ما ، فسمح لنفسه بأن يلين لتأثير غيره ، سرعان مايشعر بالخجل ، فيلوم نفسه على ضعفها الذى سول لها أن تلغى عقلها وتجرى وراء قلبها . ويتضاعف هذا الشعور إن تم هذا بين جماعة من الرجال . فهم يحسون حينئذ بأنهم خدعوا ، وضحك منهم . ويعقب هذا الإحساس رد فعل خفى ، فتراهم واجمين كأنما يبحثون عن وسيلة يتمكنون بها من الثار من ساحرهم الذى سلب لبهم . ولقد عمد الكاهن إلى أن يبيح لهم هذه الوسيلة . فطلب من أعوانه أن يتبعوا مع الملك خطة الغوغاء فيقاطعوا حراسته بالهتاف، ويهزءوا بكل معنى يذكره . وهى خطة تثير أعصاب

المتكلم ، وخاصة إن كان أبى النفس يستنكر هذه الأساليب الوضيعة ، فسرعان مايفلت زمامه من يده ويرتج عليه .

ما إن هدأ هتاف الشعب حتى استأنف الملك خطبته قائلا :

«شكراً لك أيها الشعب الكريم ، فقد رفعت رأس ملكك أمام ضيوفنا الأعزاء ، الذين قدموا لزيارتنا من طيبة ، مجشمين أنفسهم مشقة الارتحــال . (أصوات متفرقة : أين هم أهل طيبة . .)

إنهم بيننا على الرحب والسعة . وشكراً لكم ثانياً لأنكم أعتمونى فى تجربتى القاسية التى أكرمنى بها « آتون » (أصوات : ماهو آتون . . أين هو آتون . . ماشكل آتون . . .)

يلوح لى أن ضيوفنا الأعزاء لم يصل إليهم خبر إلهنا آتون . إن آتون هو إلـكم أيضاً (أصوات : حاشا . حاشا .) بل هو إله جميع البشر لأنه رب . . . (أصوات مقاطعة . . الهزيمة والخذلان والجبن . .)

أيها السادة . قد تكونون ضيوفنا ولـكنكم وقحاء . ولن أسمح لأحد فى هذا المكان المقدس . . . (أصوات مقاطعه : من قدسه ؟ إنه مكان نجس . .)

صمتاً أيها الخاطئون . . وحق آتون . . (أصوات مقاطعه : آتون إله الموبقات . .) الموبقات أيها الـ . . . (أصوات متفرقة . . ماذا فعل آتون . . . لقد جعله يقبل زوجه فى الطريق . . آتون العربيد ... إنه يغنى له فى معبده كأنه فى حان . . الشؤم فى ركاب آتون الفاجر . .) .

لطيف والله هذا منكم ياشعب مصر . لو أن ماتقولونه الآن قد سمعه إخواننا الأسيويون . . . (أصوات تزداد ارتفاعا : إخوانك وحدك . . ها قد أعترف ابن الأجنبية . . الملك الخائن يتكلم عن التضحية وقد باع بلاده لجدوده الأسيويين . .)

سأحكم آتون أيها الإخوة (أصوات مزمجره : إصمت ياخائن آتون . . فليسقط مجرم آتون . . .)

مجرم آتون . . مجرم آتون . . .

كانت هذه هي الصيحة التي شيعت الملك من الشرفة إلى داخل القصر . فما إن توارى عن الأنظار ، حتى قام الخطباء في جنبات الساحة يتبارون في إثارة الشعب بألفاظ ضخمة واتهامات عريضة . وأدرك الكاهن أن أعظم مايبهج الجوع ويلهب نفوسهم، هو ما يلفقه لهم من قصص حول الملك . فراح خطباؤه يعدون للشعب أسطورة الملكة الأجنبية ، ويتحدثون عن دم فرعون الآسيوى، وعن كرهه لمصر واحتقاره لأهلها ، حتى أنه لم يجعل إلهه قاصراً على مصر وحدها ، بل جعله إلهاً أجنبياً على خلاف مانهج عليه الفراعنة الأمجاد .

علا صياح القوم ودوت هتافاتهم « خائن آتون . مجرم آتون . . . » . وفى وسط هذه الثورة المربدة ، ارتقى « بتاح موس » مكانا مرتفعاً، فظهر أمام الشعب أول مرة منذ ألغيت عبادة آتون . كان هذا دوره وتلك ساعته . . . تلك الساعة التي انتظرها عشر سنوات طوال . وصاح أعوانه الملتفون حوله :

— بتاح موس هنا ! الكاهن الأعظم . . صمتاً أيها السادة .

اتجهت أنظار القوم إلى كاهن آمون ، فلما تبينوه دهشوا بادىء بدء ، ثم علا هتافهم: « ليحي الكاهن الأعظم . . ليحيي مخلص مصر . . . »

غير أن الكاهن رفع يده يطلب منهم الصمت والإنصات ثم أنشأ يتكلم :

« أشكر لكم يا أبنائى البررة ، يامن أبعدتم عنى ظلما وحسداً . غير أن المجال اليوم لايسمح بالمناجاة والشكوى ، فإن مصر تمر بأدق أزمة صادفتها فى تاريخها المجيد . ولقد أردت أن أكلمكم الآن لأفضى إليكم بسر خطير وصل إلى علمى الساعة .

يا أبنائى الكرام . أظنكم تذكرون زيارة الخائن « أزيرو » لمصر منذ عامين ، وإخالكم تتساءلون متعجبين: كيف يقع تحت أيدينا أكبر أعداء مصر، فيطلقه الملك سليما بدل أن يقطع رأسه ! والإجابة عن هذا السؤال تفسر لكم مسلك فرعون قبل الغزاة ، وتظهر لكم أنه حين خلع على نفسه مسوح النسك أمامكم منذ قليل ، كان يكذب عليكم ويخدعكم . أما الحقيقة فهى أن فرعون لا يريد أن يحارب لأنه سبق أن باع وطنه للأعداء ... (أصوات وهمهمة)

أجل أيها السادة. لقد باع وطنه، واتفق على الصفقة مع الخائن «أزيرو» حين زار مصر . وكان الثمن هو أن ينصب فرعون ملكا على سوريا وفلسطين ، بعد ان تكون مصر قد صارت مستعمرة لهذه البلاد . ولم أكن لأتهم فرعون بهذه التهمة الخطيرة لو لم أكن متثبتاً من صحتها . والدليل على صدق ما أقول، هو أن « حور محب » ، قائد الجيش الأعلى وابن مصر البار ، قد انشق على فرعون حين ظهرت خيانته . ولم يكن « حور محب » وحده هو الذى فعل ذلك ، فهناك أيضاً « مرى رع » الذى كان بالأمس رئيساً لكهنة فرعون ، قد جاء لى اليوم تائباً معتذراً عما صدر منه من مروق ، فصفحت عنه وباركته . ولن يقتصر الأمر على هذين وحدهما ، فثمة شخصية جليلة أخرى ستعرفونها عما قريب ، وثمة جمع كبير من رجالات مصر وعظمائها وكبار قوادها، قد انشقوا جميعاعلى فرعون التعس. أما دليلى على صدق ما أقول من خيانة فرعون، فهو هذه الوثائق التى انتهت إلى الساعة ، وهى رسائل تبودلت بين فرعون وبين الخائن «أزيرو»، تحوى تفاصيل صفقة بيع مصر للأسيويين البرابرة ، وإنى أضع هذه الرسائل تحت تصرفكم ولكل واحد منكم أن يطلع عليها ليقرأ الخيانة مسطورة أمام عينيه . . .

وأبرز الكاهن من صدره لفائف من ورق البردى، وبسط بها يده إلى الشعب. أما هذه اللفائف فقد كانت ورقا أبيض ليست به كلمة واحدة . مع ذلك فقد علا صوت الجموع الهائجة: « ليسقط الملك الخائن » . « ليسقط مجرم آتون » . . »

يا للشعب الأعمى ! لعل فرعون كان على حق حين قال بأن الناس تفضل الكراهية على الحب . . .

فقد غلى مرجل الثورة وفار بعد أن انتهى الكاهن من خطبته، وازداد الهتاف بسقوط الملك المجرم . وأدرك « بتاح موس » أن الشعب بدأ يستمرىء هذه الصيحات التى تشعره بقوته وخطره، فعرف أن غرسه قد أثمر، وأن الجموع باتت تنتظر إشارة منه فتتجه إلى حيث أشار . فمد الكاهن العاتى يده صوب القصر ...

مجرم آتون . . .

يا لهذه الصيحة المشئومة التي ظلت أحقاباً طوال عنواناً لأنبل ملك في الوجود .

ارتمى أخناتون على فراش مرضه ، وهذه الصيحة الهائلة تقرع آذانه وتخز قلبه . كان يراها مسطورة أمام عينيه على الحوائط وفوق صفحة السماء وفي كل مكان ، فما يحول بصره إلى وجهة إلا وطالعته بأحرف من نار كأنها دينونه الآخرة : مجرم آتون . . . مجرم آتون . . . مجرم آتون . . .

أدرك منذ تلك اللحظة أن هذه الصيحة اللعينة ستظل ملتصقة باسمه كلما ورد ذكره على ألسنة سكان الأرض ، فمن يدريه أنه لن يوصم بها حين يمثل في حضرة سيد السماء ؟ لقد أجمع الناس على خطئه . فهل كان من حقه أن يصدق نفسه ويكذب شعباً بأسره ؟

كان شكه يمعن في تعذيبه ، أما إيمانه فقد كاد يقتله . فبالرغم من كل ما حدث أحس أخناتون في قرارة نفسه أنه على حق . وبدلا من أن يورثه هذا الشعور شيئاً من راحة النفس التي كان في أمس الحاجة إليها ، إذا به يضيف إلى أحزانه عبئاً من الآلام أدرك لتوه أنها قاضيه عليه . فقد أحس بأنه ليس من حقه أن يموت دون أن ينصر تلك الحقيقة الرائعة التي أوحى بها إليه ، فهو يدرك عن يقين أنه لو كتب له النصر في معركته ضد كاهن آمون ، لتغير وجه التاريخ ، ولتقدم تطور الحضارة البشرية مئات السنين .

ولكنه قد أخفق . وسوف يموت موصوماً بالخزى والفشل ، فيجلب اسمه العار لأعظم حقيقة في الوجود ، بينما كان من واجبه أن يرفعها إلى أسمى مراتب الشرف .

لقد صدق الشعب إذن حين لقبه بمجرم آتون . فهو قد أجرم في حق إلهة الواحد الاحد الذى لا شريك له ، وكان جرمه من الشناعة بحيث تتضاءل إلى جواره سائر جرائم البشر . إن الله قد شرفه بأن اختاره مبشراً بأسمى رسالة نزلت على الناس . أما هو فقد خيب ظن إلهه فيه ، وأثبت أنه لم يكن أهلا لحمل أعباء تلك الرسالة الضخمة . لقد أخفق وإن جرمه لعظيم . . .

كان صياح الشعب يزداد ارتفاعاً وقرباً . وهمت « نفرتيتى » بإغلاق نافذة الحجرة،وإذا بها تشعر بأصابع زوجها الباردة تمسك بذراعها ، وسمعته يتمتم قائلا :

ــ ابقى مكانك .

نظرت إليه فإذا بالدموع تسح من عينيه .

ــ مالك يا أخناتون !

ــ دعينى أستمع إلى حكم شعبى على . أجل ، أنتم لعمرى محقون . أنا هو مجرم آتون . . . صيحوا أيها الناس ، وارفعوا أصواتكم حتى تملأ جنبات الأرض وعروش السماء ، فهذا جزائى الحق .

تململ الملك فى فراشه برهة ثم تمتم قائلا :

ــ رباه . . . لقد حقت على اللعنة وقد كنت أرجو أن أشرف اسمك . ولكنك لم تهبنى قوة من عندك أستعين بها على ضعفى . . .

وطفق أخناتون يبكى فى صمت .

أصبحت زمجرة الشعب تدوى كالرعد . وبعد برهة وجيزة اقتحم الأمير « توت عنخ آتون » حجرة الملك بغير استئذان ، وصاح متكلفاً الهلع والذعر :

ــ يا صاحب الجلالة . .

رمق «أخناتون» مخطوب ابنته من خلال دموعه ثم لوى شفتيه وقال فى هدوء :

ــ ماذا تريد يا « توت عنخ آمون » . . .

ــ آمون ياصاحب الجلالة ؟ !

ــ أجل يا « توت عنخ آمون » ،فإن « آتون » برىء منك . ولقد كنت أحسبك من اللباقة وحسن التصرف بحيث تسدل الستار على خزيك ، فتكمن بعيداً عنا إلى أن يحين وقت اقتسام الأسلاب . ولكنى أراك تواصل تمثيل دورك . أفلم تفته مأساة زعيمك بعد يا أمير « الخبز والسمك » ؟

تصنع الأمير الكبرياء فشمخ بأنفه وقال :

ــ أيها الملك . كل منا يعمل بوحى من ضميره . فليس لك . . .

ولكن الملك لم يتركه يتم حديثه ، بل صرخ فيه بصوت كالرعد :

ـــ أغرب عن وجهى ..

وما إن انسحب الأمير جاراً أذيال عاره ، حتى دخل « سمنكرع » على الملك لاهثاً وقال بصوت ينبض بالهلع :

ـــ مولاى . إن الرعاع على وشك أن يحطموا أبواب القصر .

ابتسم اخناتون فى حزن وقال :

ـــ إنهم ليسوا رعاعا يا «سمنكرع»، بل أشراف الأمة هم الرعاع. اذهب فبشرهم بأن فرعون لم يعد .

وبعد برهة وجيزة علا صوت كبير الأمناء من شرفة القصر قائلا :

ـــ صمتا أيها الشعب . . . صاحب الجلالة « سمنكرع » فرعون مصر . . .

وبرز «سمنكرع» . فى الشرفة فهدأت ثورة الشعب . وساد الصمت الذى لم يلبث أن شقه صوت « سمنكرع » يقول :

ـــ ياشعب مصر . . . لقد نزل صاحب الجلالة « أخناتون » عن العرش . وشاءت إرادته أن نخلفه نحن فى الحكم .

* * *

لزم « أخناتون » الفراش ثلاثة أيام . وفى عصر اليوم الثالث أحس ببعض الانتعاش ، فطلب إلى زوجه أن تجلسه فى الشرفة ، ففعلت وقبعت عند قدميه تحدثه وترفه عنه قائلة :

ـــ هاقد عاد اللون إلى وجنتيك ياطفلى العزيز.

ابتسم « أخناتون » لزوجه ووضع يده على رأسها وقال :

ـــ أنت و « سمنكرع » كل ما بقى لى على الأرض . إيه يا « نفرتيتى » . . . أليس عجيباً أننى صرت أحبك الآن أكثر منى حين اعتدت أن أقضى الليالى تحت نافذتك !

ـــ وأنا أيضاً يا «أخناتون». لقد اشتد إكبارى لك عند مارأيتك تواجه الشعب الثائر الذى كنت تستطيع الفوز برضاه بمجرد لفظ تنطق به . ولكنك مع ذلك

أعلنت له فى شجاعة إلهية بأنك لن تحارب . حينئذ امتلأ قلبى بالفرح ، وأيقنت أن زوجى أعظم بطل أنجبه التاريخ .

ضحك « أخناتون » ساخرا وقال :

ــ لاتحدثيني عن التاريخ . فلقد يصف هذا العمل الذى تمتدحينه بأنه أكبر حماقة ارتكبتها فى حياتى .

ــ محال يا « أخناتون » أن يوصف الحق بالحمق .

ــ بل المحال ياعزيزتى أن يعيش البشر بغير الحمق . فهو عندهم العدالة والحق . لقد كنت فى العام الماضى أتساءل عما يرويه عنى التاريخ بعد موتى ، فلم تتأخر الأقدار عن أن تسمعنى الجواب . إننى مجرم آتون على مر الدهور . . .

ــ عجباً ياعزيزى ! أتجعل من أوهام الشعب المفتون الجاهل عنواناً لك ؟

ــ أو لم أكن ملكا على هذاالشعب ؟

ــ لقد شاء الله أن ينتهى ملكك عليه ، فهو لم يكن يستحق زعامتك .

ــ أجل يانفرتيتى . لقد انتهى ملكى وانتهى كل شىء يتصل بى . لن يبقى على الأرض شىء يذكر الناس بى . لا ولد ، ولا تلميذ ، ولا ديانة . مدينتى ومعابدى سوف يهدمونها جميعاً ويدكونها دكا ، فأحرم حتى ذكرى الحجارة التى يتمتع بها كل جدودى الفراعنة . إيه يانفرتيتى . . .

ــ ماقيمة الناس والحجارة مادمت أرضيت « آتون » !

قطب « أخناتون » وعض على أنيابه قائلا :

ــ فلم لم يرضنى « آتون » ؟ لو أننى حكمت بعقلى البشرى على ماقدره لى لقلت إنه قد ظلمنى أشد الظلم .

ــ لا يا « أخناتون » . إن أعدت هذا فلن أجبك . إنك تجعل للملابسات والأحوال أثراً على تفكيرك ، مع أن ماوقع من أحداث ليس هو الحكم على قدرك لأن ماوقع كان من فعل الناس ، والناس لا يحكمون . يكفيك أى زوجى العز أن تكون نبى البشرية الأول ومعلمها المختار . فليس من مبدأ سام ولا قا خلقية ولامعنى جميل ، سيصل إليه العالم فى مستقبله القريب أو البعيد ، إلا سبقته إليه

أنت اليوم . أفلا يكفيك هذا جزاء من ربك يا « أخناتون » ؟

صمت « أخناتون » وأطرق . وبعد برهة قال بصوت مخفوض :

ـــ نفرتيتى ... أسمع إلهى ينادينى إلى جواره .

ـــ وهل تموت غير مؤمن يا أخناتون ؟

لم يجب . بل أطلق بصره متأملا الشمس الغاربة ثم قال بعد لحظات :

ـــ ها قد أقبل الظلام . .

ثم أغمض عينيه وأرسل أنة طويلة وتمتم قائلا :

ـــ رباه .. لماذا تركتنى . . .

نهضت « نفرتيتى » إلى زوجها فأمسكت وجهه بين كفيها وقالت فى لهفة :

ـــ أخناتون حبيبى .. بربك قل إنك مؤمن ..

ابتسم « أخناتون» فى حزن وقال:

ـــ غنى أنشودة الغروب يانفرتيتى ..

قبعت « نفرتيتى» فى مكانها الأول ، وبدأت توقع بصوت تخنقه العبرات .

آتون . . . (١)

حين تغرب ذاتك فى أفق السماء الغربى ،

تتشح الأرض بظلام كالقبور ،

وينام الرجال فى مخادعهم ،

وقد لفوا رءوسهم بالأكفان،

فتقف رئاتهم عن التنفس ، وتعمى عيونهم عن الإبصار ،

ولقد تسرق أمتعتهم من تحت رءوسهم ،

ولكنهم لايدرون .

حينئذ تخرج الأسود من جحورها ،

وتتحرك الأفاعى لتنفث سمها ،

---

(١) فقرة من أنشودة « آتون»

إذ قد عم السكون الظلام ،
وصمت نبض الأرض ،
لأن خالقها قد ذهب إلى أفقه ليستريح . . .

* * *

كفكفت «نفرتيتي» دموعها ورفعت عينيها إلى زوجها وهى تتصنع الابتسام قائلة :

ـــ هل نمت أيها الحبيب ؟

ولكن «أخناتون» لم يجب. فقامت إليه زوجته لتنقله إلى مخدعه ، فإذا به قد أسلم الروح .

وكانت على شفتى الملك بسمة هادئة عذبة .

ترى بم كان يحدث ربه قبل أن يرتفع إليه . . .

مراجع القصـــة

مصر القديمة . الجزآن الأول والثانى ، تأليف سليم حسن .

A History of Egypt. By Prof. James Henry Breasted.

The Life and Times of Akhnaton. By Arthur Weigall.

The Religion of Egypt. By Petrie.

History of Egypt. By Budge.

المنسحب (١)

حكاية عبقرى مصرى باع الفن بالكبرياء

بيان مليم الأكبر ـ الملحق بالرواية للروائى المصرى المخضرم عادل كامل، والذى يحتل نصف الكتاب تقريباً ـ ليس مجرد بيان حداثى مهم، بل إنه فى تقديرنا يصلح أن يكون تأسيساً لثقافة جديدة، بفكر جديد، يتيح أدبا وفنا جديدين كل الجدة، فى إحدى يديه معول وفى الأخرى مسطرين، فالهدم والبناء يمضيان فى خطوة واحدة فى اتساق مذهل، فلم يكن غريباً إذن أن يكون البيان الأم، الذى تولدت منه كل الأفكار والقضايا الحداثية الدائرة الآن فى الساحة الثقافية العربية، حتى نستطيع القول ـ ببساطة وبضمير مستريح ـ أن جميع مقولات الشاعر السورى أدونيس، الخاصة باللغة العربية وبالشعر وبالتراث العربى، مأخوذة من هذا البيان الفذ.

أقول إن هذا البيان يعتبر أهم بيان حداثى فى تاريخ الأدب العربى الحديث، لقد صدر فى حقبة الأربعينات الحافلة بالحركات الحداثية فى الشعر والفن التشكيلى والكتابة النثرية بوجه عام، والقصصية والروائية بوجه خاص، وأهمية بل خطورة هذا البيان أنه يصدر عن رؤية فكرية متكاملة، قامت على وعى عميق جداً بالتراث العربى والكلاسيكيات العالمية، وباحتياجات الأمة آنذاك، ووضعها الثقافى والسياسى والاقتصادى الاجتماعى فهذه كلها وجوه لاتنفصل لمكونات الفن والأدب والنفس الإنسانية موضوع هذا الفن وهذا الأدب.

وبادىء ذى بدء فهذا البيان لايمكن فصله عن الرواية حتى ولو لم يكن منشوراً كمقدمة لها، ومثلما أن البيان لايمكن الفصل بينه وبين الرواية فإنهما مع لايمكن

فصلهما عن الواقع العربى أنذاك، فالبيان والرواية والواقع وحدة واحدة منصهرة فى قضية كبرى هى قضية التخلف العربى الزرى، الحلم المستحيل بنهضة ثقافية تنطلق من مصر.

فقضية «مليم الأكبر» ـ البيان والرواية والواقع ـ هى فى حقيقة أمرها معركة ضد التخلف ممثلا فى لجنة القراءة بالمجمع اللغوى، التى تولت التحكيم فى مسابقة أدبية أقامتها وزارة المعارف العمومية بالاشتراك مع المجمع للرواية، إشترك فى المسابقة عدد كبير من الكتاب الشبان على رأسهم نجيب محفوظ بروايته «السراب» وعادل كامل بروايته (مليم الأكبر) ومحمد عبد الحليم عبد الله بروايته (لقيطة) وعلى الرغم من أن عادل كامل قد فاز فى مسابقة سابقة بالجائزة الأولى عن ورايته الأولى التاريخية الموضوع ـ «ملك من شعاع»، فإنه قد منى بالهزيمة فى هذه المسابقة هو وصديقه نجيب محفوظ على الرغم من المستوى الرفيع لكل من روايتيهما الجديدتين، وفازت بالجائزة رواية «لقيطة» لمحمد عبد الحليم عبد الله وهى رواية إنشائية من الرومانسية المريضة تقوم على حكى حكاية ميلودرامية رخيصة المستوى، والفرق بينها وبين الروايتين المذكورتين شاسع ومذهل، يمثل نسبة التخلف فى المجتمع، التفاوت الثقافى بين طلائع الكتاب والقيادات المتسلطة.

القضية فى جوهرها، إذن قضية صراع الحداثة ـ بمعناها الحقيقى الصحيح المتألق هذه المرة ـ ضد المفاهيم المستقرة الراسخة التى أصبحت أكبر عبء ينوء بكلكلة طلائع المثقفين والمهوبين الأصلاء، إن رواية «مليم الأكبر» ببنائها الروائى المتقدم وموضوعها الحيوى الساخن، تمثل حداثة صحيحة المفهوم والبنية، ذات خلفية ثقافية عالية جداً، ووعى كلاسيكى عميق، إنها تنبض بعبقرية المؤسسين، التى لايؤتاها إلا الرواد الحقيقيون الذين يكتب عليهم الشقاء فى تأسيس الميادين والصروح، فى مواجهة قوى التخلف والجمود الممثلة فى لجنة تحكيم من المجمع اللغوى ذات منطق متهافت تحكمه ثقافة ضحلة، وقلة وعى بالأدب الانسانى الحقيقى، خاصة أن فن الرواية لم يكن قد تأسست تقاليده بعد فى الثقافة العربية،

يضاف إلى ذلك بعد سياسى، بمعنى أن من يقرأ هذه الرواية يدرك على الفور أن جهة رسمية كالمجمع اللغوى أو وزارة المعارف لايمكن أن توافق عليها نظراً لحساسية الموضوع وخطورته.

تدور الرواية ـ بإيجاز شديد مخل من جانبنا ـ حول خلية شيوعية مكونةمن مجموعة نماذج من المثقفين متقاربة الأهواء والمشارب من بيئات إجتماعية مختلفة، يقتصر نشاطها على الكلام الأجوف البراق والخطب الحنجرية وتوزيع المنشورات السرية ذات الطابع الخطابى الانشائى، تجتمع، بل تقيم، فى منزل عتيق كبير استأجره زعيمهم فأطلق عليه اسم القلعة، ومن بينهم فتاة إنجليزية رسامة نصف موهوبة جميلة ضائعة قوية القناع. يخدمهم صبى يدعى مليم، هو ابن مجذوب دعى كان يتاجر فى المخدرات ثم أدمن التسول، وكان مليم قبل ذلك ينوى الانتظام الانتظام فى صنعة النجارة لولا أنه ذهب ذات يوم لإصلاح نافذة فى قصر أحمد باشا خورشيد، الوزير ورجل القضاء السابق، فعثر مليم فى خزنة ستارة النافذة على لفة ورقية تحتوى على خمسمائة جنيه، فسلما لخالدبن الباشا الذى تعلم فى إنجلترا ودرس الفكر المادى واعتنق الأفكار التقدمية وأدمن القراءة فعاد من بعثته ثائراً على أبيه وعلى الطبقة الفقيرة، ولم يكن يتورع عن مناقشة أبيه والجهر بآرائه المضادة. وتعود أبوه على أن يقابل آراءه بالهزء والسخرية معتبراً أن التعليم الأجنبى قد أفسد الولد، وقد فشل أبوه فى إلحاقه بوظيفة حكومية لأن خالد يرفض فى أعماقه الطبقة ووظائفها إلى جانب كونه ذى طبيعة تمردية ثائرة، وحينما يعثر مليم على هذا المبلغ يعرض عليه خالد أن يتقاسماه سويا، مفلسفا له ذلك بأن هذا المال مسروق من عرق الغلابة، إلا أن مليم لايجد فى نفسه ميلاً إلى السرقة حيث انتوى الاستقامة فى عمل شريف. فيقرر خالد أن يكلم الباشا ليمنح مليم مكافأة جزاء أمانته غير أن مليم يفحمه بأنه لايستحق هذه المكافأة لأنه عثر على المال فى حضوره ويعلم الله ماذا كان يفعل لو عثر على المال وحده، وتقديراً لهذه الحكمة الشعبية يقرر خالد أن يصطنع موقفاً يتيح لمليم أحقية المكافأة: يتفق معه على أن يخرج خالد لبعض

شأنه، فبعد وقت قليل يناديه مليم على مسمع من الجميع، وعلى مرأى منهم يدريه الثروة المكتشفة وبهذا يشيع خبر أمانته فيقتنع الأب بضرورة المكافأة، يوافق مليم على مضض، ولكن خالد مايكاد يخرج حتى يدفع الفضول مليما إلى العبث بأوراق خالد ومكتبة حينئذ يدخل شقيق خالد وهو ولد فاسد يعاشر راقصات الملاهى، فيفاجأ بهذا المشهد، فيأخذ النقود فيخفيها، وحينما يحضر أبوه ويعلم بخبر إصلاح النافذة يتذكر الخبيئة فيخبره ابنه الفاسد بخبر الولد مليم، وكيف استراب فيه، يفاجأ مليم بأنه مقتاد إلى السجن ليقضى فيه عاما ونصف عام من عمره.

بسبب هذا الحادث يصطدم خالد بأبيه وأخيه صدام مباشراً حادا، يحاول تبرئة مليم بأى شكل، فيبذل جهوداً مضنية فى الكشف عن فساد أخيه، ويثبت لأبيه بالدليل القاطع أن ابنه الفاسد هو الذى اختلس المبلغ لانفاقه على راقصته. ولكن الباشا لايقبل تلطيخ سمعة ابنه لأن فى هذا تلطيخا للعائلة وللطبقة، وينذر خالد بأنه سيتصدى له فى المحاكم إن هو رفع، إى قضيه، خلال ذلك يكتشف خالد أن جده مات ميتة غامضة، وأن أباه مدان فى تلك الحادثة بهدف التخلص من الجد والاستيلاء على الميراث وحده دون إخوته البنات، وبهذا يصبح خالد عدوا حقيقياً لأبيه، فيكثر الصدام الحاد، فيتم طرده من الجنة، فينتقل للعيش مع احدى عماته التى تقربه بأبنتها البلهاء وتساعده على رفع سلسلة من القضايا ضد أبيه تظل مستمرة لفترة طويلة، ويخرج مليم من السجن فيشتغل خادماً خصوصياً للفتاة الانجليزية ثم لجميع نزلاء القلعة، يتحايل على جمع المال بحركات نصب بسيطة تساعده فيها فتاته على سبيل المرح والإثارة، فبينما خالد يجول فى المدينة يلتقى مليما، ويقرر مليم أن ينصب عليه هو الأخر فيوهمه أن ثمة فتاة رأته اليوم فهامت به حباً فأرسلت مليما فى أثر يبلغه رغبتها فى لقائه فيتصور خالد أنها الفتاة التى رآها اليوم فى جروبى تنظر إليه خلسة، وهكذا يعطى لمليم قطعة نقود ويوصيه بأن يبلغ الفتاة أنه سيكون فى انتظارها على التليفون فى العاشرة من صباح الغد، وفى اليوم التالى يتلقى مكالمة من أنثى ـ الفتاة الأجنبية تقول له أنها ستلتقيه فى شقة

صديقة لها مقابل عشرين قرشا فى الليلة وأن عليه أن يسلم هذا المبلغ لمليم. يلتقى مليما بالفعل فيعطية المبلغ، لكنه سرعان مايرتاب فى الأمر، فيتتبعه حتى يصل إلى القلعة فيقتحمها مثيراً ذعر نزلائها، ولكنه بدلا من أن يعارك مليم ويحاسبه يعثر على ضالته المنشودة إذ هو سرعان مايندمج فى الجماعة، ثم يصبح من نزلاء القلعة ويقع فى حب الفتاة الانجليزية، يدفعه الحب إلى محاولة لفت نظرها بشجاعته فى الإقدام على فعل سياسى جرىء يذهب متنكراً إلى أحد المقاهى الشعبية ليخطب فى روادها ويوزع عليهم منشوراً، ولكن الرواد الفقراء يستنكرون ذلك ويشرعون فى ضربه لولا أنه البوليس كان يتابعه فيقبض عليه، ذلك أن أحد الجواسيس المندسين فى القلعة كان ينقل أخباره إلى أبيه أولا بأول.

فى السجن الذى بات فيه مليم ليلته الأولى، يبيت خالد أيضا ليلته الأولى. كانت ليلة واحدة لأن الباشا تمكن بها من وضع ابنه فى المصيدة التى لابد أن تقضى على مستقبله بهذه الأدلة الدامغة. وهنا يساومه على التنازل عن قضاياه والعودة إلى حظيرة الأب. فيجد خالد ألا مفر من ذلك، يعود بالفعل إلى حظيرة الأب وحياة الطبقة الخاوية إلى رجل تافه سكير، فى حين يتفوض التنظيم السرى وينفض فيتجه كل واحد من أعضائه وجهة مضادة لمبادئه الموهومة فى الزمن الردىء، تقوم الحرب العالمية الثانية. تعيش البلاد فى ذعر واضطراب . وفيما كان سعد الدين أحد أفراد الخلية الذى عمل بالصحافة يتجول فى الشارع لبعض شأنه الصحفى فاجأته صفارة الانذار فلجأ إلى مخبأ عمومى فاصطدم فى الظلام بالفتاة الانجليزية حيث يتعرف كل منهما على الآخر من صوته، وكان معها زوجها محمد بك سلام، الذى لم يكن سوى خادمها القديم مليم، والذى أصبح مورداً لمعسكرات الجيش الانجليزى أنواعاً متعددة من اللوازم فبات من كبار الأثرياء والمحسنين يركب سيارة فارهة وتنشر الجرائد أخبار تبرعاته الكبيرة للمشروعات الخيرية. لايدهش سعد الدين من ذلك لعلمه بأن الفتاة كان تحب خادمها القديم بالفعل، ولعلمه بأن المجتمع يحكمه منطق شبه أسطورى غير مفهوم.

فى سيارة محمد بك سلام ـ مليم ـ يتذاكر ثلاثتهم أخبار أفراد الخلية ومصائرهم، ثم يقررون زيارة خالد فى الحانة التى اعتاد السكر فيها كل ليلة، وكانوا متحمسين للزيارة لكن خالد استقبلهم بفتور شديد لأنه أصبح مسخاً شهوانياً شائهاً. لايهتم خالد إلا بفتاته القديمة فيوجه إليها الحديث مبرراً ماآل إليه حاله: ـ بالله لاتسخرى منى ياسيدتى.. إننى رجل مسكين ولكننى صرت عاقلاً. وهذا التعقل أرشدنى إلى أن طاعة الآباء هى الدعامة الأولى لسعادة الأبناء، أنها تمكننى مثلاً من أن أتحدث عن والدى قائلاً؟ «بابا الباشا» فسرعان ماتخرلى الجباه وتتفتح الطرق. إنها تمكننى من أن أعيش أفسق حياة أستطيعها، دون أن يأخذ أحد علّى مأخذا. إن جيوبى صارت مفعمة بالنقود، ومنازل أعرق الأسر مفتوحة فى وجهى أبدا، والناس لايتحدثون عنى إلا بقولهم: بارك الله فى هذا الابن المطيع. ماذا تريدين فوق ذلك.

وحينما يراها تنظر إليه بإشفاق يقول: «ولكن لاتحمليني تبعة هذا الحال، فما أنا إلا صريع الجيل الذى ولدت فيه، هذا أتعس العصور للانسان منذ بدء الخليقة، وإنك لن تجدى فرداً واحداً يعى أحوال دنياه، ويستطيع أن يكون سعيداً فى الوقت نفسه. ولكن مالسبب؟ إن الذكاء اللعين، فقد أصبح ذكاء الانسان أكبر من طاقته البشرية، أكبر من معرفته الحقيقية، أو لنسيمها وجدانه إن شئت، ذلك أن المعرفة أو الوجدان ليس ذكاء محضاً، ولكنه ذكاء وجسم، فالانسان أصبح يدرك الحقائق الجديدة التى تكشفت له بذكائه وحده، ولكنه لم يستطع بعد أن يعرفها بوجدانه لأن جسمه لايشترك فى الادراك، فالجسم لايزال مقيداً بتعاليم المعرفة القديمة والمثل القديمة، أنه لايزال يرسف فى أغلال الأنانية والجشع والغيرة والقتل والخرافات التى تملأ أوهام الشعوب، فما تنتظرين من إنسان جسمه مقيد بكل هذه الأغلال، على حين يدرك ذكاؤه تفاهة هذه القيم وزيفها جميعاً؟ لاتنتظرى سوى هذا الحال الذى أنا فيه، فأنا لاأستطيع التحلل من هذه القيود إلا إذا تحلل منها المجتمع بأسره والمجتمع لايستطيع التحلل منها إلا إذا اتسق وجدانه وذكاؤه، وهذا لايتم إلا بعد أجيال وأجيال، ولاتتعجبى إن قلت لك إن المدينة التى تمر الآن بطور

من أغرب أطوارها، فقد كنا نسمع فى القديم أن الانسان كان يصل إلى سعادته الروحية بتعذيب جسده وحرمان نفسه من اللذات، وبهذا أمكن للذكاء البشرى الذى كان منحطاً فى هذه العصور أن يسمو إلى مستوى الوجدان، ولاغرو فى ذلك، فالوجدان أول ما نشأ كان علويا دائما، فقد عرف قدماء المصريين الآلهة. والذين من قبلهم، كان لهم ألهة أخرى، هذا الوجدان العلوى أتى بقوانين من طرازه أراد أن يطبقها على الانسان نفسه فأباح أشياء وحرم أخرى، إلا أن الذكاء فى ذلك الحين، كان لايزال حيوانياً تحكمه شريعة الغابة، ولذلك كان الوجدان البشرى أسمى من العقل، أما اليوم فإن مشكلة الانسانية عكس الأشياء القديمة، فالذكاء وهو الذى صار علوياً خلاقاً، لايقف عند حد ولايخشى سلطة أو قوة، على حين أصبح الوجدان الاجتماعى (بالرغم من أنه كان علوياً فى نشأته) قاصراً عن السمو إلى مرتبة الذكاء، لأنه حدد نفسه بالقوانين عينها التى فرضها على البشر، ولذلك فإن الانسان اليوم إذا أراد أن يصل إلى توازنه، وأن يحقق لنفسه نوعا من السعادة، فرض غليه أن يرجع القهقرى بذكائه، فيعيده حيوانيا كما كان، وهذا ما فعلت، لأنه لم يكن فى مقدورى أن أرتفع بوجدان المجتمع بأسره الى المستوى الذى وصل إليه الذكاء العالمى، لم يبق أمامى إلا أن أتحصن داخل هذا القناع الذى أرى فى عينيك أنه قد أفزعتك رؤيته، ولكنك تظلمينني بذلك، ألم يأتك حديث القائل: أنتم يتشخصون إلى العلا إذا أردتم السعادة، أما أنا فانظر إلى أسفل للبحث عنها؟ هذا ياسيدتى هو حال كل مثقف فى هذا العصر المنكود، عليه أن ينظر إلى أسفل».

وما أن انتهى خالد من كلامه حتى خيم السكون على الجميع فترة طويلة، أما هانيا التى كانت الحديث موجها إليها بصفة خاصة، قد أغرورقت عيناها بالدموع. وأخيراً قطع سعد الدين حبل الصمت فهز رأسه وقال وهو يتنهد:

ـ «إيه يا هملت مصر الموزع اللب أبداً».

فرمقه خالد فى وجوم ثم قال:

ـ «بل إيه يا مصر الغارسة رأسها فى الرمال».

وبهذه العبارة الدالة تنتهى هذه الرواية الرائدة، التى لاتزال حديثة رغم مرور ما يقرب من خمسين عاما على نشرها.

من منطلق رفض المجمع اللغوى لهذه الرواية، ومن منطلق رفض الكاتب لعقلية المجمع وللواقع الأدبى والفنى والتراث العربى والمجتمع برمته، يصدر هذا البيان الفذ، كمقدمة للرواية يتخذ شكلاً فنياً إذ أنه يصدر عن روائى بالدرجة الأولى وليس عن ناقد أو منظر، فها هوذا الكاتب الروائى الواعد المشحون يتصور مليما وقد عاد إليه من مجمع اللغة العربية كاسف البال حزينا بعد رفضه، فتلقاه كاتبه وصار يخفف عنه وقع الألم، يناقش تقرير اللجنة ويصدر تقريره الخاص، الذى رفض فيه كل شىء إبتداء من آراء المجمع اللغوى، وصولا إلى التراث العربى والأدب العربى المعاصر فى بيان قوى متين الأركان نافذ البصيرة. وهو البيان الذى تأثر به كل أصحاب النزعات الحداثية وعلى رأسهم الشاعر السورى أدونيس فى جميع مقولاته الخاصة بالشعر والتراث.

عالج البيان كثيراً من القضايا الجوهرية، المنطق فى الجوائز، علاقة الكاتب بعمله الفنى، الكتابة، كخلاص للنفس وتحريرها، أسباب رفض الرواية كأسباب للقصور والتخلف الزرى والجمود وضيق الأفق، الشكل والمضمون، اللغة والمعنى، الأسلوب والصورة الفنية، الصورة الفنية ومدلولاتها المتعددة، هذه المدلولات وجذورها الفنية الداخلية فى بنية العمل الخفية، الأمة العربية نسلها ألفاظ لارجال، الأدب اللفظى والأدب الحى، الجاحظ كنموذج سيىء للأدب اللفظى، درس فى الأسلوب: إرتباط الفكرة لاالصورة التى نشأت عليها فى مخيلة الفنان، مأساة الأداب العربية القديمة وآفتها المستمرة إلى الآن معقيدة راسخة فى العقلية العربية بأن اللفظ تابع للفكرة فى حين أن اللفظ هو الفكرة كما أن الفكرة هى اللفظ فى حد ذاته ومن هنا ـ من عدم فهم هذه الحقيقة ـ فالآداب العربية جميعها آداب لفظية تسلط اللفظ على العقلية العربية، عشق اللغة العربية لذاتها كسبب جوهرى رئيسى من أسباب الجمود والتخلف لأننا نكتفى بتعليمها دون بقية العلوم التى تخلق العقلية

وتبنى القدرة الذهنية عند الكاتب وتنبت فيه حقلاً من الأفكار، بيان خطير ضد الجاحظ واتهامه صراحة بأنه لايعرف فن اختيار اللفظ ـ أولى دعائم الكتابة ـ بل إنه يهدر قيمة الألفاظ ويدلقها على الورق كالحجارة تنزلق من جاروف، تقديس الكتاب الأعظم وكيف أدى إلى تقديس اللغة فصارت هدفا فى حد ذاته وصرنا نلوك ألفاظها ومرادفاتها باستمتاع فيقتدى الخلف بالأعيب السلف فى لعبة خالصة مما أضر باللغة نفسها إذ أن اللغة لاتتقدم إلا بالفكر ولابد للأفكار أن تتألق فى الألفاظ فيتقدم الفكر وبه تتقدم اللغة وتتطور وتثرى لابدخول مفردات غريبة عنها وعن أبجديتها بل بتجدد المفردات نفسها حينما تتلبسها أفكار حيوية مستمدة من العصر والبيئة والثقافة المعاصرة ذلك أن تجديد المفردة هنا يعتبر اكتشافا جديداً لها.. إلخ.. إلخ.

فى حديثه عما يسميه بضرورة الحيل بالنسبة للكتابة الروائية ما يذكرنا برواية فذة للكاتب الألمانى الشهير «هيرمان هيسه» عنوانها «لعبة الكريات الزجاجية»، وقد ترجمت هذه الرواية إلى العربية فى أواسط الستينيات بقلم الدكتور مصطفى ماهر، وليس ثمة شك فى أصالة أفكار عادل كامل، فليس من الضرورة أن يكون قد تأثر بهذه الرواية لكن المرجح أنه كان معاصراً فى أفكاره ومتصلاً بمنجزات الفكر العالمى بحيث يمكن أن تتوارد الخواطر وتتصل الأفكار. فى رأيه أنه لابد من بذل الجهد فى اختيار الألفاظ المعبرة التى لايمكن لغيرها أن يحل محلها، مع خلوها من الحشو والفضول. فهناك كتاب لاتصبر على قراءة صفحتين فيه، وآخر لاتملك إلا أن تلتهم آخر كلمة فيه، وسر هذا يقول: «إنه ملكة اللعب بالكرات المتعددة الألوان». بعد اختيار اللفظ يجيء تكوين الجمل، كل جملة وحدة قائمة بذاتها، وكل وحدة صورة متكاملة تؤدى إلى صورة أخرى فى نفس السياق وصولاً إلى عقدة على طريق ممتليء بالتشويق والتمهيد الخفى للمعانى الكبيرة الشاملة وسوق المفاجآت يعبر عن هذه الحيل التى هى عصب الفن الروائى بلعبة الكريات الملونة، تقريبا كما نستشفها من رواية «هيرمان هيسه» حيث موضوعها الأفكار والحيل

الفنية وكيف أنها شبيهة بلعبة الكريات الزجاجية، المتشابهة، السريعة التى يستحيل الامساك بها لتحديد شخصية وحركة ودور كل كرية، ومع ذلك فالعملية الفكرية بوجه عام، فى تعبيرها عن نفسها عبر انتقالها من ذهن إلى ذهن تقوم بمثل هذا الدور، إنها تتعامل مع محض أفكار، بعضها يتجسد فى صور ذهنية وبعضها الآخر يتشخص فى سلوكها مرئية محسوسة ملموسة إلا أنك لاتستطيع التأكد من أن الفكرة الفلانية بعينها هى التى أثمرت هذا السلوك أو تقف وراء هذه الصورة أو تؤسس هذا المعتقد الراسخ، لأن حركة الأفكار واضطرامها وتفاعلاتها وإن احتفظت كل فكرة بشخصيتها المستقلة وبدورها الحتمى فى الحركة العامة للعبة فإنها تذوب فى أنداد لها شاركتها الحركة فى هذه الأنساق أو تلك.. كذلك لاتستطيع أن تحدد أى هذه السلوكيات فى هذا الواقع قد أوحت للكاتب بهذه الفكرة أو تلك هذه الشخصية أو تلك، هذا الحدث أو ذاك، ذلك أن لعبة الأفكار مجتمعة هى التى يمكن اعتبارها مؤثرة بقدر ما استجابت للتأثر.

المنسحب (٢)

حكاية عبقرى مصرى باع الفن بالكبرياء

فى رأيه طبعاً أن الأدب العربى جميعه قد خلا من لعبة الكريات الملونة هذه، لأنه أدب ألفاظ، وهجومه هذا الشرس على الأدب العربى كله، قديمه وحديثه على السواء، وعلى الجاحظ أمير بيانه المزعوم، باعتباره أدب لفظ لا أدب فكرة، ولغوا وشقشقة فارغة لاعملية تفاعل وجدانى عقلى تتولد منه الأفكار فى سياقات تتصاعد نحو ذروة تنويرية.. هذا الهجوم يتضمن من طرف خفى هجوماً على النص الفائز بالجائزة باعتباره ممثلاً عصريا لهذا اللون المرفوض من الأدب، وممثلا فى الوقت نفسه للعقلية العربية العامة، التى لم تعرف من الأدب الحقيقى إلا مويجات سطح على أعماق راكدة ساكنة آسنة، تلك هى رواية «لقيطة» لمحمد عبدالحليم عبدالله، أسوأ ما كتب هذا الكاتب الرومانسى ذو الطابع الانشائى اللفظى.

أما أدب لفظى وإما أدب حى، هذا ما يعلنه صاحب البيان، والأدب الحى هو الذى تتولد عنه الأفكار: «فأنت ترى يا مليم أن كتاب الألفاظ هم الكتاب الذى يعشرون بعجزهم عن استنباط أسلوب ذاتى حى، فتراهم يعمدون إلى فن الصياغة فيصبحون صناعا، بدلاً من إعتمادهم على فن الموسيقى ليكونوا خالقين،إنما الأسلوب هو الرجل «وهنا وجب الاعتراف: «أنى نظرت فيما وسعنى أن أقرأه من كتب الأدب العربى فلم أجد كاتبا واحداً عثر بطريق الأسلوب الفنى الصحيح، لقد غاب عنهم جميعاً أن الأسلوب فكرة قبل أن يكون لفظاً، وكان إحساسهم بالجمال

بدائياً فجاء أسلوبهم كموسيقى الزنوج. إن الفكرة تخلق فى رأس صاحبها من أول الأمر إما منغومة أو مرسومة أو منحوتة أو فى صورة ألفاظ».

ولكن ما هو السر فى أن كتاب العربية الأوائل قد جهلوا الأسلوب الفكرة واستقروا على الأسلوب اللفظ؟ وما سر عقيدتهم المتأصلة من أن اللفظ تابع للفكرة؟ ولماذا اتجهوا إلى تقديس الألفاظ تقديساً خاصاً ولماذا تملكتهم فكرة أن اللغة العربية أعظم لغات العالم وأغناها وأجملها فأحبوها لنفسها ونظروا إلى ألفاظها كغاية تقصد لذاتها لاكوسيلة وأداة للتعبير عن الفكرة؟ ولماذا انقلب الوضع الصحيح للأدب عندنا فلم يكن من عوامل نهضة الأمم فى أى عصر من عصوره إذ هو تابع لامتبوع شأنه فى ذلك شأن الفكرة المسكينة حيال اللفظ المتسلط؟!

بكل صراحة ووضوح يجيب البيان:

«الحق أن تحكم كتاب بعينه، معناه منع الأدب من النمو والتطور، والوقوف عند حد لايتعداه إلا بالثورة، والثورة تصلح، ولكنها تحطم وتفسد فى نفس الوقت.. ومع ذلك فقد تصبح فى بعض الأحيان شراً لابد منه، ويصيب هذا الشر أول ما يصيب أولئك المساكين الذين أشعلوا نارها» وفكرة الكتاب الأوحد الذى يتحكم فى أدب شعب من الشعوب إنما هو محور أساس فى فكر الشاعر السورى أدونيس ومقولاته الخاصة بالحداثة. ومن المقولات التى لابد أنها أرهصت بفكر هذا الشاعر وجماعته قول البيان فى حديثه عن موسيقى الأسلوب الواجب توافرها عند الكاتب الحقيقى: «فإن ناحية الضعف فى الشعر هى هذا الوقع الهندسى المنتظم عند نهاية كل قافية. لهذا كانت معالجة الشعر غير المقفى أصعب وأشق من معالجة الشعر الموزون. لأن الشاعر يضطر فيه إلى استكشاف الموسيقى الأصيلة للفكرة ومنابعها، ولايصح له أن يحتج باضطراره إلى التزام القافية».

ولعلنا نذكر ما آثاره أدونيس من شعور بالاستنكار حينما اختزل ديوان الشعر العربى كله بجلالة قدره بجيمع عصوره إلى ثلاثة أجزاء فحسب من كتاب لايكاد عدد صفحاته يقارب عدد صفحات ديوان المتنبى وحده، وكانت وجهة النظر

المعترضة هى أن هذا الإجراء فيه إجحاف كبير بمكانة الشعر العربى واتساع عمق تراثه، ليت شعرى ماالذى يمكن أن يقوله هؤلاء الآن إذا قرأوا هذا الرأى الجرىء لصاحب هذا البيان، حيث يقول فى صيحة مبكرة: «وعندى أن الشعر العربى يفضل النثر بغير جدال، ولكنه مع ذلك ليس شعراً. ولقد ارتأيت فى هذا الشعر رأياً أحب أن أعرضه عليك، أننى أحب الشعر العربى، ولكن قراءاته مع ذلك لم تكن تلهب حاستى الشعرية أو تطلق خيالى إلى بعيد الآفاق فطفقت أتأمل الأمر حتى اهتديت إلى السبب، وجدت أن الشعر العربى يعجبنى ويلذنى لأنه أصيل، ووجدت كذلك أن علة إنطفاء جذوته الخيالية ترجع إلى أنه لم يتناول موضوعات الشعر الأصيلة، بل يطرق الموضوعات الجدرة بالنثر ثم يعالجها علاج الناثر لا الشاعر، موضوعات الشعر العربى ـ فيما عدا الغزل ـ هى الحكم والفلسفة ثم النقد فى صورة هجاء والوعظ فى صورة مديح، فإذا تركنا الغزل جانباً، وجدنا أن هذه الأغراض جميعاً عن الشعر ـ لابوصفه نظماً ولكن بوصفه أداة تعتمد على إثارة الخيال ـ فغرض الشعر إيحائى لاوصفى أو تقريرى. أما الغزل فهو من موضوعات الشعر الأصيلة بغير جدال ولكن الشعراء العرب كانوا يتناولونه من الناحية الحسية الواقعية فيقتصرون على وصف ما يعانيه المحب من ألم إن هجر الحبيب، وما يحس به من غبطة إن وصل، وقد يتغزلون فى جمال المعشوق، ويصفون ليالى اللقاء ومختلف الحيل التى يتلمسونها للوصول إليه، وهذا أقرب إلى القصص منه إلى الشعر إن وقفت المعالجة عند هذا الحد وغالباً ما تقف.. حقيقة إنك تستطيع أن تعبر عن الفكرة نثراً أو نظماً وفقا لمواهبك ولكنك إن اخترت الشعر أداة فعليك أن تعالج الفكرة معالجة شعرية أما شعراء العرب فكتاب نثر فى واقع الأمر، ولكنهم اخطأوا اختيار وسيلتهم فى التعبير، إذ لم يكن من بينهم من يملك قبس العبقرية الشعرية.. وعندى أن الشعر لايجوز أن يكون وصفيا أو تقريرياً لأن الوصف والتقرير يعتمدان على العقل، أما الشعر فيجب أن يصدر عن العاطفة، فما الشعر إلا قلب يخاطب قلباً عن طريق العاطفة، أما شعراء العرب فقد كانوا يتكلمون بعقولهم. لهذا لم

يكن الشعر العربى من نوع هذا الشعر الذى يروعك ويذهلك. إنك تفهم كل ما يحويه من معان، أدق فهم، فتظل أبواب خيالك مغلقة، لأنها لاتفتح إلا بالإستثارة والإيحاء، فالمعنى الصادر عن العقل يأتيك واضحاً محدداً لأن العقل لابد أن يفهم قبل أن يعبر. أما المعنى الصادر عن الخيال فمعنى حى، ينبض بشتى الاحتمالات والتهاويل التى تقدح الزناد، وتطلق الأسار. الخيال يعطيك الفكرة كاملة لاأجزاء كما يفعل العقل، ثم هو من بعد يتركك تفهم ما تستطيع أن تفهم، كما يتيح لك أن تجرى فى إثر ما تهوى من الأحلام التى أوحى بها إليك، وأنت تجرى فى هذا الشوط على قدر جهدك.. فالقصيدة الوحيدة يفهمها الناس على وجوه شتى، كما تثير فيهم أخيلة متباينة، وقد يفهمها جيل على خلاف جيل آخر.. إن نظرت فى الشعر العربى وجدته يتدلى الى التفضيلات الجزئية لشئون الحياة، أنت لاتجد فيه فردوساً مفقوداً، أو كوميديا تجد رجلاً يدحو رفاقه أو جريراً يهجو فرزدقاً، فالاشعر العربى ـ فيما عدا المعرى إن اعتبرته شاعراً ـ يضيق ذرعا بالعالم الرحيب فلا يستطيع أن ينظر إليه نظرة شاملة، بل حسبه أن يجوس بين الناس فيصفهم وصفا قريب المنال، أو أن يغازل حبيبته فيقنع بالغناء دون التسبيح».

ولكن هل معنى ذلك أن نحكم على العربى بالقصور وعى أدبهم بالانحطاط والخشونة وسوء المصير؟

ومن الواضح طبعاً أن الأخذ عن الغرب لايعنى التبعية المطلقة كما هو الحال الآن فكانت النتيجة أن شعرنا الحديث بوجه خاص قد بات مسخاً شائهاً من فرط تبعيته للغرب، ويبدو أن بعض شعرائنا قد خلطوا بين الاستفادة والتبعية، وقد تنبه عادل كامل لهذه النقطة فاستشهد بقول لجورج ديهامل: «لكى تكون هناك حضارة. لابد من مناهج أصيلة تزدهر بفضلها مؤلفات أصيلة»: نعم، فالمنهاج الأصيلة هى ما ينقصنا حتى الآن. ثم أن صاحب البيان يقول: «ولاتظنن يا مليم أن محاكاة الغرب معناه نقل أفكارهم أو اقتباس موضوعاتهم، فنحن لانأخذ عنهم سوى نظرتهم الصحيحة للفن، ومن مقتضى هذه النظرة الصحيحة أن يتحرر الفنان

من القيود المصطنعة حتى يتيسر له الاستجابة لداعى الفن وحده، بهذا يكون مخلصاً لنفسه ولمهنته، وهو لايستطع أن يدعى هذا الإخلاص إن كان يعيش فى مصر، ثم يرسم صوراً فرنسية أو أمريكية، فالوحى الأصيل لايكون عن طريق الكتب بل عن طريق البيئة التى يتمرس الكاتب فى أحضانها، ويخالط أهلها ويتنسم هواءها»

ويشن صاحب البيان هجوماً أشد شراسة على اللغة العربية، فالحقيقة أنها يستعصى تعلمها على غير الناطقين بها والناطقين على السواء، ويرى أن كثرة المترادفات ليست دليل ثراء بقدر ما هى دليل فقر وبلبلة، فالأسد له خمسون اسما وللثعبان ما ئتان، وللشهر ثمانون، ولحجر معين سبعون».

وبالرغم من هذا الثراء الفاحش الذى لامبرر له إطلاقاً إذا بهذه اللغة خلو من الألفاظ المعبرة عن الأفكار العميقة والآراء الصعبة غير المألوفة.

ثم يقول: «غير أننى حين تدبرت الأمر اتضح لى أن إسراف اللغة العربى لايقتصر على كثرة المترادفات، وأن هذه المترادفات ليس سوى إحدى مظاهر علة عامة، فاللغة العربية لاتزال مثقلة بالكثير من القواعد والقيود التى تحررت منها اللغات الأخرى على مر العصور، فهى مثلاً لاتزال لغة معربة بينما تحررت سائر اللغات الأوروبية الحية من هذا القيد، كذلك فإن الكثير من القواعد التى تحويها كتب النحو ـ والتى تعقد اللغة وتصبعها على طالب العلم ـ مما يسهل الاستغناء عنه بغير ضرر يصيبها، بل إن هذا الاختصار يعود على اللغة بنفعين هامين، فهو من جهة يجعل التمكن منها قريب المنال، كما يجعلها لغة سهلة الانتشار، تستطيع أن تضم إلى حظيرتها الكثرين ممن صدهم غناها المزعوم هن تعلمها، وإن كانت اللغة العربية تحوى كثيراً من الفضول الذى لانفع فيه، فهى من جهة أخرى لاتزال قاصرة فى كثير من نواحيها، وأهم مظاهر هذا النقص طريقه الكتابة، فإن مفكرى العرب لم يستطيعوا طوال الأحقاب الطويلة الماضية أن يبتكروا للكتابة طريق سهلة دقيقة مغنية موحدة، فالحروف غير المشكولة إنما هى نصف اللفظ فقط، والحروف المشكولة تجعل الكتابة تسير فى ثلاث خطوط متوازية تتردد بينها العين فتتعب،

ويحار فى تتبعها اللسان فيخطىء أكثر مما يصيب، ومن هنا كان اقتراح استعمال الحروف اللاتينية، وكانت الضجة المشتعلة الأوار فى هذه الأيام.

وإذا اتفقنا مع عادل كامل على صعوبة اللغة العربية، فإننا لانتفق معه على الاقتراح استعمال الحروف اللاتينية، ذلك الاقتراح الذى أطلقه سعيد عقل «ذات يوم ولم يجد أى درجة من القبول، لأن التخلى عن الحرف العربى معناه التخلى عن الأبجدية برمتها، والتفريط فى مثل هذه المسائل الأبجدية برمتها، والتفريط فى مثل هذه المسائل الجوهرية، ببساطة، بعنى التفريط فى كل شىء، والأفضل أن يتحرك علماء اللغة لاختراع مفاتيح جديدة تفض أبوابها المغلقة، أما بالنسبة لكثرة المترادفات باعتبارها فضول وحشو كما يرى فإننا أيضاً لانوافقه على رأيه، صحيح أنه أورد حجة علماء اللغة من أن هذه المترادفات ليست فضولاً وحشواً إنما هى تسميات للأشياء فى أطوار مختلفة وأوضاع وأشكال مختلفة، ثم رد عيل هذا الرأى بالرفض أيضاً، فإننا مع ذلك نعتقد أن كثرة المترادفات فى اللغة العربية إذا أحسن استخدامها يمكن أن تكون مصدر ثراء حقاً، وعلى أى حال فلنورد رأى صاحب البيان فى هذا الصدد فلعله يجد نصيرا يشاركنا التفكير فى حل ميسور ولو من وجهة النظر المعارضة، يقول: «أما المعانى المختلفة التى يصفها المتأخرون لمترادفات مسمى واحد، فهى لاتفيدنا فى شىء، لأنها معان تحكمية مبناها الاسنباط الشخصى ثم إن اللفظ وحده لايوحى بالمعنى، وإنما الذى يوحى به طريقة الصياغة، فالكاتب المبدع يستطيع أن يسبغ على لفظ الأسد كل الصفات التى يتميز بها مسماه ــ من قوة وشجاعة واعتداد ــ عن طريق الصياغة البارعة، لا عن طريق اختيار مترادف بدلا من آخر، ولقد يستعمل الكاتب غير المتمكن أضخم ألفاظ المعجم فتبدو فى أسلوبه ضعيفة متخاذلة». وعن محنة الإعراب بالنسبة للغة العربية يذكر إنه من الميسور الاستغناء عن الإعراب كما فعلت لغات الغرب، ويقول: «وبفرض أن الإعراب يؤدى بعض الأغراض البلاغية، فإن فى مكنة الكاتب دائماً أن يؤدى هذه الأغراض بوسائل أخرى، ومما لاشك فيه عندى أن كسبنا من تبسيط قواعد اللغة

أجدى لنا كثيراً من اختصار كلمة أو حرف فى جملة من الجمل، إن أكبر دليل على عدم جدوى الإعراب أننا استغنينا عنه فى لغتنا العامية منذ زمن طويل دون أن يستعصى علينا التعبير عن أى معنى من المعانى ودون أن يقصر هذا التعبير عن المعنى المراد»، ثم يوشك أن يقنعنا برأيه حين يقولك «فالجاهلى لايقول لك إن عنده ناقة قد جف لبنها ولكنه يقول: عندى جاذبة، وتسأله عن الجاذبة فيعجب لجهلك ويقول أنها الناقة التى جذبت لبنها من ضرعها فذهب صاعداً، يالحول الله!، وهو لايقول لك إن ناقته قليلة اللبن، ولكنه يقول انها دهين أو بكيئة. فتسأله ما البكيئة وماالدهين؟ فيقال لك إنها الناقة التى يمرى ضرعها فلايدر قطرة والأعرابى لايقول لك إن لناقته ولداً عمره شهراً أو سنة أو سنتين.. معاذ الله! إنه سليل قبل أن يعرف أذكر أم أنثى. فإن بان أنه ذكر قيل سقب وإن بان أنه أنثى قيل حائل، ثم هو حوار حتى يفطم، فإذا فطم قيل فصيل. وذلك فى آخر السنة الأولى من وضعه. فإذا دخل فى الثانية قيل ابن مخاض، فإذا دخل فى الثالثة قيل ابن لبون، وإذا دخل فى الرابعة قيل حق، فإذا دخل فى الخامسة قيل جذع، فإذا دخل فى السادسة قيل ثنى، فإذا دخل فى السابعة قيل رباع، فإذا دخل فى الثامنة قيل سديس، فإذا دخل فى التاسعة قيل بازل وقد يقال فاطر، فإذا دخل فى العاشرة قيل مخلف، فإذا علا السن بعد ذلك قيل عود، فإن علا عن ذلك قيل قحر، فإن تكسرت أنيابه قيل ثلب. ويقال فى الناقة إذا كان فيها بعض الشباب عزوم وربما قيل شارف» . فإذا كانت هذه القائمة قد ضايقتنا بالفعل، كما يذكر الكاتب، فماذا يصيبنا من اختناق إذا استطرد فذكر لنا أسماء النوق بحسب الوانها، أو شىء عن الخيول أو الأسود أو الثعابين أو الحيات؟! ناهيك عن التخصص المشرف الذى يشمل الصفات أيضاً، فالأعرابى لايقول لك إن فرسه به بياض فى أسفل قوائمه، بل يقول إن فرسه به بلقة، وأظن أننا نتساءل مع صاحب البيان فى ضيق: «هل أنت مكلف بمعرفة هذا ـ السيم ـ حتى يقال إنك متمكن من اللغة العربية؟ لسوء الحظ هذا ما يقوله بعض الناس إلى الآن. وهم مخطئون جدا. فكثرة المترادفات كما

قد رأيت من خصائص لغات البداوة، وهى تدل على قصور الخيال، فالبدوى إذا عجز عن وصف الشيء، الذى يريد التعبير عنه، تراه يخبط اسماً كيفما اتفق، يشمل الصفة والموصوف معا، فيقول لك سديس وبلقة وجاذبة، وهذا يدل أيضا على ضعف العقلية التجريدية، كما هو الحال عند سائر القبائل غير المتمدينة، هذه الصفة الأخيرة هى علة خلو اللغة العربية من الألفاظ المعبرة عن الأفكار العميقة، وليس الذنب ذنب الجاهلين فى بقاء هذا النقص إلى اليوم، فهم قد فعلوا كل ما يمكن أن يطلب من قبائل فى حالة بداوة، ولكنه ذنب كتاب العرب المتأخرين، الذين كان عليهم أن يبتكروا هذه الألفاظ، فلم يفعلوا، لقد صنع الجاهليون لغة تناسب بيئتهم. أما الكتاب المتأخرون فقد صنعوا بيئة تناسب لغة الجاهلية، ويريد بعض مفكرينا الآن أن يرتكبوا عين الإثم». والحق أن الكاتب قد أصاب فى تعبيره هذا الأخير، لقد صنع الكتاب المتأخرون بيئة تناسب لغة الجاهلية، إننا ـ وخاصة نقاد الأدب ـ يجب أن نتوقف طويلاً جدا أمام هذا التعبير لعلنا نكتشف زيف الكثير مما يكتب فى الشعر والقصة والرواية.

لنا من ثقافة الكاتب وسعة إطلاعه فى جميع مباحثه نفع كبير، إنه يتتبع موضوع اللغة باعتبارها أخطر الأدوات فى قيام أى شعب من الشعوب، يورد آراء الفلاسفة وعلماء اللغة والشعراء والنقاد من أقطار عالمية متعددة. فى كيفية نشأة اللغة عند الإنسان دون الحيوان، لأن الانسان ـ دون الحيوان ـ تمكن من كسر الحاجز بين الزمان والمكان بواسطة اللغة فارتفع عن الحيوان، أمكنه وضع تصور للزمان كفكرة مجردة وللمكان أيضاً، أصبح بإمكانه تصور ما حدث فى زمن مضى، وما سيحدث فى زمن لاحق، وأن يتصور الفروق بين الأزمنة وبين الأمنمكة وبين كل منهما على حدة فى أطوار متعددة، وأن يعبر عن هذا وذاك بواسطة اللغة، لقد ولدت اللغة بعد أن تمكن الإنسان من السيطرة على الزمان والمكان إذ أصبح فى حاجة إلى نوع من الرموز الذهنية التى تقوم مقام المعالم المادية فى العالم الخارجى، فابتكار الرموز كان ضرورة لازمة ليتمكن الإنسان من خلق عالمه العقلى المستقل

عن عالم الزمان والمكان، وكان أن ولدت اللغة حين انتقل الإنسان من حالة ما قبل الشعور إلى الحالة الشعورية، وثمة اختلاف جوهرى بين العالمين، عالم الطبيعة وعالم العقل، هذا الاختلاف ـ يقول ـ هو بيت القصيد فى موضوعنا : «ذلك أننا بينما نجد عالم الحس فى حالة تغير دائم، إذا بعالم العقل ينمو تدريجياً حتى يصل إلى أقامة صرح معنوى ثابت وغير قابل للزوال، فالثبوت هى الميزة العتيدة لعالم العقل، والتغير والزوال والتلاشى هى الصفات المميزة لعالم الطبيعة، عالم الطبيعة يسيطر عليه الزمان والمكان، أما عالم العقل فهو المسيطر على الزمان والمكان، لهذا كانت الوظيفة الأساسية للعقل الواعى هى أن يختار الأنواع العامة الدائمة فى عالم الطبيعة بعد أن يجردها من أشكالها المتغيرة، فإذا ما تم له هذا الإجراء المبدئى، إختار لكل نوع رمزاً ثابتاً دائماً يكون بمثابة لبنة فى صرح عالم العقل الذى لايزول، فاللغة هى عنصر الثبوت فى عالم متغير زائل». ويخلص الكاتب من هذا البحث إلى أن رموز اللغة يجب أن تتحرر تحرراً تاماً من الحدود الحسية للزمان والمكان كما أن العقل متحرر منها.. يجب أن تتحرر الرموز من طبيعة الزمن المتلاشى ومن جمود المكان وتحديده، وأهم ما يتوصل إليه صاحب البيان هنا هو أن: «اللغة العربية ـ فى صورتها الجاهلية التى تثبت عليها إلى الآن ـ لغة زمان ومكان، إنها لغة زمان ومكان بمعنى أن ألفاظها لم تتحرر من قيودها، كما يفترض فى كل لغة ناضجة حية، فالزمان والمكان يسيطران على رموز اللغة بدلا من أن تسيطر هى عليهما إلى ذلك فهذه اللغة تفتقر إلى خواص ثلاث يحددها العلامة البرت ويلسون فى: أن تكون اللغة مرنة قابلة للنمو من ناحية وأن تكون فى الوقت نفسه ثابتة دائمة من ناحية أخرى، وأن تكون الرموز مميزة ومختلفة سواء فى الشكل أو فى المعنى، كما أن الأجناس الطبيعية التى تمثلها مختلفة ومميزة. أما أهم هذه الخواص الثلاث فهى ـ كما قدمنا ـ أن تتحرر رموز اللغة من الحدود الحسية للزمان والمكان».

على هذا إذن: «فألفاظ لغتنا ليست مرنة ولاثابتة، لأن العرب لم يتبعوا فى اختيارها السبيل الصحيح، كأن عليهم أن يجردوا النوع من مظاهره العارضة،

فيطلقوا الاسم على الجوهر، ولكنك تراهم يتبعون عكس ذلك، فهم لايطلقوا الإسم إلا بعد أن يرهقوا المسمى بالأوصاف والحدود، فالخود عندهم هى المرأة الجميلة، الحسنة الخلق، الشابة، ما لم تصر نصفا، ولهذا فإن معظم ألفاظ اللغة العربية تدل على معان مركبة، ومعنى التركيب هنا، هو أن هذه الألفاظ محددة بالزمان والمكان.. فالأعرابى يرى امرأة معينة، فى صورة معينة ذات سن معين، فيطلق على مجموعة هذه المميزات اسماً واحداً، هذا الاسم ذو المعنى المركب لابد أن يموت، لأنه يتضمن معانى تحكمية إبتدعها فرد، فالإسم الذى اختاره إنما يؤدى هذه المعانى بالنسبة لهذا الإعرابى وحده، ولكنه لايوحى بها للآخرين، فهو لفظ للاستعمال الخاص لا العام، وتحتوى اللغة العربية على عدة آلاف من أمثال هذا اللفظ». فاللغة العربية إذن لغة فقيرة جدا إن لم تكن ميتة. وكثرة المترادفات فيها بهذا الإسراف هى من مظاهر ضعف الخيال وقلة الحيلة، أما اللغة الغنية الحية فيجب أن تكون: «لغة بسيطة، وهى لاتكون كذلك إلا إذا كانت ألفاظها مختصرة معروفة سهلة، ويجب ثانيا أن تكون لغة معبرة دقيقة، وهى لاتكون كذلك إلا إذا كانت أداتها طيعة مرنة، لهذا يجب أن تختصر اللغة اختصاراً تاما سواء من حيث الألفاظ، أو من حيث قواعد النحو والصرف».

فى تقديرنا أن علماء اللغة عندنا يجب أن يناقشوا هذه الآراء بجدية واهتمام فقد آن الأوان لأن نكف عن الاستعلاء الأجوف عن مثل هذه النظرات خاصة إذا كانت صادرة عن علم ووعى كبيرين، ويجب على بعض شعرائنا المحدثين أن ينتبهوا إلى هذا الرأى الذى يخلص إليه صاحب البيان: «ولاتحسبن أننا نعيب على اللغة العربية أنها نشأت فى مبدئها لغة زمان ومكان، لغة محدودة فى نطاق البيئة التى أبدعتها بحيث يقتصر فهمها على القبيلة أو القبيلتين. إننا لانعيب عليها هذا، فلعل كل اللغات نشأت على هذا النحو، أما ما نأخذه عليها فهو أنها جمدت عند هذا الحد. فمنا تالك والغالبية العظمى من كتاب هذا الجيل ترى أن خدمة اللغة العربية لاتكون إلا بالرجوع بها إلى عهدها الجاهلى، إنهم يرون فى ذلك إحياء للغة، وهو

فى الواقع وأد لها، إن كتاب العربية منذ صدر الإسلام لم يفعلوا شيئا فى سبيل النهوض والسير بها فى طريق التطور التقدمى، لقد اعتبروها كاملة المحاسن، مستكملة الصفات وهذا لايزال لسوء الحظ رأى معظم كتاب الشرق العربى».

المنسحب (٣)

الحضور من خلال الانسحاب

العجيب أنه بعد مرور ما يقرب من خمسين عاما على نشر هذا الرأى لانزال نرى بين كتابنا من يمعن فى التوغل فى اللغة الجاهلية القديمة بناء على نفس المعتقد الذى رصده عادل كامل ويكفى أن نضرب المثل بثلاثة شعراء مصريين ماثلين هم محمد عفيفى مطر وحسن طلب ومحمد أبو دومة، أليس هذا مما يؤكد أن هذا الرجل كان ثاقب النظر عميق الدرس إلى حد كبير جداً وغير أن ما أتوقعه كرد فعل هو الاستعلاء الأجوف على هذه الآراء، تلك هى آفة مثقفنا المحدثين، وهى نوع من الهروب يعكس عجزاً من التصدى والمناقشة، كما تعكس استبداداً بالرأى وعدم استعداد للنزول عنه مهما كان قائماً على الخطل، والأرجح أنهم سيرمون صاحب البيان بعشرات التهم الباطلة حين يقرأون قوله الذى يعكس منتهى الضيق والسخط بلغتهم المقدسة: «ياللغة العربية هذه!.. صدقنى أنها ـ فى صورتها الحالية ـ ليست لغة، إنها غول أو عنقاء دون أن تكون خلا وفياً، أليس الغول يمتص الدماء؟ وهكذا اللغة العربية تقتضيك زهرة عمرك فى تحصيلها، حتى إذا ما حسبت أنك بلغت الغاية فى معرفة ألغازها، ثم بدأت تكتب سطراً أو بعض سطر، إذ بذئابها تنهشك من كل جانب وتخطىء كل حرف مما كتبت، يخيل إلى أنه لو طلب من هيئة تضم كبار علماء هذه اللغة أن تكتب عشرة أسطر ببيان صحيح، لانتهت المحاولة بأن تصبح هذه الأسطر العشرة موضوعاً لمجادلات لغوية لاتخلو منها جريدة أو مجلة أدبية لمدة عام أو عامين» .

علينا أن نواجه هذا السخط الشديد بأعصاب جد هادئة، لأنه من المؤكد أن الكاتب، ليس حاقداً على لغته، وليس عدواً، إنما هو ذلك السخط الناتج عن غيرة على اللغة القومية التى ينتمى إليها ويتمنى لها نهوضا يليق بأمة كانت ذات يوم أم الأمم وأصل حضارتها.

ومهما يكن من أمر فلا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن الكاتب كتب كل هذا البنيان الناصع بلغة عربية مشرقة غاية فى الثراء والعمق مما ينفى الكثير والكثير من سخطه وأن بقيت لآرائه قيمتها الجديرة بالنظر والاعتبار.

ويبدو أن أسباب رفض الروايتين: مليم والسراب، كانت تحتوى – إلى جانب الاتهام ببعدها عن اللغة الجاحظية وعن الموضوعات التاريخية – على سبب خاص بالأخلاق، بمعنى أن الرواية ليست تحض على الأخلاق الحميدة ناهيك عما بها من مشاهد تزعج حفيظة المحافظين، وهو سبب يلخصه مليم لصاحبه بعبارة موجزة غامضة: «أنت متهم فى أخلاقك» ثم يستطرد فيقرأ عليه ما أسماه بصحيفة اتهام: «ماكان عليك أن تستنبط أفكاراً من عند، ولاأن تتحدث بغير ما يدور على ألسنة العوام من كلام، فإن صادفك فى طريقك عادة مرعية أو سنة خلقية فليس من شأنك أن تتساءل هل أخطأ القوم أم أصابوا، بل عليك أن تسلم بواقع الأمر فى صمت، فالكاتب يجب أن ألا تدور بخلدة لحظة فكرة قيادة العقول، أو نقد الأنظمة، حتى وإن كانت ضارة، فما مهمته إلا أن يسير فى أعقاب ما تواضع عليه الناس، أما والقصص هو تصوير للحياة. فالفنان الحق هو من يلتقط فتات الموائد فيعيد طهيها بسبيل جعلها وجبة متواضعة تعافها النفوس الكريمة».

واضح طبعاً أن الكاتب صاغ هذه الصحيفة بسخرية مريرية ليجسد آراء اللجنة تجسيداً كاريكاتوريا، ولكن الأهم من ذلك أنه يطلق من هذه النقطة إلى بيان ضاف مهم جداً عن علاقة الفن بالأخلاق. وأول صيحة يطلقها عندئذ هى صيحة برناردشو: «إننى أعترض على النظر إلى الفن بمنظار الأخلاق» وما ذلك لأن هذه النظرة تعوقنى وتضرنى شخصياً، ولكن من زاوية المصلحة العامة»، وهذه بالطبع

صيحة صادمة للذوق الشرقى العربى العتيد، الشرق الأخلاقى النزعة ولكن الكاتب الثائر يستهدف الصدمة بالفعل، فمهمته هى هز الوجدان هزاً، وزعزعة الأشياء المستقرة التى باتت سلطة قمعية جبارة لاطائل من ورائها. ونحن لابد أن نتقبل هذه الصدمة طالما أنه يمسك فى رحدى يديه بالمعول وفى الأخرى بالمسطرين. تلك هى مهمة الكاتب كما يراها: «إن من يمتهن حرفة الأدب إنما يضع نفسه ـ أراد أو لم يرد ـ موضع القائد لعقول الرجال. فعليه أن يحرص على أن يكون عقله مرنا، متفتحا، وقبل كل شيء متسامحاً، له أن يكون بوقاً لكافة الآراء ـ فيما عدا الهوى المتعصب والتحيز البغيض ـ فما أساس مهمته إلا أن يرى العنصر الطيب فى سائر الأشياء.. فإن كان يخشى عدم الإدراك الكامل لشيء أو لفكرة.

فمن واجبه ان يلزم الصمت. إن الكاتب لايملك فى مصنعه سوى آلة واحدة، هذه الآة هى القدرة على الفهم، هى المشاطرة والحب. هذا فقد وجب عليه إذا اتخذ مجلس الناقد ـ أو المحكم يا مليم ـ ألا يحاول تصيد الأخطاء فهذا جهد يسير بل أن يسعى باحثا وراء المزايا، وهذا جهد نبيل، وإلا فما يكون حكم الناقد الذى لايسلك هذا المسلك فى مزامير التوارة مثلا أو فى بودلير وأزهاره الشريرة؟»

لم يضع تعريفاً للأدب يعكس وعيا متقدماً وفهماً حقيقياً له فى وقت مبكر نسبياً لم تكن قد شاعت فيه الكتابة فى الفن الخالص، باستثناء كتابات مندور فى كتابه (فى الميزان الجديد) يقول: «الأدب يا مليم تعبير عن الطبيعة البشرية فيما تتخذ من صور متباينة، وهو فن رفيع حر من كل قيد سوى غايته اللذيذة السارة كالفنون الأخرى، فيجب أن تجرى عليه قوانينها ونحن لانستطيع القول بأن للموسيقى غاية أخلاقية. وغير ذلك الرسم والنحت فإنهما يهدفان إلى إثارة الابتهاج باللون أو الشكل. فالذى يريد أن يحكم على الأدب، عليه أن ينظر إليه بمنجاة من القيود الوضعية والزمنية، وأن لايتأثر فى حكمه بالآراء الموروثة أو المكتسبة، وأن ينحى جانبا ما قد يخامر المحكم من معتقدات شخصية تفسد حكمه وتحول بينه وبين تعرف الحقيقة حينا، وتذوق الجمال حينا آخر، الذى يريد أن

يحكم على الأدب هو من يجد فى نفسه القدرة على الإعجاب بصرامة أبى العلاء وتشاؤمه، وبإباحية أبى نواس وإلحاده، وبتقوى أبى العتاهية وورعه، سواء بسواء، إنه من يملك الاهتمام بالجديد من الآراء، وإن كان قد تربى وهو حدث على غذاء محفوظ ـ هذا هو الرجل المثقف». ولأنه كان يظن أن هذا جميعه من البديهات التى لاجدال فيها، فإن السدمة التى أحدثها اتهامه فى أخلاقه بغير حق: «هزت كيانى واتسعت نفسى حتى أصبحت أخجل من أننى ولدت مصريا، وإن كانت مصر الحبيبة براء مما أخجلنى». ثم يستدرك: «كل امرىء يا مليم لايخلو من أهواء ولكن كل أديب يجب أن يكون قادراً على التحرر من شخصه، فهذه هى الميزة الأساسية للفنان».

وبعد أن يوسع لجنة التحكيم لوما وتقريعا وسلخا ـ بطريق غير مباشرة ومن خلال تهكمه على حكمة الشيوخ المفتقدة ـ يعود إلى حديثه عن وظيفة الأدب، فيوسع من مفهومه، وفى رأينا أنه درس عميق فعلا لكتابنا الشبان، من كاتب كان شابا مثلهم حين كتب هذا البيان الفذ: «قلت لك يا مليم أن وظيفة الأدب هى محاكاة أعمال الرجال الطيب منهم والشرير، ففن الأدب هو التعبير، ومادته هى التجربة المحضة، ويجدر به ألا يكون غير ذلك من مختلف الصور التى تدلى إليها فى بلدنا إلى يومنا هذا. إنه لما يشعر النفس بمقدار تخلفنا عن الشعوب المتقدمة أن الكثرين منا لايدركون أن الأدب يغنى النفوس بمجرد ما يعرضه لها من تجارب يستخلصها الكاتب وسط بحر الحياة الدافق، ويقدمها إلى الناس شاملة حية تتجمع فيها كل عناصر الكون، هذا وحده كاف كل الكفاية، ولايطلب من الكاتب أكثر منه أو أقل.

فالتجربة الحقة عالم صغير فى ذاتها. وقد لايكون القارىء قد طرق هذا العالم من قبل، وقد يكون قد جاس فيه دون أن يدركه كل الإدراك. فإذا صهر لنا الكاتب هذا العالم فى بوتقة فنه، ونفذ بضوئه إلى أغوار كهوفه المظلمة، واستطاع أن يوصل إلينا هذه التجربة شاملة حية، فإن هذا العالم الذى يفتح لنا مغاليقه يصبح

معروفا كلما صادفناه، ونحن بمعرفته أغنى منا لو قرأنا ألف كتاب فى المواعظ والحكم. فأنت ترى يا مليم أن الأدب بوصفه تعبيراً عن تجربة ليس فيه سعى وراء المغزى والمعنى، فإذا وفق الأدب فى أن يكون له وجود مستقل، فإن التجربة التى يعطينا إياها تصبح بهذا ذات مغزى، وهذه وظيفة الأدب المثلى «ثم يقول: حسب الكاتب أن يقدم لنا تجربة حية ذات مغزى بنفسها. وحينئذ فلا حاجة بنا لأن نحكم عليها بأنها صادقة أو نافعة أو مهذبة» معنى ذلك أن الأدب لاوظيفة له بالمعنى التقليدى التراثى، فإذا ناأردنا أن «نوظفه» كوسيلة للحض على الخير أو تهذيب الأخلاق أو أية غاية تعليمية مهما كان نبل غرضها خرجنا بذلك عن فن الأدب إلا أن الأدب يمكن أن يؤدى كل هذه الأغراض إن تضمنتها تجربة الحياة الأديب: فالكاتب إنما يعنى بتصوير الحياة الانسانية كما هى، فهو يعرض الخير والشر على السواء، ويتناول العواطف السامية والوضيعة، والطبائع الشاذة والمألوفة دون أن يكون درس وعظ وإرشاد، أو يقف عند حدود الأخلاق إذ لاتلائمه دائماً».

لقد أخطأوا فى حق الأدب حين قرنوه بالأخلاق.

وأخطأوا فى حق الأخلاق إذا جعلوا وسيلتها الأدب.

هكذا يقرر صاحب البيان، وينحى باللائمة على أولئك الذين أفسدوا ذوق الشعب باغطائه ما يهوى، وما يرضى غرائزه الدونية عودوه على انتظار المغزى الأخلاقى، والكتابة على طريقة:

وهذا جزاء الظالمين، ولصاحب البيان ـ من قراءاته الواسعة واتصاله العميق بالثقافة الغربية ـ هاد ودليل، حتى ليقتطف من أشجاره الثمرة التى يريد دون عناء، فكل النصوص التى ساقها فى سياقه إنما هى وثائق لاسبيل إلى تجاهلها، وهكذا يستشهد برأى للكاتب الانجليزى ستيفنسون يبلور وجهة نظر صاحب البيان بأوضح وأدق ما يكون: «الانسان بعيد عن الكمال، فهو إذا أمسك بالقلم، عليه أن يعبر عن خوالج نفسه وعن آرائه ومفضلياته، وخير له حينئذ أن يرمى بالابتعاد عن الأخلاق من أن يوصم بالبعد عن الصدق، فالصدق هو المورد الأوحد الذى يجب أن تصدر

عنه كل كلمة يسطرها كل من يشرف نفسه بمهنة الكتابة، الصدق لايخيف، ولعله لاتوجد وجهة من وجهات النظر تصدر عن رجل عاقل إلا وتحمل فى ثناها قبسا من نور الحقيقة، فإن عرف كيف يربط هذه الحقيقة ببعض مشكلات الحياة. فلابد أن يعود هذا الجهد على الجنس البشرى بفائدة ما. التحيز وحده هو العدو الأكبر للأخلاق وللحقيقة، وهو وحده الذى يخيف لأنه دليل الضعف أولاً».

عبر هذه القنطرة المتينة الراسخة يوضح صاحب البيان أن الفن محاكاة، أما الأخلاق فهى جماع التقاليد الموروثة والعادات المرعية، وأما المحاكاة فيجب أن تكون صادقة لتنتج أدبا نافعا، وأما الصدق فلا صلة له بالتقاليد والعادات، ثم إن الأخلاق شيء نسبى محض، يختلف باختلاف الزمان والمكان، كما يختلف فى الزمن الواحد فى المجتمع الواحد باختلاف الأفراد إلى حد كبير، وهذا ما يوضحه الناقد الانجليزى ريتشارد فى كتابه (قواعد النقد الأدبى) بقوله: «الأخلاق عرض زائل». والفنان لايستطيع أن يصل إلى كنه الحياة وحقيقة قيمتها إن التزم حدود الخير والشر التى يعتنقها فرد أو مجموعة أفراد. فهو ـ فى هذه الحالة ـ بدلا من أن ينظر إلى تلك القيم فى الخلجات الدقيقة التى ينبض بها عرق الحياة، يضطر إلى البحث عنها فى حدود المبادىء المجردة وقواعد السلوك العامة إلا أن الفنان خبير بتلك الخلجات الدقيقة فهى حقه ومجاله. فالأجدر به ألا يلقى بالا إلى المجردات والعموميات التى تبدو فى الحياة العادية فى مظهر خشن يستحيل معه أن يميز بين ماله قيمة ذاتية وبين ما هو من الأصباغ الاجتماعية».

ويثور صاحب البيان على الذريعة الخلقية لأنها فى عمقها البعيد محاولة المحافظة على قديم التقاليد والأوضاع، فى حين أن الاصلاح هو نقد هذه القيم ومحاولة استبدالها بما هو أنفع: «فإذا كانت الأخلاق فأراً فالإصلاح هراً. وإذا كانت المحافظة على القديم تعتبر عملاً أخلاقياً، فالاصلاح بطبيعته عمل غير أخلاقى لأنه يناهض قواعد السلوك المتوارث والعادات المرعية».

ويقوده رفض الذريعة الأخلاقية إلى رفض أسلوب النقد ـ أو التحكيم ـ

القائم بها وعليها ـ «ليس من وظيفة الناقد أو المحكم أن يحمى الأخلاق، فالقنون لم يترك أى عمل على مرتكبيه العقاب الصارم، كما أن من ورائها قوة الرأى العام التى تؤيدها وتشد أزره بعنف يفوق سطوة أى قانون فالأخلاق محمية بغير تدخل المحكم، أما الناقد الذى يدعى حماية الأخلاق، فهو كالطفل المسافر الذى يدفع حلقة النافذة ليضفى على نفسه شعور المتسبب فى إنطلاق القطار بسرعة ستين ميلا فى الساعة، أيها الناقد إن الطفل ليس هو السائق.. ولا أنت».

ولعلنا يجب أن نتنبه إلى الاستدراك التالى فلا يخدعنا جانب السخرية فيه بل إن جانب السخرية هذا هو الحافز الأكبر على محاولة النفاذ إلى جوهره، حيث يقول: «لعلك فهمت يا مليم أن اللا أخلاق ـ وليست الأخلاق ـ هى التى فى حاجة إلى الحماية. وأن الأخلاق ـ وليست اللا أخلاق ـ هى التى فى حاجة إلى الكبح. فبفضل أثقال الخمول والخرافات التى توقر ظهر كل رائد، وبفضل سوء القصد، والسوقية، والأحكام المتبسرة، التى تهدد كل مصلح، كانت الأخلاق دائما سببا فى شتى أنواع الاضطهاد التى يحدثنا التاريخ بأمرها، هذه عبارة كفيلة بأن تهز فى أعماقنا كثيراً من الأبنية العتيقة الخربة، التى يجب أن نحيلها إلى أنقاض علينا أن نتخلص منها لنخلى المكان لأبنية جديدة على وعى جديد.. ذلك أن: «اللعفن والانحلال هما العقوبة القاسية التى تفرضها الأخلاق على المجتمع الذى يتمسك بقواعدها بعناد أو بغباء» .. واذا كانت الديانات قد وضعت الأسس الأخلاقية للبشر، فإن: «إدراك هذه الأسس يتوقف على مدى فهم الناس لها، وما تستدعيه فى نفوسهم من معان، وما الذى يوسع من مدارك الناس غير الأدب؟ هذه وظيفته وتلك علة وجوده».

ذلك هو الأدب الصحيح الحق، كما يفهمه صاحب البيان ويدعو إليه، الأدب الذى تقوم به نهضة الأمم: «فإن كنت تعتقد يا مليم أن الإيمان بالمال هو وحده المسيطر على عقول شباب هذا الجيل، فعلى من يقع الوزر؟ على من كان

فى وسعهم أن يقدموا المثل الصالح فلم يفعلوا، وعلى من يقدرون على تأليف الكتاب المفيد، ففضلوا الكتاب المربح.

وإلا فكيف تأمل أن تغرس بذور العدل والصدق والأمانة فى نفوس الشباب وأنت ترى الكتاب يقررون الزيف الشعبى، بل ويمارسونه». غير أن الحال الزرى لايفت فى عضد صاحب البيان..» فنحن فى بطن أزمة حرجة لاتنفك إلا بتعزيز المصير، فهل نقف على الشاطىء لنمتدح المقبل ونهجوا المدبر كدأبنا منذ سنين وسنين؟.. هل نتخلى عن واجبنا حيال تلك الأم العبقرية التى شرفتنا كثيراً ولم نستطع أن نشرفها أبداً؟» على هذه التساؤلا يجيب بكل قوة وصلابة: «هذه هى الفرصة يا مليم. عليك أن تكدح حتى تقع، وأن تهدم حتى تقتل، عليك أن تطرح عن نفسك السخافات والترهات وقديم الأقاصيص والحكايات، ولتنزل من بعد إلى خضم المعركة، فمن ورائك شعب بأسره يستند ظهرك، شعب يرغب فى الحياة بعد أن سئم السموم والمخدرات التى تدس له فى بطون الكتب المزوقة، والخطب المنبرية التى لاتنتهى، فحرام أن نقسو على شعبنا أكثر مما قست عليه الناس والأيام،وأنا أرى أن حال مريضنا قد أخذ فى التحسن، فالدفء يسرى فى الأطراف والدم يجرى إلى القلب. فهل لديك حقنة الكافور يا مليم؟.

العجيب، والمثير للأسى حقا، أن هذا الكاتب العبقرى، صاحب هذا البيان الفذ، قد توقف تماما عن الكتابة بعد هذا البيان، فكأنه ـ وهو البيان القوى المقتحم النازل إلى المعترك فى فروسية جبارة ـ كان فى نفس الوقت بيان انسحاب تام من الساحة، كأن الكاتب قد كتب وصيته النهائية، وودع الحياة بعدها إلى الأبد!!.. ترى هل كان متأثراً بمصير بطله خالد التقدمى الثائر الذى انتهى نهاية مأساوية، مهزوماً تحت سلطة الأب، وسلطة التقاليد البالية والعادات الراسخة؟ هل اقتنع صاحب هذا البيان ـ مثلما اقتنع بطله خالد ـ أنه لاجدوى من جهود الثوار على كافة الأصعدة إذا لم يتغير المجتمع برمته كانساق معرفية لم تعد صالحة لمدة بالدم الصالح للحياة؟ أيا ما كان الأمر فإن غياب هذا الكاتب عن الساحة يعد خسارة

فادحة.. صحيح أن تجربته الروائية لم تكتمل، بل بالكاد بدأت، ولكن هذه البداية لم تكن ككل بدايات الشبان فى أى عصر من العصور، إنما كانت ميلاد عملاق تم وأده فى مهده، فبقيت منه صيحة مدوية لن تبرح مكانها من الأسماع إلى الأبد، شعلة لاتنطفىء وإن هبت عليها هوج الرياح، ولاتفقد وهجها وإن اجتمعت عليها جبال الظلام.

دراسة بقلم:
خيرى شلبى

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٨٨٥ / ١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 5921 - 2



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مائة وخمسون قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب